

«سلسلة الروايات اليابانية»

عارٌ في السلالة

تيتسيو مِيُورا

ترجمة : فادي طفيلي

تيتسويو ميورا

عار في السلالة

ترجمة: فادي طفيلي

مراجعة: د. خالد المصري

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

PL856.I83 S512 2011
Miura, Tetsuo, 1931- 2010
[Shinobugawa]
عار في السلالة / تيتسويو مييورا؛ ترجمة فادي طفيلي؛ مراجعة خالد المصري. -ط.
1 - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص 322 ؛ 13.5×19سم.
ترجمة كتاب: Shinobugawa
العنوان بالإنجليزية : Shame in the blood
تدمك: 978-9948-01-980-0
1. القصص اليابانية -- القرن العشرون -- المترجمات إلى العربية.
2. القصص العربية -- القرن العشرون -- المترجمات من اليابانية. أ. طفيلي، فادي.
ب. مصري، خالد. ج. العنوان.
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الياباني:
Original title: Shinobugawa
Written by Tetsuo Miura

Originally published in Japan by Shinchosha, Tokyo.

Based on the English translated edition, Shame in the Blood published by Shoemaker & Hoard, 2007, translated by Andrew Driver.

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+
www.adach.ae
أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 171 6576 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



وصف شينو

اصطحبت شينو مرّة إلى فوكاغاوا في الجزء القديم من طوكيو. لم يكن قد مضى وقت طويل على لقائنا الأوّل.

كانت فوكاغاوا مسقط رأس شينو ومسرح حياتها حتّى سنّ الثانية عشرة. أنا شخصياً وصلت حديثاً إلى طوكيو في الربيع الماضي من شمال توهوكو القصيّ، وكان غريباً عليّ التفكير الآن بوجوب أن آخذ هذه الـ «الفوكاغاويّة» إلى مسقط رأسها. غير أنّ شينو كانت قد أجليت إلى توتشيغي في الصيف الذي سبق انتهاء الحرب ولم تعد منذ ذلك الحين إلى فوكاغاوا، هذه الأخيرة التي سوّيت بالأرض وأوشكت أن تصبح مكاناً مجهولاً بالنسبة لها. أمّا أنا، الولد الريفي، فكنت تعوّدت التجوال في فوكاغاوا مرّتين أو ثلاث مرات في الشهر، لا بل أحياناً على

مدى أيّام آحاد متتالية. كانت فوكاغاوا بالنسبة لي الناحية الأكثر ألفة في طوكيو كلّها باستثناء درب رحلتي إلى الجامعة ذهاباً وإيابا في كلّ يوم.

ركبنا الترامواي العابر في فوكاغاوا بطريقه من كينشيبوري إلى محطّة طوكيو، ونزلنا أمام متنزّه طوكيو في فوكاغاوا، عند الزاوية التي التقت فيها خطوط الترامواي بقناة سوساكي وانحرفت، تلك الخطوط بزاوية تسعين درجة على نحو مفاجئ. حين انطلق الترامواي مغادراً مطّت شينو ظهرها متنشّقة الهواء وألقت نظرة شاملة على الشوارع حولنا. كان يوماً مشمساً قائظاً من أيام تمّوز. بصفوف بيوتها الجاثمة والمؤقّتة، البيوت الملسوعة بلهيب الشمس، خمدت الشوارع تحت الغبار الأبيض والحرّ الوامض.

«آه يا عزيزي. لقد تبدّلت تماماً»، قالت شينو بأسى. «أشعر بأنّني غريبة هنا. الشيء الوحيد الذي أذكره هو المدرسة».

أشارت عبر الطريق إلى مبنى من طبقات ثلاث كان إسمنته الأسفع الجاثم معرّضا للشمس. ذاك المبنى كان مدرسة شينو مدة خمسة أعوام.

قلت لها «لا تقلقي، ستستعيدينها حين نتقدّم في سيرنا. أنت في النهاية ولدت ونشأت هنا، أليس كذلك؟».

ضحكت شينو. «هذا صحيح. لا بأس، كلّ ما تبقّى ربّما يكون قد تبدّل، لكنّ الطرقات على الأقل ينبغي لها أن تبقى كما كانت». أعادت نظرها إلى مبنى المدرسة البائس. «إذن هو هكذا فحسب...، لقد سمعت أنّ المكان كان قد احترق ومهّد بالأرض، لكنّي لم استطع تخيّل احتراق المدرسة أيضاً. لم يكن بوسعي التصديق أنّ النيران قد تأتي على مبنى إسمنتيّ كهذا. لكنّي حين رأيته أدركت حقيقة الأمر بسبب النوافذ. حين يحترق مبنى من إسمنت، تغدو نوافذه سوداء كلّها، أليس كذلك؟».

راقبتها وهي تنظر من النوافذ المسودّة، المضغوط بعضها على بعض مثل خلايا قرص عسل احترقت حوافه. حين طرفت بعينيها اللوزيّتين النحيلتين كما لو أنّها اكتشفت أمراً غير متوقّع، كان قد حان دوري آنئذ للضحك.

«في الواقع، إذا كنت ستذهلين هكذا في كلّ مرّة، فسنبقى هنا طوال اليوم!».

هزّت شينو كتفيها غير مبالية. «حسناً، هل ستقود المسير؟ أيّ طريق هي الأقرب يا ترى؟».

«أظنّ كيبا».

«كنت أظنّ سوساكي».

سوساكي كما تذكّرت تقع في الجهة الأخرى من القناة. في تلك الحال، بإمكاننا السير إلى هناك انطلاقاً من كيبا. وهكذا قطعنا، أنا وشينو، خطوط الترامواي الوامضة، وقطعنا الظل الضيّق الممتد لمدرسة شينو القديمة، الظلّ الجاثم فوق الطريق، متوجّهين نحو خزّانات المياه في كيبا.

أرادت شينو زيارة المكان الذي شاهدت فيه أخي لآخر مرّة. وعندما نكون هناك، تدلّني على المكان الذي ولدت ونشأت فيه.

كيبا منطقة الغابات والقنوات. دائماً كلّما أقصدها أجد الرياح عاتية والمياه في الخزّانات مضطربة بفعل الموج المتدافع تحت الأخشاب الطافية. في كيبا تحمل الرياح في طيّاتها عبق الخشب ورائحة المياه المصرّفة. رياح محمّلة بنشارة الخشب التي تلسع أعين غير المعتادين عليها كما يفعل دخان نار مشتعلة. وحدهم القادمون من أنحاء البلاد الأخرى يسيرون في كيبا وعيونهم دامعة.

أوّل مرّة سرت في كيبا بكيت بدوري، وقد سلّى الأمر أخي كثيراً، هو الذي اصطحبني إلى هناك. نعم، كان قلبي طافحاً بالبهجة إذ كنّا مشينا معاً جنباً إلى جنب. ولئن بدا الدمع في

عيني، فإنّ اللوم بالتأكيد يلقى على الرياح.

ثمّ مشيت في كيبا مرّة أخرى في الربيع المنصرم عند عودتي إلى طوكيو للمرّة الأولى في خلال سنتين. آنذاك، كان أخي قد غادر حياتنا ومسّ قلبي بشيء من الغضب كما يفترض الأمر. لكن حتّى مع هذا، وكنت موقناً من ذلك، فإن الرياح هي التي أغشت بصري طوال الوقت. ربّما لن تتعوّد عيناي كيبا ما حييت. أو إن نشارة الخشب في أنحاء كيبا كلّها هي ما يكثّف الأجواء فوق الطريق التي أسلكها باستمرار. على أيّة حال، فقدت الأمل منذ ذلك الوقت في تعوّدها.

إلا أنّ كيبا في هذا اليوم كانت مختلفة ونائية بجوّها على نحو غريب. أكوام الخشب، والخزّانات، وكلّ ما فيها كان مغموراً بضياء باهر لا مثيل له أزاغ بصري، حتّى أنّ صوت المناشير النازلة في الأخشاب تقطيعاً بدا غريباً تماماً على مسمعي. في خلال جولاتي فيها التي غدت الآن مألوفة، كنت قد بدأت أعرف بعض وجوه أهلها: المرأة في محل بيع السكائر، وصبي توصيل الطلبيّات في مطعم العصائبيّة[1]، والحرّاس أمام مباني معامل

(1) النودلز Noodles: وهي ضرب من المعكرونة المسطّحة على شكل عصائب أو شرائط.

الخشب المصفوفة خلف بعضها البعض، وسائقي الشاحنات. بعد أن فقدت أخي وفي فترة زمنيّة قصيرة، كنت أجول في أنحائها سائلاً عنه و بيدي دفتر ملاحظاته الصغير القديم، آملا أن أكتشف شيئاً يتعلّق بمآله الأخير.

أخطأ هؤلاء الأشخاص الطيبون جميعاً عندما ظنّوني محقّقاً في البداية، ثمّ استحال ظنّهم ذاك فيما بعد ابتسامات عريضة. لكنّهم في هذا اليوم، ولسبب ما، لم يفعلوا سوى التحديق إلينا وفي عيونهم نظرات غريبة. حين قابلتهم بنظرات مماثلة كانوا يشيحون الطرف سريعاً أو يصدرون أصوات همهمات غير مألوفة. وكانت عيناي جافتين من البداية إلى النهاية. حتّى أنّ الريح بدت كأنّها تتحاشاني في ذلك اليوم.

بدا الأمر وكأنّ كيبا لا تعرفني إذ تغمر السعادة قلبي.

وقفنا معاً أنا وشينو قرب أحد الخزّانات في ضواحي كيبا. هبّت الريح لافحة وجهينا، وضياء الشمس الهابط على المياه واصل ارتعاشه وتألقه على سطحها. في الأفق، لاح على سطح المياه طوفان خشبيان أو ثلاثة. هناك خلفهما، امتدّت كتلة بائسة من نفاية خشبيّة، وكان بوسعي سماع صوت آلة غير معروفة،

صوت يشبه دندنة النّعرات[1]، صادر من وراء ذلك.

«هذا أقصى ما قد نبلغه. هذه كيبا بالنسبة لك إذن. لا يوجد شيء هنا على الإطلاق»، قلت لها، وقد بصقت فوق المياه.

«يا له من نسيم عليل. كأني رجعت إلى الديار في فوكاغاوا أخيراً».

رافقت شينو في هذه الطريق وتلك تحت شمس متوهّجة وعبر شوارع بدت غريبة حتّى عليّ. وقد تلفّتت بوجهها الصغير كي يلفحه النسيم، في حين التصقت خصلات خفيفة من شعرها بالعرق على جبينها ووجنتيها.

«هيا لنعد إلى البيت. لا بدّ أنّك تشعرين بالضجر»، قلت لها. وقد ندمت على اصطحابها إلى هناك.

هزّت رأسها كأنّها تنفي ذلك. «لا، لا، بالكاد وصلنا إلى هنا. دعنا نبقى قليلاً أيضاً».

انثنت جالسة القرفصاء وذراعاها حول صدرها. «هل هذا هو المكان؟»، سألت، هكذا ببساطة.

«نعم»، أجبتها.

(1) النعرة: ذبابة ضخمة زرقاء تسقط على الدوابّ فتؤذيها وتدخل في أنوف الخيل والحمير.

كان ذلك هو المكان الذي رأيت فيه أخي للمرّة الأخيرة. كان أخي قد درس الكيمياء التطبيقيّة في الجامعة التقنيّة وانتقل ليصنع الطربيدات[1] في معهد أبحاث المتفجّرات التابع لدائرة الدراسات البحريّة. لكن عند انتهاء الحرب، ولسبب لا يعرفه سواه، انضمّ إلى شركة الأخشاب التي تملك هذا الخزّان. عندما أعطاني بطاقة الزيارة الشخصيّة التي تضمّ اسمه لاحظت أنّه كان قد صار «مديراً تنظيميّاً». عمل في تلك الشركة طيلة خمسة أعوام، وحين تخرّجت أنا في المدرسة الثانويّة في بلدتنا وانتقلت إلى طوكيو، كان قد مضى عليه هناك أربعة أعوام. باشرت الدراسة في الجامعة بفضل دعمه المالي. كنت الأصغر بين ستّة أبناء، وكان والدنا قد أصبح شيخاً. وعلى الرغم من ذلك، لم يظهر ما يشير إلى أن أخي يجدني عالة كبيرة عليه. كلّما احتجت إلى المال، ذهبت إلى الشركة التي يعمل فيها وطلبت منه مبلغاً. كان يمنحني ما أطلبه في كلّ مرّة دون اكتراث ثمّ يدعوني إلى غداء دافئ، إلى وجبة ياناغاوانابي[2] مثلاً. بعد عام، وفي مطلع الربيع، ذهبت لرؤية أخي مجدّداً. كان قد مضى وقت لم يتح لنا

(1) قذيفة ذاتيّة الانطلاق لنسف سفن العدو، أو لغم بحري للغواصات.

(2) وجبة مؤلّفة من سمك اللّتش، وهو سمك نهري من الشبابيط، حيث يغلى مع الأرقطيون الذي هو نبات شائك من الفصيلة المركّبة.

أن نلتقي فيه. في المكتب المهجور، كان ثمّة رجل يتدفّأ فوق كانون من الجمر. قال الرجل إن المدير التنظيمي ليس في مكتبه، بل ربّما ذهب إلى الخزّان. عبرت في صمت المعمل وصعدت إلى طرف الخزّان. كانت الريح لاتزال مفعمة ببرد شتائي وقد ثلّمت سطح المياه. بدا الماء شفّافاً إلى حد ما من السطح حتّى القاع. وكان أخي يخطو وحيداً بلا توقّف من طوف إلى آخر، ممسكاً بخطّاف إطفاء معدني دون الإفادة منه على نحو واضح. كادت هيئته بقميصه الأبيض وبلا سترته تبهر البصر. أخافني ذلك المشهد بعض الشيء. هتفت باسمه على نحو غريزي. وقف جامداً في وضعيّة مضطربة، ثمّ تحرّك ببطء عابراً نحو الطوف الأقرب إلى الضفّة. ركضت على طول حافّة الخزّان الإسمنتيّة نحو النقطة الأقرب من الطوف، لكنّ المؤكّد أن مسافة المياه التي كانت تفصلنا بلغت أربعين قدما أو أكثر. «ماذا هناك؟» صاح وهو يقف على نحو غير متوازن على حافة الطوف. أجبته صائحاً بأن الأمر لا يتعدّى طلب المال المعتاد. هزّ رأسه على الفور وسألني أن آخذ دفتر الحساب المصرفي والختم الذي يضم اسمه من درج مكتبه. عليّ سحب ما أحتاج إليه بنفسي. كان لديه عمل من نوع آخر كي ينجزه في ذلك اليوم، وينبغي لنا أن

نلتقي في وقت غير هذا. حدّق واحدنا في الآخر دون كلام برهة قصيرة. بدا أخي أطول قامة من المعتاد إذ كانت الشمس تغيب خلفه. عيناه الغائرتان شكّلتا حولهما ظلالاً كبيرة وداكنة وقد جعلت من رأسه يبدو مثل جمجمة. شكرته للمال عندما هممت بالمغادرة. حينها أبدى ابتسامة مفاجئة. «لا تأخذ الكثير»، قال، رافعاً خطّاف الإطفاء عالياً في الهواء.

تلك كانت المرّة الأخيرة التي رأيته فيها.

مضت ثلاثة أعوام. ذاك الخزّان الذي يملكه اليوم شخص آخر، كان هناك أمامنا.

«هل هذا آخر ما سمعته من شقيقك؟»، سألت شينو.

«أجل».

«ماذا حلّ به من بعدها؟».

«لقد مات».

انسلّت الكلمات في منتهى الخفّة. فأنا في النهاية، ومنذ طفولتي، كبرت متعوداً قولها. شقيقتي؟ ماتت. أخي؟ مات. كلمات كهذه بدت تلقائيّة بالنسبة لي. لقد مات. هذا كلّ ما في الأمر. لم يكن هناك ما هو أكثر من ذلك. لم أكن بحاجة إلى تفسير أيّ شيء.

«حسناً، لنذهب»، قلت، ورحت أمشي. «في النهاية هذا مجرّد خزّان، ولن يسعنا تغيير شيء عبر النظر إليه». لكن شينو بقيت على الرغم من ذلك هناك في المكان، مصلّية بسكون أمام صفحة الماء. مؤخّرة عنقها النحيل الأبيض، البادي من خلال ياقة الكيمونو، أسرت عيني. الصوت الصادر من وقع خطاي تردّدت أصداؤه أمام صفحة الماء مثل قرع على لوح خشبي.

من هناك ذهبنا إلى سوساكي.

سوساكي هي المنطقة الوحيدة التي لم أزرها قط في الجزء القديم من طوكيو. لم يصطحبني أخي إليها من قبل. قمت بزيارته مرّة عندما كان يعيش مع عائلة رئيس الشركة التي يعمل فيها. كانت العائلة قد أكرهت على الخروج من منزلها المحترق وسكنت على نحو مؤقّت في أحد الصفوف بمدرسة شينو القديمة. صعدنا معاً إلى السطح وألقينا نظرة مشرفة على شوارع سوساكي.

لقد بدت مكاناً غريباً. أزقّة ضيّقة حشرت فيها من الجهتين بيوت صغيرة مبهرجة الألوان، زيّنت أسطحها ونوافذها بثياب داخليّة حمراء وبيضاء نشرت كي تجفّ، وقد أخذت تلك الثياب ترفرف في الهواء. بدا المشهد مثيراً للفضول في نظر فتى ريفيّ مثلي.

قلت «لن أمانع في الذهاب إلى هناك».

ردّ أخي «لا تكن أحمق»، وقد احمرّت وجنتاه في الحال.

سوساكي كانت منطقة عاهرات.

حين بلغنا خطوط الترامواي، بدا أن ذكرى قديمة عادت إلى شينو. هناك عند طرف الشارع، وعلى نحو مفاجئ، تعرّفت إلى لافتة متجر قديم لبيع الشيروكو، حساء الفول السكريّ.

«آه، تذكّرت. الآن أعرف أين نحن!».

أسرعت وتجاوزتني صافقة بيديها أمام صدرها، وانحرفت إلى طريق جانبي. انحدر الطريق قليلاً قبل أن يلتقي بالقناة، هذه الأخيرة التي يمكن المرور فوقها عبر جسر حجري عريض. تقع سوساكي في الطرف الآخر من الجسر.

ثمة في أوّل الجسر من هذه الجهة كشك عمومي لم يكن بوسعي تحديد ما يبيع. في ظلّ سور من القصب أحاط به، استندت إلى خلفيّة مقعد وضع هناك امرأة في منتصف العمر ذات ملامح واهنة. كانت المرأة ترتدي فستاناً من قطعة واحدة تتّسع فتحته عند الرقبة وقد جلست تراقب الشارع بعينين نصف مغمضتين.

قالت شينو «إنّه جسر سوساكي».

لاتزال حواف الجسر الحجريّة موشومة بخطوط سوداء في المواضع حيث لسعتها ألسنة اللهب. تلمّستها شينو برفق براحة يدها. ثمّ رفعت نظرها بفضول نحو قوس شقّ السماء في أقصى طرف الجسر. ضمّ القوس كتابة بأحرف تحوي كرويات ضوئيّة عند أطرافها، ما افترض توهّجها في الليل. قرأت شينو بصوتها الخافت «ج - نّ - ة - س - و - س - ا - ك - ي».

««جنّة» هذه توحي لي بالرخص»، قالت، وقد توردت وجنتاها.

ثمّ عادت إلى المسير دون كلام.

مشت شينو بصمت فوق الجسر. تسارع النبض في صدري من تلقاء ذاته. لا لأنني لم أزر منطقة دعارة من قبل. ففي مناسبات عدّة - غير هذه - قمت بالتجوال في مناطق شبيهة برفقة أصدقاء، وذلك تحت تأثير الشراب وبغية إشباع بعض الرغبات الدنيئة العابرة. أمّا الآن، فها أنا أتقدّم للسير في هذه الشوارع بوضح النهار في يوم مشمس وتحت مظلّة بيضاء واحدة مع المرأة التي قادت مشاعري. بدا لي ذلك أمراً عجزت عن تصوّره.

انحرفنا بعد عبورنا الجسر نحو أوّل زقاق جانبي إلى اليسار، فظهر حيّ الدعارة هناك أمامنا على نحو مفاجئ. بدت شوارع

الحيّ ملسوعة بالشمس وقد شحبت ألوانها كشحوب رجل مريض. القرع الصادر عن وقع أقدامنا كان الصوت الوحيد الذي أمكن سماعه في ذلك الشارع الضيّق والهادئ على الرغم من استمرار انغماسه في أجواء الليل القذرة.

عند زاوية زقاق آخر، في موضع تكدّست فيه بيوت سيّئة السمعة حشر بعضها ببعض، وقفت شينو فجأة واستدارت نحوي. «هذا هو»، قالت، مشيرة إلى بناية بدت في حال مترهّلة عند الزاوية. «هذا هو المكان الذي ولدت فيه».

كان صوتها قويّاً وواضحاً. سادت وجهها مسحة من الخجل، لكن لم يكن هناك في صوتها أيّ أثر لخزي ولو ضئيل.

«أمّي كانت تدير حقل رماية هنا. أنا ابنة صاحبة حقل رماية في حيّ الدعارة».

نظرت شينو إلى عينيّ وابتسمت، وقد فاض وجهها بشيء مثل قوّة داخليّة. تلك القوّة بدت وكأنّها تجمع حبّيبات العرق التي تلألأت فوق جبينها وانبثقت من وجهها، ثمّ انتقلت من وجهها ذاك إلى قلبي بإيقاع كإيقاع التموّج في الماء.

«لا بأس بهذا»، قلت، «ليس ثمّة ما هو سيئ في هذا الأمر».

لم أنتبه في كلامي المتسرّع إلى صوتي الذي بدا مرتجفاً ومتوتّراً. حينها راحت مظلّة شينو ترتجف. بدت أصابعها وهي تحكم إمساك المقبض بيديها الاثنتين مشرقة البياض إزاء زنّار الأوبي[1] الأحمر القاني. وقد ألقت عليّ نظرة معاتبة.

قالت بنبرة حازمة: «انظر إليها بتأمل. فلا تنساها أبداً». نظرت. فرأيت جدراناً زهريّة اللون مقشورة الطلاء في مواضع عديدة، وأعمدة مكسوّة بالجير تنبثق على نحو غير متوقّع من أرض إسمنتيّة متشقّقة، وشرفات مجنّحة في الأعالي من طراز غربي مبتذل، وأضواء نيون معلّقة كشبكات عناكب قديمة في الهواء على طول الزقاق. «بيت النساء» المتوهّج ذاك تضاء واجهته مع حلول الظلام بلمبات ملوّنة مثيرة. لكن تحت شمس الظهيرة، ليس البناء إلا بناء مهجوراً يلتقط أنفاسه بصعوبة. هنا، من بين كلّ الأمكنة، فكرت في أنّه من غير المجدي السعي خلف طيف المكان الذي ولدت فيه شينو.

سقط شيء فوق مظلّة شينو ثمّ عاد وارتدّ عنها مصدراً صوتاً كهطول حبّات المطر. حين نظرت إلى الأعلى شاهدت مجموعة من النساء المنتفخات العيون، تظهر أكتافهنّ وصدورهنّ، وقد

(1) زنّار عريض يشدّ فوق ثوب الكيمونو الياباني.

جلسن في نوافذ الطبقات العليا حولنا. كانت النساء ينظرن بصمت إلينا في الأسفل، فيرحن وجناتهنّ على أيديهنّ المبسوطة فوق فرشات الفوتون[1] التي كانت متدلّية من النوافذ حتّى نصفها كي تعرّض للهواء. ثمّ قامت واحدة منهنّ ببصق العلك الذي كانت تمضغه، موجّهة إيّاه نحو مظلّة شينو. حين أصابت الهدف، أطلقن جميعاً ضحكة مكبوتة.

أخفضت شينو نظرها وأكملت سيرها دون أنّ تنبس بكلمة. مشينا قليلاً نحو عمق الحيّ. والتفتت شينو فجأة إليّ.

سألت «هل صدمك هذا؟».

«في الواقع..».

«أنا آسفة». قالت معتذرة وكأنّ الأمر كان خطأها. «لا أودّ تناولهنّ بالسوء، لكنّ العاهرات لم يكنّ هكذا فيما مضى. عندما يتعلّق الأمر بالكبرياء المهني، فقد كنّ آنذاك ينتمين إلى طبقة مختلفة. كأنّهن جميعاً اليوم يعتبرن الأمر مزحة، وهذا ما يثير أعصابي كلّما نظرت إليهنّ. سبب هذا على ما أعتقد هو تبدّل الأزمنة، لكنّني في الحقيقة أبقى عاجزة عن احتمال تلك الفتيات

(1) فرشات نوم يابانيّة تقليديّة قابلة للطيّ خلال النهار وتفرد للاستخدام عند الحاجة.

الهاويات. أنا واثقة بأن والدي كان سيصاب بخيبة أمل».

«كيف هو والدك؟».

«والدي؟» استدارت مائلة برأسها وضحكت. «إنّه كسول لا ينفع في أمر. في الحقيقة، صحّته متردّية في هذه الأيّام وينبغي لي ألا أقسو عليه. هو ابن بكر لصبّاغ أقمشة في توتشيغي، وكان من المفترض أن يرث عمل والده ذاك. لكنّه حين كان صغيراً لم يكن لديه وقت للدرس، وقد جرى تجريده من حق إرثه للعمل. جنّ جنونه إثر هذا وتخلّى عن تعليمه وراح لا يفعل شيئاً سوى إدمان الشراب، قائلاً عن نفسه «أنا رديء، أنا فاشل». لكن حتّى في حينها، وفي يوم مهرجان معبد بنتن[1]، ظلّ يرتدي ثياباً لائقة مثل سترات الهاوري[2] النصفيّة المصنوعة من الحرير. الناس في حيّ الدعارة كانوا ينادونه «بروفسور أتاريا». أتاريا هذا هو اسم نادي الرماية الذي كانت تديره أمّي. في الحقيقة، لقد اعتنى بالعاهرات الأقل حظّاً وأسدى لهنّ النصح. أذكر إحداهن، أوناكا العاملة في بيت تونيرو، إذ كانت قريبة منّي. كانت مريضة بالسل ولم تستطع العمل بسبب ذلك، إلا أن عقدها كان

(1) Benten.

(2) سترة يتمّ ارتداؤها فوق الكيمونو.

مازال صالحاً لفترة من الوقت، فراحت تقصد والدي كي تسأله النصح. في النهاية، لم يبق شيء يمكن لأحد أن يساعدها فيه، وفي يوم مهرجان معبد فودو أجهزت على نفسها عبر دسّ السمّ في هلام التوكوروتين[1] وأكلته. عندها بات العاملون في بيت تونيرو الجماعة الأكثر فظاظة في حيّ الدعارة كلّه. أحسّوا بالخوف ولم يسع أحد منهم لتهدئة الأمور، فقام والدي بالتكفّل بكلّ شيء من البدء حتّى الختام. في إحدى الأمسيات، قام بتحميل تابوت أوناكا في عربة عبر الباب الخلفي. راح هو يجرّ العربة من الأمام وقمت أنا بدفعها من الخلف حتّى بلغنا ناكانوتشو. وهناك صادف وجود أشخاص من أصحاب المتاجر يقومون بتبريد الطريق عبر رشّها بالماء مستخدمين دلاء طويلة يغرفون بها من خزّان كبير لمياه الأمطار. تقدّم هؤلاء واحداً إثر آخر وانضمّوا لمساعدتنا في دفع العربة على طول الطريق إلى بوابة معبد دايمون. دائماً أقوم بأمور كهذه، منذ أن كنت طفلة».

كنّا نسير حينذاك عبر ناكانوتشو باتجاه بوابة المعبد المذكور ذاتها، والتي أمكنني رؤيتها من بعيد. مشينا في طريق عريض

(1) طبق حلوى من الـ «جيلو» يتمّ تناوله بارداً وتضاف إليه طبقة من الزنجبيل على وجهه.

مرصوف، في شارع عادي للتسوّق تحيط به المتاجر المتألّقة. نظر أحدنا إلى الآخر وضحكنا معاً في وقت واحد إذ شعرنا بالارتياح.

قلت لها «قطعنا مسافة طويلة أليس كذلك؟».

أجابت شينو «أجل، لكني الآن مرتاحة الفكر». «فأنت تعرف الآن كلّ شيء عنّي. أشعر بالاكتمال. إنّه لشعور جميل».

رفعت شينو رأسها، وأغمضت عينيها وتقدّمت خطوتين أو ثلاث خطوات، ثمّ توقّفت على نحو مفاجئ وأمسكت بذراعي. كنّا عند بداية جسر سوساكي دايمون.

«هيا بنا نذهب إلى أساكوسا!».

«أساكوسا؟ تقصدين أن نعود أدراجنا إلى توتشيغي...؟» انطلق القطار إلى توتشيغي من أساكوسا.

«لا، بل فقط كي نتسلّى. جعلتني رؤية سوساكي أشعر برغبة مفاجئة في الذهاب إلى هناك. أبي كان يعشق أساكوسا. ولطالما أخذني إليها. كنّا نشاهد فيلماً سينمائياً ثمّ ألعب في دوّامة الخيل[1] بمتنزّه هاناياشيكي، وفي طريق عودتنا إلى البيت نعرّج على بار

(1) لعبة يمتطي فيها الأطفال تماثيل أحصنة تدور.

كاميا. كان أبي يسمح لي بتناول قليل من النبيذ فيما هو يحتسي بعضاً من كوكتيلات دينكي بران بالغة القوّة، تلك الكوكتيلات التي يشتهر بها المحلّ».

«لكن بما أنّه يوم عطلتك، فربّما من الأفضل أن تعودي إلى توتشيغي».

مازال والد شينو يعيش في توتشيغي مع شقيقها وشقيقتيها.

«أجل... لكن ولأنّه يوم عطلتي أودّ القيام بشيء لا يسعني القيام به في العادة. نعم، أعتقد أنّني أودّ الذهاب إلى أساكوسا».

فكرت بالرتابة اليوميّة الصعبة في حياة شينو، وبالإثارة التي تملأ اليوم قلبها. وقلت إنّه ينبغي لك القيام بكلّ ما ترغبين فيه.

«شكراً!» قالت وفاجأتني بمصافحة، ثمّ ضبطت نفسها وعادت للمسير على نحو مستعجل.

«غير أنّي أتساءل إن كان بار كاميا مازال موجوداً هناك؟».

«أعتقد نعم. لديّ شعور بأنّني لمحته مرّة في طريق عودتي إلى البيت في توتشيغي. هيا نشاهد فيلماً ثمّ نذهب إلى بار كاميا. سوف أطلب النبيذ وأنت تطلب دينكي بران. ولنشرب نخب ما قمت به في هذا اليوم».

«إذن سأكون والدك وأنت تكونين ابنتي؟».

«سامح تمرّدي يا سيّدي!».

أحنت شينو رأسها على نحو عابث ثم مضت مهرولة فوق جسر سوساكي دايمون ومظلّتها تستريح فوق كتفها.

كنت قد قابلت شينو للمرّة الأولى في وقت سابق في ذلك الربيع في مطعم ياباني يدعى شينوبوغاوا، واقع على مقربة من خط القطار المتوجّه إلى يامانوتي. كنت أدرس في جامعة خاصّة في شمال غرب طوكيو وأعيش في مساكن طلاب لا تبعد كثيراً عن المطعم المذكور. في إحدى أمسيات شهر آذار، ذهبت إلى هناك لأوّل مرّة بعد حفل تكريم طلاب متخرّجين. كانت شينو تعمل نادلة في شينوبوغاوا.

على الرغم من أن شينوبوغاوا عرف بكونه مطعم ريوتي[1] كلاسيكي، فإنّه لم يضمّ أيّاً من مظاهر الزينة الاعتياديّة لنمط المطاعم المذكورة، مثل المدخل المهيب أو الشجيرات المزروعة في الأحواض، بل كان، هكذا ببساطة، يقع مواجهاً لخطّ ترامواي العاصمة. في طبقته الأرضيّة، ضمّ باراً يمكن للزبائن

(1) نمط من المطاعم اليابانيّة التقليديّة الفاخرة. هذه المطاعم لا تقبل في العادة زبائن جدداً إلا بعد تزكيتهم من قبل زبائن سابقين، كما أنّها تشتهر بالفقرات الترفيهيّة التي تقدّمها فتيات الغيشا للزبائن.

خلفه الاستمتاع باحتساء شراب سريع وهم يأكلون التونكاتسو، شرائح الخنزير المغلّفة بالدقيق، أو أنواعاً مفضّلة أخرى يختارونها من لائحة المطعم. وكان هناك أيضاً بار في آخر المطعم تباع خلفه السجائر. بعبارة أخرى، كان المكان أشبه بمنزل أطعمة صغير تتخلّله أركان إضافيّة، كان مطعماً متواضعاً في ضواحي المدينة. قلّة من زبائنه قصدته بواسطة سيّارة. كان مرتادوه المعتادون من معلّمي المدارس وموظّفي الشركات الذاهبين إلى مراكز أعمالهم والعائدين منها عبر محطّة القطار القريبة، أو تجاراً محليين ممن يحيون حياة تقاعد مريحة. من وقت إلى آخر، ينضمّ إلى هؤلاء صيّادو سمك شبّان أو قصّابون ببدلات زرقاء يسعون إلى رفقة امرأة. اشتهر المطعم بما يكفي في الجوار، وكانت سمعته وأسعار مشروب الساكي فيه تعلي من مرتبته، فلم يكن من نوع الأمكنة التي بوسع الطلاب ارتيادها باستمرار.

ضم مسكن الطلبة الذي أقمت فيه، والواقع في أقصى شارع فرعي قريباً من زاوية قريبة من شينوبوغاوا، نحو عشرين تلميذاً قادمين من بلدات ساحليّة في أقصى شمال توهوكو. ينحدر العديد منهم من أسر الصيّادين.

تولّع الجميع في مساكن الطلاب بالشراب. كانت مهارتهم

تلقائيّة في التمسّك بخمرهم كما لو أنّهم أعدّوا جينيّا لاحتساء فناجين من الساكي وقاية من البرد. لسوء الحظ أو لحسنه، ومهما حصل غير ذلك، كان الشراب بالنسبة لهم هو كلّ شيء. وجدوا في مساكن الطلاب ليشربوا، وحين لم يكفهم الأمر يخرجون إلى المدينة. فيتبادلون هناك أنخاباً عدّة من خمر قويّ في أكشاك مأكولات الأودن[1] تحت جسور خطوط السكّة، أو في حانات تنتشر بموازاة تلك الخطوط. في بعض الأحيان، يرفّهون أنفسهم فيذهبون إلى مطاعم السوشي. فقد مثّل لهم تناول السوشي مع الشراب متعة نادرة أبقوها مخصّصة للمناسبات المتميّزة دون غيرها.

لم يسبق لأحد منهم أن ذهب إلى شينوبوغاوا. جميعهم اعتبروا أنّ نمطه لا يعجبهم، أو أن مشروب الساكي فيه يفتقر إلى النكهة فلا يسعهم احتساؤه. لكن الحقيقة هي أنّهم كانوا عاجزين عن تحمّل أسعاره. ثمّ أنّهم وجدوا، بالإضافة إلى ذلك، ما لم يحمّسهم تجاه الفتيات اللواتي عملن هناك.

أشيع أنّ واحداً من الطلاب، شييودا، ذهب إلى شينوبوغاوا

(1) أطباق طعام يابانيّة شتويّة تتألّف من البيض المسلوق والفجل وبعض أنواع الخضار الأخرى ،إضافة إلى شرائح السمك المغلّفة بدقيق الخبز والمقليّة بالصويا.

في إحدى الليالي. شييودا ذاك كان ابناً لصيّاد سمك موسر، وكان جميل الطلعة وأنيقاً، يتمتّع بأسلوب خاص في التعامل مع الفتيات. هناك في شينوبوغاوا، قام الشاب بتجربة حظّه مع الأجمل من بين العاملات في المطعم، وكانت امرأة في العشرين. غير أنّ الأخيرة صدّته من غير قصد وغادر الشاب مكسور الجناح. أو هكذا افترضت الشائعة. وحين سمع الآخرون من الطلاب بما حصل أدركوا استحالة توقهم إلى فتيات شينوبوغاوا.

ما الذي جعلنا نمضي جميعاً زاحفين إلى شينوبوغاوا بعد انتهاء حفل الوداع في ذلك العام؟ في الواقع، وفي الحفل، ألقى أحد خرّيجينا الشاربين كلمة تناول فيها تجربة حياته في مساكن الطلاب. في كلمته تلك، تحسّر على حقيقة أنّه على الرغم من إثباته وجوده في كلّ مكان للشراب يستحق الذكر في الجوار، فقد كان على وشك العودة إلى دياره من غير أن تطأ قدماه شينوبوغاوا ولو مرّة واحدة. فأطلق الأمر شعوراً بالسخط والكبت على الدوام، وتسبب في انقلاب مفاجئ لما كان يجري.

في تلك الليلة، اندفع نحو عشرة شبّان أقوياء البنية عبر باب مدخل شينوبوغاوا. كانوا ثملين تطفح بهم حماسة على نحو

غريب. كانت ليلة باردة ولم يكن ثمّة زبائن حول بار الطابق السفلي. انتظمنا في رتل وهتفنا «ساكي ساخن!» ساد الصمت بيننا في تلك اللحظة كما لو أن سكرنا تلاشى فجأة. حينئذ كان الوقت قد تأخّر وغدا كلّ شيء حولنا ساكناً. ومن غرفة في الطابق العلوي، بلغت أسماعنا على نحو مفاجئ نقرات من الساميسان[1].

«هاي! أسمع صوت ساميسان»، قال أحد الطلاب المتخرّجين. رئيس الطهاة الشاب انفجر بالضحك. الأمر ذاك زاد من ارتباكنا، فأسرعنا في شرب الساكي الذي صبّ لنا.

وبالإضافة إلى ذلك، وحين جاءت فتاتان أو ثلاث يرتدين الكيمونو كي يخدمن خلف البار، سارع الساكي الساخن كما الجو الذي استعيدت حيويّته إلى إصلاح ما فسد من سكرنا المحجوب، فغدونا سكارى جميعاً على نحو ظاهر.

وما فعلناه وهو أنّنا رحنا نطلق الأحاديث والأصوات الصاخبة الخرقاء، الأمر الذي أضحك الفتيات. راح أحد الطلاب يتجادل مع رئيس الطهاة حول السمك مورّطاً الجميع في السجال المذكور. فحين يتعلّق الأمر بالسمك، لا يمكن

(1) آلة موسيقيّة يابانيّة لها ثلاثة أوتار.

للأحاديث أن تنضب.

كنت ثملاً على نحو سيئ. لست ابن صيّاد سمك، لذا لا يمكن لقدراتي في الشراب أو لمعرفتي بالسمك أن تقارن ولو من بعيد بقدراتهم هم ومعرفتهم. أسندت مرفقي إلى حافة البار وأغمضت عينيّ. ثمّ قام الطالب الجالس قربي بلكزي وهمس في أذني.

«هاي، أنظر. إنّها الفتاة التي صدّت شييودا». حين وجّهت عينيّ المشوّشتين في الاتّجاه الذي أشار رفيقي بذقنه إليه، شاهدت زوجاً من جوارب التابي[1] البيضاء ينزل الدرج على مهل من الطابق العلوي، وكان يرفع عقب الكيمونو الأزرق كلّما تحرّك. كان الوجه الذي بدا إثر ذلك، عندما شق جبينه جانبي ستارة النورن[2]، وجه امرأة ضئيلة البنية شعرها مرفوع ومربوط في عقدة. بعد أن خصّتنا بانحناءة جانبيّة، رفعت صينيّة تضمّ زجاجات ساكي فارغة ومضت في الرواق باتّجاه المطبخ. ناديتها كي تعود، وأنا في حال مزرية من السكر.

(1) جوارب يابانيّة تقليديّة تصل حتّى أعلى الكاحل وتفصل بين الإصبع الكبيرة والأصابع الأخرى في القدم.

(2) ستائر يابانيّة تحوي نقوشا تقليديّة وتغطّي الأبواب الجرّارة والنوافذ، أو تستخدم فواصل متحرّكة بين أقسام البيت.

«من فضلك»، قلت، «هل لي بكوب من الماء البارد المثلّج؟».

«نعم»، أجابت المرأة. وقد ابتسمت وانحنت برأسها طاوية ركبتيها قليلاً ثمّ غابت مبتعدة في الرواق. الـ «نعم» الأنثويّة التي تفوّهت بها تردّدت أصداؤها في أذني مثل جملة موسيقيّة متلبّسة.

قلت في نفسي متمتماً «ماذا؟ أهي المرأة التي صدّت شييودا؟» «لا يسعني تصديق الأمر. لكن لا يمكنك الحكم على كتاب من غلافه. لا يمكنك أبداً».

بمرفقيّ المسندّتين إلى البار وذقني الذي يستريح بثقل فوق يديّ، كنت لاأزال أتمتم بيني وبين نفسي، حين سمعت فجأة صوت امرأة يصدر خلفي. قال الصوت «عذراً لتركك تنتظر». استدرت كي أرى المرأة في الكيمونو المائل إلى الزرقة وكانت واقفة هناك خلفي وفي يدها كوب من زجاج. لم أع أبداً كيف وصلت إلى هناك ومتى حدث ذلك. لم يكن إلى جانبي أحد من رفاقي، فشربت الماء في الحال لكنّني تردّدت في إعادة الكوب إليها على الفور.

قلت لها «سمعتني وأنا أكلّم نفسي، أليس كذلك؟» هزّت

المرأة رأسها بخفر موافقة، وقد علت الابتسامة فمها بشفته السفليّة المتقدّمة قليلاً.

«كلّ ما سمعته هو أنّك لا تستطيع الحكم على كتاب من غلافه».

قلت «كنت أتكلّم عنك».

لم تجب، غير أنّها فتحت عينيها على وسعهما.

«أنت من صدّت شييودا، أليس كذلك؟».

أجابت «صددته؟ لا، كلّ ما في الأمر هو أنّه كان شديد الاستعجال».

«إذن أنت تصدّين فقط شديدي الاستعجال؟».

ضحكت. «الأمر يعتمد على الشخص».

«ما رأيك بي إذن؟» قلت متسرّعاً. ثم أحسست فجأة بتبدّد السكر.

مالت المرأة برأسها وضحكت. «حسناً الآن. إنّها المرّة الأولى التي نلتقي فيها، ومن الصعب أن أقول أيّ شيء».

قلت دون التفكير بعبارتي «أنا جاد. حسناً إذن، سوف أعود مجدّداً في الغد».

«عد في كلّ الأحوال. اسأل عنّي، وسآتي في الحال كي

أراك بالتأكيد».

«ما اسمك؟».

«شينو».

حين استيقظت في صبيحة اليوم التالي كان بوسعي رؤية وجه شينو طافياً في عين ذهني. بللت وجهي بماء بارد وأخرجت شطحات سكر الليلة السابقة عبر موجات من الضحك. لكن القلق تصاعد في ذهني على نحو غريب إذ حلّ الظلام. لبعض الوقت، رحت أجول على نحو عصبيّ جيئة وذهاباً حول مساكن الطلاب. وقد أقنعت نفسي أخيراً بأنّني وعدتها، لذا ينبغي لي الذهاب مجدّداً إلى هناك في تلك الليلة. فقط سوف أسمع شينو تقول «نعم» مرّة أخرى ثمّ أغادر. ولن تطأ قدماي المكان مرّة أخرى.

انسللت، وتلك الفكرة مازالت تدور في رأسي، تحت ستارة النورن في شينوبوغاوا وجلست عند زاوية البار. «ساكي، من فضلك. وهل لك أن تنادي شينو»، وجهت كلامي بهدوء للفتاة التي تخدم الزبائن.

ظهرت شينو في الحال. قلت لها «أعتذر عن ليلة البارحة». الحيويّة الجميلة لليلة السابقة بدت آنئذ مجرّد ذكرى، وأفضل شيء

أفعله هو احتساء شرابي بصمت، مدلياً رأسي خجلاً. حتّى في ذلك الوقت، لم يظهر على شينو أيّ ارتباك، بل راقبتني بابتسامة لم تفارق عينيها أبداً. لمرّة أو مرّتين، جاء من يطلبها من الطابق العلوي. رفضت شينو الذهاب، قائلة، «أنا مشغولة الآن. اخترعي عذراً، هل لك أن تفعلي هذا؟».

لم يؤدّ الأمر سوى إلى زيادة انزعاجي. «شينو؟» قلت لها إذ لم يعد بوسعي التحمّل لوقت أطول.

«نعم؟».

كانت عودتي إلى البيت فراراً. العملية عينها تكرّرت على مدار الأيّام العشرة التالية، لكن حين توقّفت وتأمّلت الأمر أدركت أنّ شيئاً غريباً كان يحصل لي.

في النهار، شككت بشينو. لم يكن بوسعي سوى التفكير بأن ما تبديه من ودّ هو مجرّد جزء من عملها. لكن مع حلول الليل، كانت الشكوك تتبدّد. لم يكن بوسعي سوى الإحساس بتلقائيّة الودّ الذي تظهره. يطفح قلبي بالسعادة في الليل، فأنام هازئاً من سوء أفكاري السابقة. ومع ذلك، وحين يأتي الصباح، أصحو بإحساس بالفراغ مزدرياً طيش الليلة السابقة. بينما أنا أتردّد بين هذين النوعين من المشاعر، أحسست وكأنّني أهبط

تدريجياً في هاوية عميقة، عميقة.

في إحدى ليالي شهر حزيران وفي حديث عفوي أخبرت شينو بأنّني شاهدت أخي لآخر مرّة في فوكاغاوا. أشرقت عيناها حين أجابتني بأنّ فوكاغاوا تلك هي المكان الذي أبصرت فيه النور منذ نحو عشرين عاماً. قالت إنّها لم تعد إلى هناك منذ ثمانية أعوام لكنّها تودّ رؤيتها مجدّداً، فقمت دون تكلّف بدعوتها للذهاب معي. في الحقيقة، لقد أردت مشاهدتها عن قرب كي أرى كيف تبدو خارج عملها في ضوء الشمس. كانت شينو هي المفضّلة بالنسبة لزبائن شينوبوغاوا، ولم يكن سهلاً عليها أخذ إجازة. لكن خطّتنا أثمرت بعد مضي شهر وفي أثناء إجازتها السنوية.

آنئذ وثقت بشينو في ضوء النهار لأوّل مرّة.

لفّني إحساس بالعار إذ رجعت إلى البيت من فوكاغاوا. كانت شينو مفعمة بالصدق وقد شعرت بالخجل جرّاء سوء نواياي المعتادة التي لم أتخلّ عنها. في تلك الليلة ولأوّل مرّة كتبت لها رسالة لا لأتوسّل إليها أن تصفح عني، بل فقط كيّ أكون صادقاً معها بقدر صدقها معي. هذا ما كتبته:

ثمّة بعض الأشياء التي تتعلّق بعائلتي لم أقلها لك اليوم.

الآن أودّ إخبارك بالحقيقة.

كنت الابن الأصغر بين ستّة أبناء. حتّى سنّ السادسة كان لي شقيقان وثلاث شقيقات. في الربيع الذي بلغت فيه سنّ السابعة- في يوم عيد ميلادي بالتحديد- أقدمت شقيقتي الكبرى الثانية على قتل نفسها. لقد أحبّت رجلاً لم تستطع الزواج منه، وفي لحظة يأسها، أغرقت نفسها في البحر قريباً من تسوغارو. في ذلك الصيف عينه، أقدمت شقيقتي الكبرى على الانتحار أيضاً. كانت موهوبة في الموسيقى و تعزف على آلة الكوتو[1]. إلا أنّ موت شقيقتنا سبب لها اضطراباً شديداً، فما كان منها سوى الانحناء برأسها على آلة الكوتو وتسميم نفسها. في الخريف، اختفى شقيقي الأكبر. كان يعاني حالة عصبيّة مزرية ولم يتمكّن على الأرجح من احتمال الأسى على شقيقتيه. مازلنا لا نعرف مكانه، ما يجعلنا نعتقد أنّه مات أيضاً. شقيقي المتبقي كان شخصاً كفوءاً ونزيهاً، وقد اعتمدنا عليه جميعاً. هو من أمدّني بالمال للالتحاق بالجامعة. وهو من عمل

(1) آلة وتريّة يابانيّة تقليديّة.

في فوكاغاوا. مع نهاية الربيع منذ سنوات ثلاث خلت، عاد إلى دارنا يطلب المال. قال إنه يريد تأسيس شركة خشب خاصّة به، فلم يقدم فقط على أخذ ثروة عائلتنا البائسة، بل استدان من أقاربنا أيضاً. ثمّ فرّ ومعه المال. لا أملك أيّ فكرة عن السبب. أنا متأسّف جدّاً كوني كذبت عليك في كيبا.

الخيانة التي أقدم عليها أخي في الواقع أصابت عائلتنا في الصميم. تعرّض والدي جرّاء الصدمة المتأتّية منها إلى ذبحة قلبيّة. كنّا مسحوقين ويائسين، والكلّ ممتلئون بأفكار لا يمكن احتمالها. كانت تلك أوقات قاتمة بالنسبة لنا. الآن لقد تبوّأت المركز الذي سبق لأخي أن شغله و عاد الأمل إلى عائلتي مرّة أخرى.

لم يسبق لي الاحتفال بعيد ميلادي. إنّه بالنسبة لي ولعائلتي يوم عاثر. في ذلك اليوم في خلال العام الماضي انتابني الإحباط فمضيت عائداً إلى فوكاغاوا. حينها بدأت في التجوال هناك. وها أنا الآن بتّ أذهب إلى فوكاغاوا كلّما شعرت بالإحباط. إنّها تؤجّج غضبي تجاه شقيقي، فأشعر من جديد بشعور رجل. بهذا أنت الآن أيضاً تعرفين كلّ شيء عنّي.

سلّمت الرسالة هذه إلى فتاة بهيّة الطلعة تدعى توكي تعمل خلف بار بيع السكائر في شينوبوغاوا وطلبت منها إعطاءها إلى شينو. في اليوم التالي، سلّمتني توكي ردّ شينو. سطر واحد كتب على غلاف ورقي لعوديّ طعام[1]:

لنحتفل بعيد ميلادك في السنة القادمة.

منذ تلك اللحظة، انتميت إلى شينو.

علمت في نهاية شهر تموز أنّ شينو خطبت كي تتزوّج. كانت عائلة شييودا قد منيت لتوّها بخسارة كبيرة في صفقة صيد سمك وأفلست. نتيجة لذلك، تعيّن على شييودا ترك الجامعة والعودة إلى بلدته في الريف، وعندما دنا موعد مغادرته، شاركني بذلك السرّ. للحظة أعياني الكلام. شينو مع رجل آخر؟ لم يكن بوسعي التصديق. فكرت في البداية بأنّ شييودا يغيظني، نوعاً من الانتقام لتركه الجامعة. لكنّه قال إنّ الأمر بلغه من مصدر موثوق زوّده حتّى باسم الخطيب - يوكي فوسا موتومورا. والأكثر من ذلك، فقد شاهدهما وهما يسيران معاً في أوساكوسا.

لم أستطع تصديق كلمة واحدة من هذا، لكنّ قلقي تصاعد من تلقاء ذاته وامتلأ رأسي بسحب الشكّ القاتمة. أحسست

(1) Chopstick

كأنّني تعرّضت للخيانة. في أحد الأيّام، لم يعد بوسعي احتمال الأمر فأسرعت إلى شينوبوغاوا كي أستطلع الحقيقة. كان الوقت منتصف النهار وكادت عيناي المجهدتان تعميان بضياء الشمس. كانت توكي غارقة في قيلولة عند بار بيع السكائر. أيقظتها وطلبت منها مناداة شينو. ارتدّت توكي إلى الخلف بعد أن فاجأها مظهري البرّي.

أطلّت شينو من الداخل مهرولة، لا ترتدي غير كيمونو قطني داكن الزرقة، مربوط عند الخصر. من الواضح أنّها سرّحت شعرها، هذا الأخير الذي انسدل حرّاً على ظهرها. بدا ذلك جمالاً من نوع آخر في مظهر شينو لم أشاهده من قبل. زاد الأمر قلقي وطفح قلبي باليأس. حين وقفت هناك أمامها، راح جسدي برمّته يرتعش.

سألت، مقطّبة حاجبيها بتعبير قلق «ماذا هنالك بحقّ السماء؟».

«هل تعرفين رجلاً يدعى موتومورا؟ يوكي فوسا موتومورا؟».

تنفّست نفساً عميقاً. «من أخبرك عنه؟».

«هذا لا يهمّ. هل أنت مخطوبة فعلاً لهذا الرجل؟».

طرفت بعينيها على الفور وأشاحت بهما إلى الأسفل.

قلت بإلحاح «أخبريني».

«سأفعل. سأخبرك كلّ شيء. لكن ليس الآن، وليس هنا. انتظرني على جسر السكّة الحديدية عند الساعة السابعة من هذا المساء. سأسأل صاحبة العمل منحي ساعة استراحة. أعدك بهذا. أرجوك قلّ إنّك ستنتظر في هذا الوقت».

«قلت في سوساكي إنّك أخبرتني كلّ شيء. هل كان ذلك كذبا؟».

«لا». قالت، رافعة رأسها. «كلّ ما في الأمر أنّني لم أر أنّ ذلك يستحق الذكر. أنا لا أكذب على الإطلاق. وأنا لن أكذب عليك أبداً، حتّى لو اعتمدت حياتي كلّها على ذلك».

مذعناً أمام نبرتها القاطعة، تملّكني الصمت. أخذ واحدنا للحظات يحّدق مليّاً في وجه الآخر. وبدأت أشعر بالانزعاج.

«أيمكنك المجيء عند السادسة بدلاً من السابعة؟»، سألتها. «فأنا لا يمكنني الانتظار حتّى السابعة».

«حسناً. سأكون هناك عند السادسة. أعدك بهذا».

تركت شينو هناك تعلو علامات الارتباك وجهها. غادرت شينوبوغاوا على الفور وهمت في الشوارع. مشيت ومشيت

محدّثاً نفسي عن مدى سخف تلك الأمور كلّها - أنا، شينو، موتومورا، سوساكي، ورسالتي. في طريق عودتي دخلت حمّاماً عموميّاً وغسلت جسدي من أعلاه إلى أسفله بماء ساخن. بعدها وأنا مسترخ في جلستي في حوض الاستحمام الكبير، لاحت فكرة في رأسي على نحو مفاجئ. كدت أن أقولها بصوت مسموع. خذها...

في لحظة، جفّت الدماء في وجهي. لماذا لم أفكّر بهذا من قبل؟ سآخذها! حتّى وإن كان أمر خطبتها حقيقيّاً، فسآخذها من خطيبها. سبحت في أرجاء الحوض دافعاً الماء الساخن بإيقاع «خذها! خذها! لقد أدركت أنّه ليس لي خيار آخر».

عند الساعة السادسة، كنت على جسر السكّة الحديدية. شينو التي بكرت في وصولها كانت تنتظرني. ودون أنّ ننبس بكلمة، انطلقنا سائرين جنباً إلى جنب على رصيف مهمل جاور الأسوار الحجريّة لحديقة عزبة قديمة.

«حصل ذلك في الربيع المنصرم»، شرعت شينو في الكلام بصوت هادئ وكانت لاتزال تنظر إلى الأمام. «جاء مدير المبيعات في إحدى شركات السيارات وسألني إن كنت أقبل بالزواج من أحد مندوبي المبيعات عندهم، وهو رجل يدعى

موتومورا. الشركة تلك كانت من زبائننا، وكان موتومورا قد شاهدني في حفلة رأس السنة أو في مناسبة من هذا القبيل. أراد بإلحاح شديد الزواج منّي، فجاء مدير المبيعات في الشركة لسؤال صاحبة عملنا إذناً في ذلك. قال إن موتومورا هو مندوب مبيعات ناجح يجني دخلاً محترماً، وإنّه رجل صالح يتحلّى بشخصيّة مرموقة. كنت قد بلغت التاسعة عشرة من عمري حديثاً ولم يكن لديّ أيّ فكرة عمّا يعنيه الزواج. لم أعرف ما ينبغي لي أن أفعل وتعيّن عليّ في الوقت عينه الاستمرار في جني المال كي أرسله إلى الديار، لهذا فإنّني رفضت في البداية. لكنّ مدير المبيعات وصاحبة عملنا، قالا إنّ الأمر بالنسبة لي هو فرصة سانحة وثابرا يومياً في الضغط عليّ كي أقبل. ثمّ وفي أحد الأيّام قالا إنّ مدير المبيعات وموتومورا سيتحمّلان إن قبلت مسؤوليّة مشتركة تجاه أهلي في توتشيغي، وأيضاً تجاه شقيقي وشقيقتيّ. كنت لاأزال متردّدة بين فكرتين، لكنّني في آخر الأمر رضخت. أيّ حمقاء كنتها! في كلّ الأحوال كان موتومورا آنئذ قد صار خطيبي، ورحنا نذهب في أيّام إجازاتي لمشاهدة فيلم، أو للجلوس في مقهى، غير أنّني لم أكن سعيدة على الإطلاق. لم أتمكّن من حمل نفسي على حبّه على الرغم من محاولتي الحثيثة في ذلك. وهو في

المقابل ظلّ طوال الوقت ماضياً، وعلى نحو غريب، في تسريع خطط العرس: أين سنقيم الحفل، إلى أين سنسافر لتمضية شهر العسل، هذا كلّ ما كان يتحدّث عنه. كلّ ذلك بدا لي فارغاً إلى حدّ ما، وفقدت تماماً اهتمامي بالزواج. وصرت كلّما حاول تسريع الأمور أعثر على مزيد من الذرائع لتأجيل كلّ شيء. ثم بعدها قام..».

قطعت حديثها في وسط الجملة ونظرت إلى الأسفل وهي تسير.

«قام بماذا؟».

«بمحاولة مضاجعتي».

توهّجت وجنتاي من السخط وراح صدري يقرع قرعاً عنيفاً.

«وهل فعل؟».

«بالطبع لا!» قالت شينو مستخفّة بالفكرة. «لكنّه أخذ يلحّ في ذلك ما دفعني إلى الشعور بالقلق وقد ذهبت كي أسأل والدي النصح. غضب والدي غضباً شديداً فبدا الشرر وكأنّه يتطاير من عينيه. كانوا قد ذهبوا إلى توتشيغي كي يسألوه رأيه على نحو مباشر، وكنت لم أبعث له سوى رسالة ملتبسة. في

ذلك الوقت، قام بتأجيل جوابه. قال إن ذلك يعدّ أسلوباً سيّئاً في تحقيق الأمور. كانوا يدفعونني إلى موقف توفيقي كيّ أغدو عاجزة عن الزواج من شخص آخر. قال إنه قد عاش على الدوام حياة ترضيه، وأشار لي بوجوب التملّص من زواج قائم على شروط كهذه. قال إنّه لا ينبغي لي التفريط بحياتي من أجل وعود قصيرة النظر كهذه. وأنّه عليّ العثور على شخص أحبّه أكثر من حياتي نفسها فأتزوّجه دون تردّد».

توقّفت عن المسير. استدارت شينو كي تحدّق في وجهي.

«انفصلي عنه، أرجوك»، قلت لها.

«حسناً».

«تظاهري بأنّ الأمر لم يحصل أبداً. انسي أمره».

«حسناً».

«وقولي لوالدك إنّك وجدت شريك حياة يبدو ملائما أكثر مع ما تصبين إليه».

فتحت عينيها على وسعهما ووجّهت إليّ نظرة حادّة. شيء من الدفء راح ينتشر بيننا ويدور بنا أكثر فأكثر مع كلّ نفس جديد. بدأنا بالاقتراب من بعضنا البعض. رفعت شينو يديها بهدوء وضمّت نفسها. كبحت نفسي بصعوبة.

«هل تمادينا كثيراً؟» كان هذا كلّ ما استطعت نطقه.

«لا. على الإطلاق».

كلّ ما استطاعته شينو هو الضحك.

في آخر الخريف، ساءت أحوال والد شينو.

بعد سنوات من الإسراف في الشرب، عانى والدها من مرض الكبد بعد انتقاله إلى توتشيغي وحاله لم تزدد إلا سوءاً إثر وفاة والدتها. بالمال الذي كانت ترسله شينو لهم في كلّ شهر، إضافة إلى دخل شقيقها، لم يستطع الوالد مع ذلك وبفضل هذا المبلغ وحده تحقيق التعافي المطلوب، بل إنّه وبمواقفه المتشائمة في طبيعتها راح وضعه يتدهور ويزداد سوءاً. في كلّ مرّة كانت تصل رسالة من شقيقها تنقل أخباراً مفصّلة عن حال والدهما، كانت المرارة تعلو وجه شينو على الرغم مما كانت تبذله من محاولات لإخفائها. «تمنّيت إن كان بوسعي القيام بأي شيء، لكنّ لم يكن ثمة شيء»، كانت تقول. «مهما فعلت، فإنّ الأمر لن يكون كافياً أبداً». وكانت تضحك على نحو بائس. لكن وفي إحدى الصبيحات وعلى نحو مفاجئ، وصلت برقيّة تحمل أخباراً تشير إلى احتضار والدها.

بعد أن أيقظتني الفتاة التي جاءت تعلمني بالأمر، انطلقت

مسرعاً في الطريق إلى شينوبوغاوا. كانت شينو قد أتمّت استعداداتها وراحت تنتظرني شاحبة الوجه. «يبدو أنّها النهاية بالنسبة لأبي. سوف أغادر عمّا قريب».

برباطة جأش مفاجئة فتحت شينو البرقيّة وقدّمتها لي كي أراها. أحسست على الفور بحنجرتي وقد جفّت.

قلت على نحو مندفع «سأرافقك لجزء من الطريق».

«نعم، أودّ هذا».

«هيا نغادر في الحال».

«ماذا؟ هكذا كما أنت؟».

كنت أرتدي قميصاً قطنيّا غير رسمي تزيّنه نقشات كورومي غاسوري[1]، معقود ببساطة عند الخصر بزنّار هيكو أوبي[2]. ووجهي لم يكن حليقاً.

«أعتقد أن هذا سيشعرك بالإرباك».

«لا. إن لم يزعجك الأمر».

«حسناً، هيا نذهب إذن. الأمر سيكون أفضل كلّما بكرنا في الوصول إلى هناك».

(1) أسلوب ياباني تقليدي في التزيين تشتهر به مدينة كورومي اليابانيّة.

(2) زنّار ياباني من قماش.

في الواقع، وصلنا إلى كيتاسينجو بعد أن بدّلنا عربات الترامواي. من هناك سوف تذهب شينو عبر خط توبو كي تغدو قرب والدها في خلال ساعتين.

«ما يعاني منه والدي يعرف بانقباض الكبد»، شرحت لي شينو عندما كنّا ننتظر عند رصيف المحطّة. «كبده لا يكفّ عن التقلّص، وسيكون في النهاية بحجم الحصاة. ليس ثمّة أمل له على الأرجح في هذه المرحلة».

بدا في ملامحها أنّها تتوقّع الأسوأ.

قلت لها «عليك ألا تستسلمي». إنّ كان ثمّة ما يقال هنا، فإنّني الشخص الذي بدا أكثر اضطراباً. «ينبغي لك أن تكوني قويّة. وكلّ أمر يحصل ينبغي ألا يلويك».

وإذ رحت أهيم بكلام مشوّش محاولاً إظهار موقف شجاع، دخل القطار إلى المحطّة. أخرجت شينو ورقة مطويّة صغيرة من زنّارها الأوبي(1) وأقحمتها في يدي.

«أرجوك اقرأ هذه بعد أن يغادر القطار».

قلت لها «أرسلي برقية في طلبي إن احتجت إليّ. سأحضر إلى هناك في الحال».

(1) Obi

«شكراً».

ضمّت يديّ بنعومة في يديها، ثم صعدت إلى القطار ومضت.

عندما غاب القطار عن الأنظار، جلست على مقعد عند رصيف المحطّة وفتحت الورقة المطويّة. كانت رسالة خطّت سريعاً بواسطة قلم رصاص على ورقة للكتابة. وجّهت الورقة لناحية النور وقرأت:

هل لي أن أطلب منك أمراً؟

أريد منك أن تلتقي بوالدي قبل أن يموت.

سأشعر بالأسف تجاه والديّ إن ماتا دون أن يلتقيا بك. كما أنني سأكون حزينة أيضاً.

بإمكاني على الأقل أن أعرّفك إلى والدي. بإمكانه آنئذ الموت وهو على بيّنة من أن ابنته باتت في أيد أمينة.

لذا أتمنّى ألا تمانع، لكن هل بإمكانك المجيء غداً في قطار الساعة الواحدة بعد الظهر؟ سأرسل شقيقتي الصغرى تامي للقائك عند المحطّة.

كما ثمّة أمر لم أتمكن من إخبارك إياه من قبل. إنّنا نعيش في معبد

شينتو صغير. عندما أخرجنا القصف من فوكاغاوا وتمّ إخلاؤنا إلى توتشيغي، لم يكن لدينا مكان نعيش فيه، وقد منحنا مكاناً مؤقّتا يؤوينا في المعبد فسكنّا هناك في آخر الأمر. أتمنّى ألا ينفرك ذلك. أرجوك، أرجوك أن تأتي. وعلى هذا سوف أراك غداً.

أرجو أن تتمكّن من الوصول في الموعد المحدّد.

أو على الأقل إن لم تستطع، فأحضر وشاهد وجه أبي الميت.

– شينو

بعد الظهر، أخذت قطار الساعة الواحدة من أساكوسا وبلغت توتشيغي بعيد الساعة الثالثة.

حين خرجت من مبنى المحطّة الصغير، ظهرت فجأة فتاة ذات شعر قصير وابتسمت لي على نحو عذب. بأنفها العريض وعينيها المتّجهتين بطرفهما إلى الأعلى، أدركت بسرعة أنّها شقيقة شينو الصغرى. سألتها «أنت تامي، أليس كذلك؟» أومأت الفتاة برأسها إيماءة صغيرة ثم ردّدت اسمي كمعلّمة تتلو سجلّ الحضور والغياب في صفّ المدرسة.

«كيف حال والدك الآن؟» سألتها.

«يقول الأطباء إنّه ما من أمل، لكنّه لايزال حيّاً»، قالت بلهجة

ثقيلة، إذ كان صوتها يعلو مع نهاية كلّ جملة.

«حسناً، ثمّة ما يعزّي في الأمر»، إذ ربّما تتحقّق في هذا أمنية شينو، فكرت في نفسي.

«شينو تقول إنّها لن تدع الوالد يموت قبل أن يراك».

لابدّ أن تكون شينو قد قالت هذا كي ترفع من معنوياتهم – إذ إن الطبيب في النهاية قد يئس من حاله. غير أنّني أحسست بالعبء من فكرة أن امرءاً ضعيفاً مثلي قد يساعد ولو لبضع ساعات قليلة في تمديد حياة كانت مقبلة على الاندثار في العدم.

قادتني تامي في معبر ضيّق يمرّ بمحاذاة خط السكّة الحديدية، ثمّ ما أن انحرفنا خلف البيوت المصفوفة حول الطريق الرئيسة، حتّى خضنا مسرعين في حقل نبتت فيه أدغال حشائش الإيولاليا[1]. يعاسيب حمراء كانت تتطاير عبر السماء المتدثّرة بسحب كثيفة.

«هل هذه طريق مختصرة؟» سألتها في أثناء سيرنا.

أجابت تامي «لا، إنّها الطريق المواربة الطويلة».

(1) حشائش يابانيّة موسميّة تنمو في حقول منبسطة وخفيضة وتتفتّح أزهارها بين شهري آب وأيلول.

«لماذا نسلك الطريق المواربة الطويلة؟».

«حسناً، إن ظلّ والدي حيّاً حتّى بلوغك المكان، فإنّه قد يموت في لحظة وصولك»، قالت تامي بكلام رزين، لكن وفي الوقت الذي أبطأت فيه خطوي على نحو غريزي، اندفعت مسرعة.

قامت قرب الطريق الرئيسة البادية أمامنا غابة صغيرة من شجر الأرز. فوقها في السماء حامت الغربان مثل حبيبات سمسم متناثرة في حلقة دائريّة.

صاحت تامي بغضب «آه لا، هذه الغربان، إنّها هنا مجدداً!».

حين اقتربنا، لم يكن الذي رأيناه غابة على الإطلاق. لقد كانت غابة فيما مضى، لكنّ الأشجار تمّ جذّها على نحو تدريجي من الداخل ولم يبق منها سوى أخشاب متناثرة. سرنا عبر بوابة معبد ملتوية تتهاوى ودخلنا مساحة الخشب. هناك، في عمق غابة من جذوع الأشجار قام مبنى المعبد، قديماً لكن كان أكبر ممّا توقّعت، منتصباً بائساً أمام حقل ملوّن من القش. ذلك منزل عائلة شينو.

بينما تامي أسرعت في خطوها نحو المعبد، ظهرت شينو من

تحت الشرفة العالية المحيطة بطبقته الوحيدة، وركضت في اتجاهي مرتدية سروالها القطني الفضفاض داكن الزرقة، متجاوزة تامي في طريقها.

قلت «حسناً، ها أنذا».

«شكراً! أنا شاكرة لمجيئك».

نزعت عن رأسها منشفة وضمّتها بين يديها. على مدى ليلة واحدة باتت عيناها غائرتين، وتشقّقت شفتاها وجفّتا.

«وصلت في الوقت الملائم حمداً لله».

«نعم. فقد ظلّ والدي حَيّاً إلى الآن».

تعمّدت التقدّم بخطى واسعة نحو المعبد متجاوزاً شينو التي بدت متردّدة وهي واقفة هناك ماضغة شفتيها. لم يكن لمبنى المعبد أيّ من الزخارف المعتادة، وقد بدا أنّ ردحا من الزمن كان قد مرّ عليه منذ أن هجر. كل ما تبقّى حبل واحد رثّ تدلّى مترهّلاً من جرس المعبد. ولما هممت بالدخول من الموضع الذي ظهرت منه شينو، نادتني من الخلف كي أتوقّف.

«إنّه مشغل شقيقي. الطريق من هنا».

تسلّقت درج المعبد خافضاً بصري.

زلقت الباب الخشبي للمعبد كي يفتح. تدلّى مصباح خافت

الضوء في الداخل المعتم كثمرة برسيمون[1] ناضجة. بلغت مساحة الداخل نحو عشرين ياردة مربّعة وكانت مقسومة إلى نصفين، النصف الأبعد منهما، والذي ارتفع على منصّة، بدا أعلى من الأرض قليلاً.

ثمّة صناديق خشبيّة وإطارات صور متعدّدة الأحجام، هي على الأرجح بقايا من ماضي المعبد، مركونة فوق بعضها البعض. وغطيت الأرض في الجزء الأمامي لفضاء المعبد الداخلي بحصر تاتامي[2] بالية، وهناك، تحت خزانة قديمة اسودّ لونها وضع فراش الموت لوالد شينو. إلى جانبه: شقيق شينو الأصغر الذي يمتهن صناعة المكانس، شقيقتها التي في الخامسة عشرة من عمرها، وشقيقتها الصغرى تامي، وقد جثا الجميع بانتظام في صفّ واحد.

«أبي، أبي! إنّه هنا، إنّه هنا!».

أسرعت شينو إلى جوار الفراش وهزّت صدر والدها عبر الملاءة الرقيقة التي تغطّيه. بدا وجهه الذابل صغيراً جداً، فكان من الصعب التصديق أنّه رجل كبير. كاد اللحم يختفي من وجهه،

(1) الخرمة.

(2) حصر يابانيّة تقليديّة تغطّى بها الأرض. الحصر المذكورة تصنع في الأصل من قشّ الأرز ثمّ دخلت في صناعتها فيما بعد ألواح الخشب الرقيقة.

وبدت العظام ناتئة تحت جلده. حين هزّته شينو، أدار رأسه بوهن ذات اليمين وذات اليسار وظلّت عيناه مغمضتين. هزّته شينو مرّة أخرى وتلفّظت باسمي، لكنّه لم يقو سوى على الأنين بصوت عالي الطبقة، وقد بدا فاقد القدرة على فتح عينيه.

«لقد قطع كلّ هذه الطريق، في النهاية... هل هو يفهم؟ هل تفهم يا أبي؟».

كادت شينو تذرف الدموع واستدارت نحو شقيقها وشقيقتيها مستنجدة بهم. على نحو مفاجئ، وضعت تامي فمها على أذن والدها. «إنّه رجل شينو»، قالت بصوت مرتفع. «إنّه رجل شينو!» فتح عينيه قليلاً حتّى قبل أن تنهي عبارتها. وتابعت الفتاة، كما لو أنّها تؤكّد كلامها مرّة ثانية: «إنّه رجل شينو يا أبي. انظر! إنّه يقف إلى جانبك تماماً!» ارتعشت عينا الرجل المسنّ وهما تتلقّفان الضوء البرتقالي المنبعث من المصباح، ثمّ اتجهتا صوبي على نحو مرتبك، إذ كاد يعييهما ثقلهما نفسه. انحنيت فوقه ونظرت في عينيه.

ناديته «أبي».

«آه. يسرّني لقاؤك. أنا والد شينو».

عباراته مشوّشة، لكنّ صوته بدا مفاجئاً في قوّته.

شدّ عنقه وحاول رفع جسده.

«لا تفعل هذا. أنت جيّد كما أنت»، قلت له إذ قمت بضغط كتفيه إلى الأسفل. بدا كتفاه مثل قضيبين من الحطب.

«أنا مسنّ أحمق عجز حتّى عن تربية أبنائه على نحو لائق... لكنّك ستعتني بابنتي شينو، أليس كذلك؟» قال لي قبل أن يسعى جاهداً للالتقاط نفس.

«هل تراه يا أبي؟ أبوسعك هذا؟».

بدت شينو يائسة في جعل والدها قادراً على رؤيتي، فألحّت عليه ملتصقة به.

«أجل، إنني أراه»، أجاب والدها بصوت تحوّل في الحال وبدا نَفَساً يحتضر.

«حسناً، لكن ما رأيك؟ ما رأيك يا أبي؟».

ارتعشت خدّاه الغائرتان.

«إنّه رجل جيّد».

ارتخت جفونه واهنة إذ راح يكمل في تلفّظ عبارات دون صوت.

«قال إنّه قادر على رؤيتك. قال إنّك رجل جيّد».

رفعت شينو نظرها إليّ بسرعة ثمّ عاودت النظر إلى والدها.

انهمرت دموعها ناعمة على رقبة الرجل المسنّ الذابلة.

في اليوم التالي، مات والد شينو.

لم يعد الآن لشينو وإخوتها مكان يعيشون فيه. فقد أعيد مسكنهم إلى السلطات القيّمة على المعبد وبات على العائلة أن تفترق. انضمّ شقيق شينو إلى شركة لصنع المكانس حرفيّاً مقيماً. أمّا الشقيقتان، فقد انتقلتا للعيش مع أقاربهما، في حين اهتممت أنا بشينو.

بعد سبعة وخمسين يوماً من الحداد حققنا، شينو وأنا، أمنية والدها القائلة إنّ عليها العثور على شخص تحبّه فتتزوّجه دون تردّد.

في ليلة رأس السنة اصطحبت شينو في قطار ليلي انطلق من يوإينو إلى منزلنا.

تساقط ثلج جميل يشبه مسحوقاً أبيض فوق بلدتنا حين بلغناها. وعندما نزلنا من القطار ومشينا عبر رصيف المحطّة المفتوح، أخذ الثلج يتساقط كنشارة الفضّة على شعر شينو المسرّح بتسريحة عالية والمثبّت بمادة مثبّت الشعر اللامعة.

«أهلا! أهلا!» هتفت أمّي حين شاهدتنا وقد لاحت ابتسامة على وجهها المجعّد الهرم. فتحت ذراعيها وكأنّها تهمّ بعناقنا

من بعيد. دون خجل، توجّهت شينو نحو أمّي وحيّتها بانحناءة. قامت أمّي بدورها بانحناءة أقوى ردّت التحيّة بلهجتها الريفيّة المرحة.

«حسناً، حسناً، انظرا إلى نفسيكما، لقد قطعتما كلّ هذه المسافة كي تغطّيكما الثلوج!» قالت أمّي في حين أخذت تنفض الثلج عن كتفي شينو. تورّدت وجنتا الأخيرة لكنّها وبلطف تركت أمّي تنهي تلك المهمّة.

قلت لها «ما كان عليك المجيء للقائنا في هذا الطقس». استقامت أمّي بظهرها وارتسمت على وجهها إيماءات تستنكر الفكرة. «كيف لي ألا آتي للقائك حين تأتي أخيراً مصطحباً عروسك الشابة كي ترانا؟» في كلّ الأحوال، هناك سيّارة تاكسي في الانتظار».

تناهت لأسماعنا أصوات السلاسل فوق الإطارات وهي تقعقع وتصخب، في حين أقلتنا سيّارة التاكسي عبر طريق تكوّم فيها الثلج الذي سقط لتوّه. عبرنا قرب نهر متجلّد، ثمّ انحرفنا إلى أقصى اليمين في طريق منحدرة امتدّت صعوداً بمحاذاة النهر. كانت طريقاً ضيّقة لا تتّسع لأكثر من عربة في وقت واحد.

«لا أعرف إن كنّا سنتمكّن من النفاذ عبر هذا الثلج»، قال

السائق وهو يميل برأسه معبّرا عن شكّه.

«كنّتي موجودة هنا. ينبغي لنا النفاذ!» قالت أمّي بإلحاح، وقد مالت في مقعدها إلى الأمام.

«كنّتك جاءت في يوم رأس السنة، حسناً! هذا عظيم»، ردّ السائق. «حظنا سيكون سيّئاً إن علقنا في منتصف الطريق! لا تقلقي، سنصل بسلام».

إلى جانب الطريق أمام البيت، وقف أبي وشقيقتي كايو يحتميان معاً تحت مظلّة واحدة. أطلق السائق بوق سيّارته عابثاً، فلوّح أبي بمجرفة ثلج خشبيّة كبيرة كان يحملها بيده.

«أهلا وسهلاً، أهلا وسهلاً بكما»، قال أبي عند ترجّلنا من سيّارة التاكسي. بإيماءة ودودة مرحّبة، دعت شقيقتي شينو للانضمام إليها تحت المظلّة وقادتها نحو الباب الأمامي.

قال أبي «الثلج يتساقط منذ ليلة البارحة ولم نفلح في إزالته كلّه».

«هل أنت موقن أنّه عليك القيام بذلك؟»، سألته، ناظراً إليه.

في الواقع لم يكن أبي على ما يرام، وقد بدا ظهره أكثر انحناء ممّا كان عليه من قبل.

«لم لا؟» قال ضاحكاً.

قالت أمي متنهّدة «هو لن يستمع إلينا مهما قلنا».

حلّ الغسق باكراً في ذلك اليوم. جلسنا نحن الخمسة حول طاولة كوتاتسو[1] محاطة بلحاف في غرفة الجلوس، وأكلنا الكعك صغير الحجم الذي جلبناه هديّة معنا. لم يتوقّف أبي عن سؤالنا كي نعيد رواية قصّتنا، وما لبث أن حان وقت إضاءة الفوانيس قبل تمكننا من الانتهاء.

عندما قامت أمّي وكايو وتوجّهتا لإعداد العشاء، وقفت شينو وتناولت مئزراً من حقيبتها. مدّت أمي يدها بارتباك كي توقفها. «آه شينو، لا، أنت كنّتي!» قالت لها. «اجلسي فقط واسترخي».

«أرجو أن تدعيني أساعدك»، أجابتها شينو.

«لا عليك، لديّ كايو هنا كي تساعدني. أنت فقط أريحي نفسك».

ضحكنا أبي وأنا من رؤيتهما تتجادلان حول مئزر.

ناديتها «أمّي!» «شينو تريد أن تساعد. ألن تدعيها

---

(1) طاولة يابانيّة خشبيّة خفيضة تحيط بسقفها من جهاته الأربع بطانيّة سميكة تصل إلى الأرض. داخل البطانيّة وفي قاعدة الطاولة يكون هناك مصدر للحرارة مثل مدفأة كهربائيّة. يجلس الأشخاص على الأرض ويدخلون أرجلهم تحت الطاولة حيث تغطّي البطّانيّة نصف أجسادهم وتدفئهم.

تفعل شيئاً؟».

نظرت أمّي إليّ مشدوهة. «ماذا تقول يا بنيّ؟! لن أطلب من كنّتي العمل في المطبخ وقد وصلت لتوّها! ماذا سيقول الناس؟».

«حسناً يا أمّي. شينو ليست كباقي الكنّات. سيكون غريباً عليها ألا تقوم زوجة شابة مثلها بأيّ عمل. دعي الناس يفكّرون بما يريدونه! لقد قضيت حياتك كلّها وأنت تفكّرين بالمظاهر. الآن بحضور شينو، فقد حان وقت الإقلاع عن هذا! فقط دعيها تقدّم المساعدة. ألن يعجبك تحضير العشاء مع كنّتك التي وصلت لتوّها؟».

«حسناً، أعتقد أنّك محق»، قالت أمّي وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة. بمرح وضعت شينو مئزرها، وقد قامت أمّي بمساعدتها في عقد ربطاته الخلفيّة.

تركت شينو تذهب إلى النوم باكراً في ذلك المساء، إذ إنّها لم تتمكّن من النوم في القطار. وقمت في تلك الأثناء بمناقشة تدابير العرس مع أهلي في غرفة الجلوس.

في المساء التالي، قررنا إقامة حفل خاص. يعيش أقاربنا في أمكنة بعيدة جدّاً ولم يكن ثمّة في الجوار أناس كثيرون ممن

نعرفهم، لذا فأنا لم أشأ شخصياً إقامة شيء مسرف، غير أنّني تركت القرار لأهلي مراعاة لمشاعرهم. هم في النهاية أهل لستّة أبناء، والآن بعد أن بلغا عمر الستين، فإن ابنهم الأصغر سيكون أول من يتزوّج. لحسن الحظ، وافقاني منذ البداية.

أوى أبي وكايو كلّ إلى فراشه بحلول الليل وتركانا وحدنا أنا وأمّي في غرفة الجلوس. لبرهة، جلسنا هناك صامتين، ولم يكسر الصمت ذاك سوى هسهسة إبريق الشاي فوق الموقد.

«أحسنت صنعاً يا بني»، قالت أمي أخيراً. وقد أسعدني ذلك.

أجبتها ببساطة «أجل».

«من خلال رسائلك، كنت قد كوّنت فكرة جيّدة، لكن كما تعلم فقد ظلّت لي شكوكي إلى أن التقيت بها. إنّه عملها في المطعم وما شابه. حتّى إنّني حلمت بها. غير أنّ الناس الذين خبروا الصعوبات مختلفون إلى حدّ ما. عليك بمعاملتها معاملة جيّدة، أنت تعلم هذا. لا تركن إلى طبائعها الحسنة». هززت رأسي مرّات عدّة في حين كانت أمّي تتكلّم. «وما رأي كايو بالأمر؟» سألتها.

«إنّها سعيدة. حتّى إنّك لتظن أنّها هي من سيتزوّج».

أراحني سماع ذلك. الأمر الوحيد الذي أقلقني في زواجي من شينو كان ما يمكن أن يسببه هذا الزواج من تأثير على شقيقتي. حالتها الصحيّة كانت هشّة. فهي تعاني منذ ولادتها ضعف النظر وتضع على الدوام نظارات فاتحة الزرقة. هذا العام ستبلغ الخامسة والثلاثين من عمرها وليس لديها بالتأكيد أيّ تصوّر عن الزواج الآن. من أصل ستّة أشقاء وشقيقات، أنا وكايو كنّا كلّ من تبقّى. شعرت دائماً بواجب حمايتها في كلّ الأحوال. وقد أدركت قبل كلّ شيء وجوب ألا أخمد شعلة الأمل الصغيرة المتراقصة على نحو مضطرب في قلبها. كان ممكناً لزواجي أن يمثّل صدمة كبرى لها. قلقي كان عميقاً من أن تغرق كايو، التي تركت الآن لقدرها، في نوع خطير من العزلة - عزلة نعجز نحن في العائلة عن احتمالها.

في تلك الليلة، كنّا أنا وكايو سننام في الطابق العلوي، في حين تتقاسم شينو وأمي أرض الحجرة في الطبقة الأرضيّة. في طريقي إلى الأعلى، توقفت ناظراً نحو المطبخ فرأيت كايو عند الحوض تغسل وجهها بقوة. أدركت أن تلك هي عادتها الليليّة في رشّ الماء البارد على وجهها قبل توجهها إلى النوم، لكنّي هذه المرّة اشتبهت على الفور في أنّها كانت تبكي هناك قبل حلول

هذه اللحظة. مهما كان موقفها من شينو، لابدّ لمشاعرها الهشّة أن تكون قد اضطربت.

لو كنت واحداً من أشقائنا الميّتين، لأكملت طريقي صاعداً الدرج دون أية كلمة، فكرت في نفسي في حين دخلت إلى المطبخ بخطوات تعمّدتها أن تكون خطوات مسموعة. «هاي!» هتفت وأنا واقف خلف شقيقتي، فاستدارت نحوي ليظهر وجهها النديّ الأحمر. اقتربت منها. «ما رأيك إذن بزوجتي العتيدة؟» سألتها متعمّداً عدم المواربة.

ابتسمت كايو وطرفت بعينيها في حين انحدرت فوقهما نقاط الماء.

«إنّها إنسانة طيبة».

«ستكون أختاً صغرى لك! هل ستتقبّلين الأمر يا ترى؟».

لم تفصح عن شيء سوى الابتسام. ثمّ رفعت قبضتها، وكهرّة تضرب صغارها مداعبة إياهم، ضربتني على صدري بحنان لا يدركه سوى أقرباء الدم.

قلت لها «شكراً».

آنئذ بتّ موقناً أن زواجي من شينو سوف يكون ناجحاً.

في الصباح التالي كانت الأجواء قد صفت من الثلج وشعّ في

تلك الليلة بدر مكتمل.

ارتديت للحفل كيمونو وسترة هايوري[1] نصفيّة مزدانة بنقوش هندسيّة متناظرة، وكولوت[2] هاكاما[3] ذا ثنيات. وارتدى أهلي الأثواب المزخرفة الرسميّة. أبي، الذي لم يغادر البيت إلا نادراً نظراً لاعتلال صحّته، لم يكن قد ارتدى أثوابه تلك منذ عشرة أعوام، فقام بإخراجها بنفسه من الدرج السفلي للخزانة، طالباً من أمّي القيام على عجل كيّ الجعدات العميقة في ياقة سترته النصفيّة. لم يكن لشينو الكيمونو المطلوب ذو الكمّين الطويلين المخصّص للمناسبات الرسميّة، فارتدت بدلاً منه كيمونو الزيارات الذي لم تكن تملك سواه. تماشياً معها، ارتدت كايو كيمونو الزيارات أيضاً، وثبّتته بزنّار أوبي أبيض اللون مزدان بخيوط ذهبيّة. جثونا نحن الخمسة على وسائد وسط غرفة الاستقبال، حيث ظهر من خلال الباب الزجاجي منظر الثلج يغطي الأرجاء. جلسنا في ثلاثة أضلاع مربّع وكنّا أنا وشينو في الوسط، أبي وأمّي متقابلان كلّ في جهة، وكايو

(1) سترة حريريّة خفيفة يتمّ ارتداؤها فوق الكيمونو كي تحافظ على نظافته، وهي تتوافر بأطوال مختلفة.

(2) الكولوت: ثوب يبدو مثل تنّورة لكنّه مفصّل ومخيّط على شكل بنطلون.

(3) سراويل يابانيّة تقليديّة تثبّت عند الخصر ويتمّ ارتداؤها فوق الكيمونو.

إلى جانب أمّي. أمام كلّ واحد منّا، وضعت طاولة منمنمة تضمّ سمكة أبراميس[1] بحريّة كبيرة وقد تمّ شواؤها.

كان حفلاً بسيطاً جدّاً دون وسيط فراشات أوتشوميتشو الأوريغاميّة[2] أو غيرها من مظاهر الزينة التقليديّة، كما لم يكن هناك أحد من دعاة الخير[3] للاحتفال بعرسنا. قد يصعب الحديث عن عرس أصغر من هذا، لكنّ المؤكّد في الوقت عينه أن عرساً بهذا القدر من الترابط القلبي والتواصل الحميم لم يعقد من قبل - كان حفلاً في غاية الدفء فكاد يغمرنا العرق. لم يكن هناك بالنسبة لي ولشينو ما هو ملائم أكثر من هذا للشروع في حياتنا الزوجيّة. قطعنا عهداً على نفسينا أن نحاول في طريقتنا المتواضعة عيش حياة مستقرّة يملؤها الحب.

مارسنا الـ «سان سان كودو»، طقس تبادل أنخاب الساكي. كان هناك في بيتنا مقدار حسن من أدوات المائدة الفاخرة، بقايا يسرنا السابق والتي تكاد لا تليق بوضعنا الراهن. أدوات المائدة

(1) الأبراميس: سمك من فصيلة الشبّوط.

(2) الأوريغامي هو فن طيّ الورق، والفراشات المصنوعة من الورق تمثّل فنّا يابانيّا تقليدياً للزينة.

(3) أشخاص محترفون يدعون إلى الأعراس كي يشاركوا في إحيائها من خلال دعواتهم الخيّرة للعروسين.

تلك استخدمت في جميع اللقاءات، لكنّ بيتنا هذا لم يكن قد شهد حفل عرس من قبل فلم يكن هناك بين الأدوات المذكورة قطعة واحدة تصلح للمناسبة. كان علينا تدبّر الأمر مستخدمين فناجين الساكي العاديّة في طقس تبادل الأنخاب. تطوّعت كايو لمهمّة سكب الشراب وراحت تملأ الكؤوس. لسوء الحظ وبسبب ضعف نظرها، لم تتمكّن من رؤية الساكي جيّدا فكانت تطفح الكؤوس في كلّ مرّة سافحة الساكي على الطاولة. «آه لا! ليس من جديد!» كانت تصيح بارتباك. جلسنا هناك نشدو طوال الوقت.

بانتهاء الحفل الرسمي، أعلن أبي وعلى نحو مفاجئ أنّه سوف يؤدّي أغنية تاكاساغو، أغنية النو[1] التي تنشد عادة في الأعراس. كان وجهه أحمر قانياً بعد كأس واحدة من الساكي.

كنّا جميعاً مذهولين، إذ لم يسبق لنا سماعه يغنّي من قبل. اعتبرنا الأمر طرفة وحاولنا تجاوزه بالضحك. لكنّه كان جادّاً. اعتدل في جلسته ونظف حنجرته متنحنحاً. آنئذ راحت قبضة يده اليمنى التي وضعها على ركبته ترتجف على نحو فوضوي

(1) النو، أو النوغاكو، هو نوع رئيسي من الموسيقى الدراميّة اليابانيّة الكلاسيكيّة التي تؤدّى على نحو مسرحي منذ القرن الرابع عشر.

وقد اصطدمت تكراراً بحافة الطاولة. كان يتعرّض لنوبة جديدة. منذ معاناته الأولى من المرض ويده اليمنى المشلولة تبدأ دائماً بالارتجاف من شدّة الإثارة على نحو يتعذّر ضبطه.

«تـاكـاسـاغـوويـا..». راح ينشد، وذقنه يرتعش. لكنّه لم يكن يغنّي، كان لسانه معقوداً وقد علق صوته متعثّراً في حنجرته. كلّ ما صدر عنه كان صفير نفسه الذي خرج مهسهساً عبر الفراغات بين أسنانه.

«توقّف أيّها الوالد، أرجوك توقّف!» ناشدته أمّي دامعة. لكنّه لم يتوقّف.

«أبي! أبي!» مدّت كايو يديها الاثنتين كي تلتقط ذراعه اليمنى الراجفة. إلا أنّه أكمل الغناء، ولم يكن يسمع سوى صوت اصطدام قبضته بطرف الطاولة.

راقبت صامتاً فيما أكمل الثلاثة نزاعهم. وفكرت كم كان سهلاً على أهلي، الذين تحمّلوا بهدوء الكثير من خيانات أبنائهم، أن يفقدوا رباطة جأشهم في لحظة الفرح القصيرة هذه! فكرت بالسعادة التي كأنهم، هم الثلاثة، يختبرونها للمرّة الأولى، وتملّكتني على نحو مفاجئ رغبة في البكاء. لم يبدر من شينو سوى ضحكة بريئة وقد احمرّت عيناها من الشراب.

في تلك الليلة نمنا أنا وشينو معاً في غرفة الطابق العلوي. مدّت فرشتا فوتون على الأرض جنباً إلى جنب. سارعت بإعادة طيّ إحداهما مبقياً على الوسادة. قلت «في بلاد الثلج لا نرتدي شيئاً في الفراش. ننام عراة. وهذا أكثر دفئا من ارتداء ثياب النوم».

خلعت عنّي أثواب الاحتفال وملابسي الداخليّة وانسللت مسرعاً تحت اللحاف عارياً تماماً.

تطلّب الأمر بعض الوقت من شينو كي تطوي الكيمونو. بعدها قامت بإطفاء الضوء وجاءت كي تجثو عند وسادتي.

سألتني خجلة «ليس مسموحاً لي إذن أن أرتدي ثياب النوم؟».

أجبتها «بالطبع لا. أنت تنتمين الآن إلى بلاد الثلج».

لم تقل شيئاً. سمعت حفيف الثياب في الظلام، ثمّ بعد هنيهة، «من فضلك»، فيما انسلّ طيف أبيض خافت إلى جانبي.

في تلك الليلة كان لقائي الحميمي مع شينو لأوّل مرّة.

كان جسدها أكثر امتلاء ممّا توقعت. في العادة، لم تكن ترتدي سوى الكيمونو وكانت تبدو أقرب إلى النحول. كان جسدها مشدوداً لكنه بدا بالغ اللين.

كانت شينو في تلك الليلة دمية طيّعة في يدي، وكنت أنا

محرّك دمى غرّا ينسى نفسه في عرضه الأوّل.

ذكرت شينو حفل زواجنا وتحدّثت عن مدى حبّها لعائلتي. «أنا خجلة من قلّة تدبيري»، أردفت قائلة. «من اليوم وصاعداً سوف أحاول جاهدة أن أتعلّم. اكتشفت الآن وأنا برفقتك أنّني كنت قد أضعت هذي السنوات العشرين من حياتي. دائماً كنت أضع نفسي في الأخير دون الإفصاح أبداً عمّا أريده أو لا أريده، وكل ذلك كان من أجل الآخرين..».

«تلك شينو التي في شينوبوغاوا».

«حسناً، سوف أنسى كلّ ما يتعلّق بشينوبوغاوا الآن. ابتداء من الغد سأكون شينو جديدة. لن أفكّر من الآن وصاعداً سوى فينا نحن الاثنين. دعنا نحرص على أن تكون لنا معاً حياة جميلة».

فيما راح صوتها يخفت، هبط المساء الذي أثقله الثلج صامتاً مثل قبر. وبالإضافة إلى ذلك، ومن طرف قصيّ لهذا الصمت، أستطعنا سماع صوت أجراس تقرع ويعلو على إيقاع تقدّمها.

«ما هذا الصوت؟».

«إنّها عربة حصان».

«ما هي هذه؟».

«عربة يجرّها حصان، بالطبع. أحد المزارعين المحليين قد ذهب إلى المدينة على الأرجح، ويبدو أنّه أسرف في الشراب، وها هو الآن يعود إلى البيت».

«هل لي أن أرى؟».

تحرّكت عربة يجرّها حصان عبر الطريق الجبلي الذي يغطّيه الثلج ساحبة خلفها ظلّها القاتم. سطع الثلج باهرا كالنهار. كان السائق يتمايل غافياً فوق العربة مغموراً بدثار. والحصان يعدو في الطريق كأنّه يسرع إلى البيت من تلقاء ذاته وحوافره تومض لامعة في ضوء القمر. أصابت شينو رعشة خفيفة إذ وقفنا مأسورين في ذلك المشهد.

قلت لها «هيا نعود الآن. غداً سنكون في القطار مرة أخرى. يجب أن نحظى ببعض النوم».

«حسناً. دعنا نغفو قبل أن يخفت صوت الأجراس».

رويداً رويداً، تبدّد صوت الأجراس في المسافة حتّى لم أعد أسمع سوى رنين في أذني.

سألتها «أما زلت تسمعينها؟».

إلا أنّ شينو لم تجب. كانت آنئذ قد غفت.

في صباح اليوم التالي بدأنا شهر عسلنا.

لم نكن في البداية قد خططنا كثيراً لشهر عسل معتاد، لكنّ أمّي ألحّت كي نذهب ولو لليلة واحدة. ليس من أجلنا نحن فقط، بل لأنّ عائلتي بدورها كانت تحتاج، من الآن فصاعداً، إلى القيام بخطوات عدّة كي تعيد ترتيب حياتها. كان ذلك هو الأمر، فقرّرنا على مضض الذهاب لليلة واحدة لا أكثر إلى منتجع ينابيع ساخنة يقع على بعد محطتين للقطار شمال بلدتي.

يقع المنتجع في قرية منزوية في ممرّ جبليّ ضيّق، حيث كنت قد عبرت طوال عام في الأيّام المكفهرّة الرهيبة عندما أجبرت على ترك الجامعة. أردت أن أغمر جسد شينو بالمياه الضبابيّة البيضاء للينبوع الساخن، المياه التي كنت قد كشطت بها مرّة عرق رأسي المضطرب. إذ إنّ الاضطراب المذكور عينه وقبل كلّ شيء، كان قد تتوّج بلقائنا.

كان قطار الصباح مكتظاً بباعة جوّالين يتوجّهون إلى عملهم في موسم العام الجديد، إلا أنّنا كنّا محظوظين في تمكّننا من الجلوس متواجهين. قلّصت شينو عينيها المتضخّمتين جرّاء قلّة النوم وراحت تحدّق في المناظر الطبيعيّة المغمورة بضياء الشمس في الخارج.

لم يمض وقت طويل على مغادرتنا المحطّة حتّى غدت شينو

متلهّفة فاتحة عينيها على وسعهما.

«إنّني أراها! إنّني أراها!».

أمسكت ركبتي على نحو مفاجئ بيديها الاثنتين وهزّتها.

«انظر! إنّني أراها، إنّني أراها!» قالت مرّة أخرى وأشارت إلى الخارج عبر النافذة.

في الخارج كان ثمّة بلدة ببيوت جاثمة يتكوّم الثلج كثيفاً على سطوحها، وتجاورها أنهر يحاصرها الجليد، وجسور، وأبراج مراقبة، وأسطح معابد، ويظهر في الأفق خلفها الجانب الممتدّ والخفيض لجبال كيتاكامي.

«ماذا؟ ما الذي ترينه؟».

«منزلي! أستطيع أن أرى منزلي!».

منعماً النظر أمكنني آنئذ أن أرى هناك قرب الطرف الصخري للنهر المتجلّد: منزل أهلي، جدرانه البيضاء ملوّحة بشعاع شمس الصباح الذي أظهرته بارزاً وسط بياض الثلج.

«آه، بلى. يمكنني أن أراه».

«أنت تراه، أليس كذلك! إنّه منزلي!».

لم تتوقّف شينو عن هزّ ركبتي بقوّة أكبر. في الحقيقة، لم يسبق لها أن عاشت في منزل عادي طوال سنوات عمرها العشرين.

لم يتعذّر عليّ فهم السعادة التي أحسّت بها وهي ذاهبة إلى شهر عسلها حين لمحت منزلها الجديد بعيداً عبر نافذة القطار.

انتبهت فجأة إلى أنّ المسافرين الآخرين - الباعة الذين يحملون سلع العام الجديد الأولى، وأولئك ممّن ارتدوا ثياب أولى زياراتهم في مطلع السنة - كانوا قد غرقوا في الصمت وراحوا ينظرون إلينا بفضول. هززت رأسي لشينو موافقاً بصمت عمّا تقول، فيما غدا وجهي أقرب إلى اللون القرمزي من شدّة الارتباك.



عار في السلالة

عندما كنت لاأزال في الجامعة تزوّجت من شينو، الشابة ذات العشرين ربيعاً والتي عملت في مطعم ريوتي[1] قرب مسكن الطلاب الذي أقمت فيه. تزوّجنا في عطلة العام الجديد، بعد أقلّ من عامين على لقائنا الأوّل.

في عطلتي الشتويّة في ذلك العام، اصطحبت شينو معي إلى بلدتي حيث أقمنا حفل زفاف متواضعاً عشيّة الثاني من شهر كانون الثاني اقتصر الحضور فيه على عائلتي. في اليوم التالي، ونزولاً عند إلحاح والدتي، انطلقنا لقضاء شهر عسل قصير في منتجع لينابيع المياه الساخنة في الريف القريب.

كادت الطريق إلى المنتجع لا تتسع لمرور أكثر من حصان

(1) Ryotei راجع صفحة 12

واحد. وامتدّت خلف الطريق على نحو لانهائي المساحات التي يغطّيها الثلج. في نزلنا، وسط ردهة الاستقبال، كان ثمّة مدفأة غائرة ودفق مياه معدنيّة أبيض كثيف يصبّ في حوض الينبوع الساخن. عدا هذا، لم يكن ثمّة ما يميّز المكان على الإطلاق. تملّكني الخجل بلا شكّ جرّاء تلك البساطة الكاملة، لكنّ سعادة شينو كانت كافية. «لم يسبق لي مشاهدة ثلج بهذا القدر!» قالت على نحو مبتهج: «إنّه المكان الأمثل للاحتفال بزواجنا». هناك عند النافذة حيث وقفت، راحت تراقب مشهد الشتاء والهبوط السديميّ للثلج في المسافة، ثمّ ضحكت حين التفتت إلى الرفّ المخصّص للزينة في جدار غرفتنا، إذ انتبهت أنّ برتقال الميكان[1] تساقط مرّة أخرى بعيداً عن قالب حلوى الأرزّ ذي الطبقتين. كان البرتقال يتساقط على نحو متكرّر منذ الصباح. لم يكن هناك مجرى هواء في الغرفة، بل تناثر من تلقاء ذاته. كلّما تساقط، التقطته شينو وأعادته على قالب حلوى الأرزّ. ثمّ بعد دقائق قليلة، كان يتساقط من جديد. وهكذا مرّة إثر أخرى.

قالت شينو: «البرتقال والأرز كلاهما متيبّسان من الجليد! لهذا فإنّ البرتقال لا يكفّ عن التساقط. ما الذي ينبغي لنا أن

(1) ليمون صينيّ الأصل يتميّز بخلائه من البذور وبسهولة تقشيره.

نفعله برأيك؟».

«لماذا لا نترك الأمر كما هو؟».

«إنّها زينة العام الجديد! لا يمكننا تركها هكذا!».

فكّرت شينو قليلاً، ثمّ قامت بوضع البرتقال المتجلّد تحت طاولة الكوتاتسو[1] المبطّنة في غرفتنا، كي تذيب الجليد عنه.

اغتسلنا في تلك الليلة بمياه الينابيع الساخنة. كان ثمّة ما احتجت إلى إخباره إلى شينو قبل حلول الليل، لكنّني لم أجد اللحظة المناسبة للبوح به في النهار على الرغم من محاولتي. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أدركت أنّ الأمر لم يكن من الأشياء التي ينبغي لي إخبارها لعروسي الجديدة في شهر عسلي، بل كان ببساطة أمراً لا يسعني تلافيه. في الوقت عينه، أدركت أنّه قد يرخي ظلاله على مزاج شينو المبتهج.

جلست عند طرف حوض الاستحمام الخشبي منصتاً إلى الرياح المتدافعة فوق الحقول في الخارج. كان البخار ينجلي عن نافذة الحمّام فجأة بين الفينة والأخرى. ومهما أحكمنا إقفال النافذة، كانت ندف الثلج الرقيقة تفلح في تلمّس طريقها إلى الداخل فتنحدر فوق ظهري الدافئ لاسعة إيّاه. أعادتني ندف

(1) Quilted Kotatsu table راجع ص 61.

الثلج تلك إلى حواسي ومنحتني جرأة متجدّدة.

قلت لها: «لقد حرصت ليلة أمس، كما تعلمين، على ألا أسبّب لك الحمل».

احتاجت شينو إلى بعض الوقت كي تستوعب ما أعنيه.

«آه!».

طرفت بعينيها ونظرت إلى الأسفل.

«هل تريدين إنجاب الأطفال؟» سألتها دون مواربة كي لا أبقي مجالا للشكّ. شبكت شينو ذراعيها فوق صدرها وطرفت بعينيها طرفة قويّة كما لو أنها لم تكن واثقة تماماً بما أقول.

«نعم... بالتأكيد».

«كم واحداً؟».

«اثنان. صبيّ وفتاة... لكنّ ذلك ينبغي ألا يحصل في الحال».

«صحيح؟».

تنهّدت ونظرت عبر النافذة. الأمر طابق تماماً ما فكرت فيه.

صمتت شينو بعض الوقت.

«لماذا؟» سألتني أخيراً، وكأنّ شيئاً قد ظلّ طيّ الكتمان.

«حسناً، أنا في الحقيقة لا أريد»، قلت على نحو جليّ.

راقبت سيماء شينو، وقد علت أمارات الخيبة وجهها كما كنت متخوّفاً. إلا أنّها تمكّنت من فرض ابتسامة على نفسها.

«لماذا؟ ألا تحبّ الأطفال؟».

«لا. ليس الأمر كذلك».

«إذن، هل لأنّك مازلت في الجامعة؟».

«أيضاً ليس هذا هو السبب. فأنا الآن قد أصبحت زوجاً وطالباً. وما من شيء يمنعني من أن أكون أبا وطالباً أيضاً لو أردت إنجاب الأطفال».

«إذن، هل لأنني لست صالحة بما فيه الكفاية؟» قالت مرفقة قولها ذاك بابتسامة وشت بانتقاص غير معتاد من نفسها.

«لا تكوني سخيفة»، أجبتها. شينو هي الزوجة التي أردتها. ومن الواضح أنّني لم أكن راغباً في تركها كي أنجب أطفالاً من امرأة أخرى.

قلت لها: «حسناً، إن كنت ستبدئين بقول أشياء كهذه فمن الأفضل أن أكون واضحاً. الحقيقة هي أنني أخاف من أن يكون لي أطفال».

هزّت شينو رأسها ونظرت إلى قدميها في الأسفل كما لو أنّها عادت إلى الواقع أخيراً بعد طول غياب. ربّما سبق لها تخيّل هذه

اللحظة عندما قبلت الزواج منّي.

«هل تعرفين سبب خوفي؟».

«أجل».

أراحني أنّه لم يكن عليّ تكرار القصّة البائسة كلّها من جديد.

كان لوالديّ ستّة أبناء آخرهم أنا. لم يكن أحد من الخمسة الأوائل بين الستّة المذكورين طبيعيّا. أقدم اثنان منهم على الانتحار. اختفى اثنان. والاثنان المتبقّيان كانا معوّقين منذ الولادة. حتّى أنّ أحد الأخيرين خبر اثنتين من تلك البلايا. أربعة منهم كانوا قد ماتوا أو فقدوا. ولم يبق سوى أنا وشقيقتي كايو التي عانت منذ ولادتها من ضعف نظر حاد. لا يسعني بوصفي شقيقاً أخيراً متبقّياً سوى الشعور بأسى عميق تجاه حياتهم المأساويّة القصيرة. لم أستطع التصديق أن أقدارهم الفرديّة كانت مجرّد سلسلة أحداث غير مترابطة. شعور يقينيّ سادني مفاده أنّهم كانوا جميعاً مشدودين إلى بعضهم البعض عبر خيط غير مرئي، وهذا ما قد يفسّر سبب انزلاقهم السهل في الهاوية إثر أوّل انتحار.

تصوّروا زوجين أنجبا طفلاً معوّقاً. لا شكّ أنّهما سيشعران

بالحزن جرّاء حظّهما العاثر غير المتوقّع. لكن ما الذي سيحصل لو أنجب الزوجان المذكوران طفلاً معوّقاً ثانياً؟ هل يستمرّان بالحزن هكذا ببساطة؟ أو تصوّروا عائلة أقدم أحد أفرادها على الانتحار. سوف يشعر الأفراد المتبقّون بالغضب أكثر من شعورهم بالأسى. لكن حينها، وبالتزامن مع حديثهم عن حماقة ذلك الفعل، يقدم فرد آخر من العائلة على الأمر ذاته تماماً. هل ستتمكّن العائلة من أن تبقى ساخطة وحسب؟ الصدمة التي ستصيبهم آنئذ ستتعدّى بالتأكيد مشاعر الحزن والسخط كلّها. وهم سوف يشعرون دون شكّ بأنه لابدّ من رابط مميت ما يجمع بين أفراد عائلتهم البائسين.

بالنسبة لي، فإنّ مردّ ذلك كلّه إلى الدماء. لقد اشتبهت في أن تكون الدماء عينها، التي تربطنا جميعاً، دماء فاسدة بحدّ ذاتها. وما كان أكثر هولاً في الأمر هو الواقع الذي لا رادّ له المتمثّل في أنّ دماء أخوتي الفاسدة تجري في عروقي أيضاً. كان علي أن أحيا حياتي كلّها محارباً الشرك القاتل في دمائي الفاسدة. أحسست باشمئزاز فظيع من نفسي حين أدركت أن حياتي قد تكون صراعاً مستمرّاً ضدّ دمائي عينها. فكان من الطبيعي أن أشعر بخوف رهيب من أن أنقل تلك الدماء إلى أبنائي – الدماء

التي قد تتسبّب بدماري الشخصي في أيّ وقت.

كنت قد أخبرت شينو مرات عدّة عن ظروف عائلتي، لكنّها وافقت على الزواج منّي مدركة تلك الظروف إدراكاً كاملاً. لم تضحك عندما قلت لها إنّني أخاف من أن يكون لي أطفال. إذ إنّها أدركت جيّداً أنّ خوفي ذاك لم يكن حتماً قلقاً عادياً ينتاب شاباً مقبلاً على الأبوّة. إلا أنّها الآن كانت قد سمعت زوجها يعلن على نحو جليّ تفضيله عدم إنجاب الأطفال. بماذا أشعرها هذا الأمر؟ فاق التفكير به في الحقيقة قدرتي على الاحتمال. إذ إن شينو على الرغم من شبابها وصحّتها كانت ستحرم ممّا هي على الأرجح السعادة الأكبر التي قد تعرفها امرأة. هي نفسها اختارت هذه الطريق التعسة، لكنّي أنا من فرض عليها هذا الخيار. سبب لي التفكير في هذا الأمر ألماً عظيماً في القلب. وقد جلسنا هناك بعض الوقت نستمع إلى صوت الرياح عاجزين عن الكلام. راحت قشعريرة تحلّ بي.

«ألا تشعرين بالبرد؟» سألتها أخيراً. «هيا ندفئ نفسنا في المياه». نزلت في حوض الاستحمام مشيراً إلى شينو كي تتبعني. شبكنا أصابعنا بإحكام تحت مياه الينابيع الساخنة، المياه البخاريّة والبيضاء كالحليب.

قلت لها: «أعرف بالطبع ما تشعرين به. لكنّ ثقتي بنفسي الآن ليست كافية. وإلا كنت لأفعلها هنا في الحال. فهل تعدينني بألا تطلبي منّي إنجاب طفل إلا حين أغدو مستعدّاً؟».

هزّت شينو برأسها موافقة وشدّت أصابعها.

قالت: «لا بأس في الأمر. لا تقلق، من أجلي. سأنتظر إلى أن تصبح مستعدّاً. في النهاية هنالك أزواج لا يستطيعون الإنجاب أبداً، أليس كذلك..».

«إذن، هذا وعد؟».

«أجل».

أرخت شينو أصابعها وأبعدت جسدها عن جسدي.

بعد مضي ليلة شهر عسلنا الوحيدة، مكثنا عند أهلي طوال عشرة أيّام أخرى. ثم عدت إلى طوكيو بمفردي إذ انتهت عطلتي الشتوية.

في طريق ذهابي اليومي إلى الجامعة وعودتي منها، كنت أسير عابراً أمام المطعم الذي سبق لشينو أن عملت فيه. الفتاة الشابة التي عملت مع شينو فيما مضى كانت في بعض الأحيان تفتح ستارة النورن[1] وتخرج مسرعة.

---

(1) ستائر يابانيّة تصنع من القطن أو الحرير وتثبّت أحياناً فوق القطع الخشبيّة

«كيف تسير الأمور إذن؟» كانت تسأل على نحو متسرّع.

«أيّة أمور؟» كنت أجيبها.

«شينو طبعاً! هل مازالت على ما يرام؟».

«آه، أجل، إنّها بخير. فهي منذ مدّة كما تعلمين متفرّغة لعمل البيت».

«هل من أطفال بعد هذا؟».

«لا تكوني حمقاء!».

في بعض الأحيان كانت تخرج صاحبة المطعم وسنّها الذهبية لامعة.

«شينو تعيش مع حماتها؟ كيف تُدبّر الأمر يا ترى».

«آه، يبدو أنّها تحسن تدبّر الأمر. تكسر الجليد كي تجري الماء، تتعلّم حياكة الإبرة، وأموراً من هذا القبيل».

«حقاً. أنا سعيدة فعلاً لسماع هذا. لكن كما تعلم قد يكون العيش متباعدين صعبا بعد الزواج مباشرة».

ساد القلق نظرتها نحوي عندما قالت لي ذلك.

لقد قرّرنا العيش متباعدين إلى حين أستطيع التخرّج في

التي تفصل بين حيّز وآخر، أو فوق الأبواب وعند مداخل البيوت الكبيرة والمطاعم.

الجامعة. لايزال لديّ ما يفوق السنة بقليل، ومهمّة كتابة أطروحة التخرّج مازالت تنتظرني. لقد أدركت أنّه لن يكون بوسعي التركيز في دراستي لو أنّ شينو إلى جانبي. إرادتي كانت غاية في الضعف. وقد خشيت أنّه لو عشنا معاً لأصبحت منهمكاً جدّاً بها، فأعجز عن القيام بأيّ عمل آخر. أرادت شينو من جهتها أن تصبح أكثر قرباً تجاه عائلتي وتعمل في أثناء ذلك على صقل مهارتها في تدبير شؤون المنزل التي لم يتسنّ لها الاضطلاع بها لسنوات طويلة.

على الرغم من عيشنا مفصولين بمئات الأميال، فلم يبد ذلك لي سيّئاً، ربّما لأنّنا لم نكن قد عشنا معاً من قبل أبداً. وفي كلّ الأحوال، فإنّ عيشنا معظم الوقت متباعدين، نلتقي على نحو حميم بين الحين والآخر لم يكن سيّئاً لنا. كنت أبعث رسالة إلى شينو مكتوبة بأسلوب تدوين المذكّرات مرّتين في الأسبوع تقريباً، وتجيبني نحو مرّة واحدة في الأسبوع، مضمّنة إجابتها أخبار عائلتي. ثمّ، ما أن تبدأ إجازتي، حتى أطفق عائداً إلى الدار مثل السهم. تأتي شينو للقائي عند المحطّة. وفي طريقنا إلى البيت، تتناول ورقة رزنامة من تحت زنّارها الأوبي وترميها من فوق الجسر إلى النهر. تصنع أوراق الرزنامة بنفسها وتحصي

الأيام إلى أن أعود فتشطب كلّ يوم يمضي. حين تشطب اليوم الأخير من الرزنامة، تدرك أنّني سأكون في البيت اليوم التالي.

قضينا معاً عطلة الربيع، ثمّ الصيف. وحلّ شهر تشرين الثاني مبكّراً.

في إحدى الأمسيات، وصلت رسالة عاجلة من والدي إلى شقّتي في سيتاغايا. كنت قد انتقلت من مساكن الطلاب إلى هناك كي أنجز كتابة أطروحتي. كان أبي على الدوام رصيناً وهادئاً في طبيعته، غير أنّ صغائر الأمور غدت بالنسبة إليه كبيرة منذ أن أصيب بسكتة دماغيّة معتدلة قبل عدّة أعوام. من النادر أن يبعث رسالة، فما بال فعله ذلك عبر البريد العاجل. فتحت الطرد على عجل مفكّراً في احتمال مرض أمّي. لكن لم تكن أمّي هي المريضة. بل كانت شينو - مصابة بغثيان الصباح[1]. الرسالة خطّتها يد أبي المرتعشة:

أعلم أن هذا قد يقطع دراستك، يا بنيّ، لكن ثمّة أمراً أعتقد أنه عليك معرفته. كنّا نتناول العشاء قبل أسبوعين حين أحسّت شينو بمرض مفاجئ وهي تتناول فلفلاً أخضر. إنّها تعشق الفلفل

(1) غثيان صباحي يصيب الحوامل في الأشهر الأولى من الحمل.

الأخضر، كما تعلم. لكنّها منذ ذلك الحين وهي تشعر بالمرض كلّما تنشّقت رائحته. والأمر لا يقتصر على الفلفل الأخضر، بل يتعدّاه إلى كلّ طعام ذي رائحة قويّة. والدتك تقول إنّها رأت شينو قبل ذلك تبصق شيئاً في المغسلة سرّاً، فتساءلت عمّا قد يكون السبب. منذ ذلك وشينو تعاني مرضا مستفحلا في كلّ يوم. إنّها في هذه الأيام عاجزة حتّى عن تناول حساء الرزّ. منذ أسبوع، اصطحبت والدتك شينو إلى المستشفى وسألت إن كان بوسعهم فحصها. سأل الطبيب عن حالها. سأل عن عدد الأيام التي تلت مغادرتك إلى طوكيو. ثمّ قام بإجراء حساب على ورقة صغيرة، وقال إنّ سبب ذلك قد يكون عوارض الحمل. بعدها توجّها على الفور إلى مستشفى التوليد وطلبا إجراء فحص هناك. قال الطبيب إنّ ثمّة احتمالاً قويّاً للخبر السار، لكن ينبغي لنا أن ننتظر أسبوعاً آخر قبل تمكّنه من تأكيد الأمر. أعرف عن هذه الأمور بعض الشيء كوني شخصيّاً كنت أباً لستّة أطفال. في إحدى الأمسيات، ذهبت إلى السوق كي أشتري بعض برتقال الميكان[1]. وضعتها، دون علم أحد، في تلك الليلة قرب وسادة شينو. حين عدت لتفقدها بعد مضيّ

(1) Mikan.

ساعة، كانت البرتقالات جميعها قد اختفت! اليوم هو اليوم السابع منذ ذهابهم إلى المستشفى. خضعت شينو لفحص آخر والأمر يشير إلى توقّعها الإنجاب في النهاية. قالوا إنّها أتمّت شهرها الثاني. ولأنّ هذا يعدّ اختبارك الأوّل فقد رأيت أنّ الأمر ربّما يكون صدمة لكَ، فأردت إبقاءه تحت مظلّتي إلى أن تعود في العام الجديد. لكنّ هذا يمثّل خطوة كبيرة في حياتك ومناسبة استثنائيّة سعيدة لعائلتنا كلّها، فلم استطع كتمانه في نفسي حتى ليوم واحد. الآن عليك ألا تقلق على شينو أبداً. إنّها أكثر ضعفاً لكننا بتنا مدركين أنّ مرضها طبيعيّ. أنا على يقين أنّها ستستعيد وجنتيها الريّانتين عمّا قريب. في كلّ الأحوال، يمكنك ترك جميع الأمور النسائيّة لنا.

هنا كان ثمّة بيان بريدي:

لو تعلم، حين أفكّر في أنّ البركة ستحلّ عليّ بحفيدي الأوّل بعد كلّ هذه الأعوام، أرى في النهاية أنّ الأمر يستحق التقدّم في السن! لقد كنت أضحك من هذا الأمر مع والدتك قبل قليل.

جلست مصعوقاً ومرتبكاً.

لم يسبق لي أبداً أن تلقّيت رسالة من والدي طافحة هكذا بالثقة والبهجة. تلك الخيانات السابقة التي اقترفها أخوتي كانت حتماً قد سحقت روحه وسلبت منه حيويّته وألحقت به عاراً داخليّاً لكونه والدهم، غير أنّه الآن، وعلى نحو مفاجئ، بات قادرا على كتابة «شخصيّاً كنت أباً لستّة أطفال»، كما لو أنّه يفاخر في الأمر. نادراً ما كان يذهب لشراء أيّ شيء، إلا أنّه الآن كان قد «ذهب إلى السوق كي يشتري بعض برتقال الميكان» كما لو أنّه مزهو بالانتصار. حقيقة، إنّ زوجة ابنه الأصغر حامل، تلك الحقيقة وحدها، مثّلت «مناسبة استثنائيّة سعيدة» جدّاً لرجل عجز عادة عن المزاح تجاه أيّ أمر، وقد جعلته يتفكّه الآن بالقول إنّ كنّته الشابّة سوف «تستعيد عمّا قريب وجنتيها الريّانتين».

بوسعي الإحساس بانشراح والدي غير المتوقّع جارياً في كلّ سطر من سطور رسالته ونابضاً بإيقاع الإثارة. أمّا بالنسبة لموضوع الرسالة، فإنّني لم أستطع التصديق. إذ حتّى إن كان حمل شينو يتخطّى كلّ الشكوك، فإنّ السؤال يبقى كيف حصل ذلك بحقّ السماء، في حين كانت على الدوام موسوسة في احتراسها؟ ربّما قامت وعلى نحو غير متعمّد بنقض اتفاقنا، أو

ربّما قصدت ذلك نتيجة توقها الشديد لإنجاب طفل. ربّما هذا. وربما ذاك. وفي النهاية، فإنّ أفكاراً لا يمكن تصوّرها أخذت تطوف في ذهني، أفكاراً تشكّل تحدّياً لكرامة شينو. كان ذهني خائضاً في بحر.

مهما كانت الحال، فقد أدركت أنّه عليّ رؤيتها في أسرع وقت ممكن. شيء واحد كان مؤكّداً: العهد الذي قطعناه في ليلة شهر عسلنا كان قد نقض. أردت أن أرى بنفسي حمل شينو المعجز ذاك – لا بوصفه أمراً «نسائياً»، حسبما قال والدي، بل بعزم رجل. الوقت لم يكن وقتاً للقلق على أطروحة تخرّجي.

في اليوم التالي غادرت على عجل إلى بلدتي الصغيرة القريبة من طرف هونشو الشمالي.

كانت شينو نائمة وحدها في الطابق العلوي، حين وصلت. فتحت الباب الجرّار بخشونة متعمّدة، هاتفاً «هاي! لقد عدت».

طفحت الدموع في عينيّ شينو ما أن رأتني. أخرجت يديها من تحت الغطاء ومدّتهما نحوي كأنّها تستغيث بي. حين تلقّيتهما في يديّ، شدّتني نحوها بقوّة غريبة، ثمّ طوّقت عنقي بذراعيها وتشبّثت بي على نحو يائس تماماً.

«أنا آسفة! أنا آسفة!» كرّرت ذلك بصوت مرتعش مازجة البكاء بالكلمات كما قد يفعل الأطفال.

على نحو تلقائي شعرت، دون معرفة السبب، أن شينو ومهما كان الأمر الحاصل لم تسع عمداً إليه. لم تكن مسؤولة عن ذلك أبداً. وقد أدركت، في الوقت عينه، مدى العجز الذي راح يلمّ بها في كلّ يوم جرّاء حالتها الراهنة. لقد فهمت قلقها تجاه التحوّلات القائمة في داخلها، حتى التحوّلات التي لا يحيطها فهم.

«كلّ شيء على ما يرام. لا تقلقي نفسك الآن»، قلت لها، مبعداً ذراعيها عن عنقي، ومعيداً رأسها برفق كي يستريح على الوسادة. تفرّست في وجهها. كم تغيّرت!

ربّما هو شعرها. كانت قد جدلته في ضفيرتين انسدلتا خلف أذنيها. تلك هي هيأتها على الأرجح عندما كانت طفلة. لكن وجهها كان شديد الهزال، فلا يمكن مقارنتها بطفلة. كانت عيناها غائرتين ووجنتاها الممتلئتان قد تجوّفتا. كانت شينو مثل فتاة صغيرة استسلمت لداء غامض ولم يعد بوسعها استجماع إرادتها لمقاومته.

«بعث أبي رسالة عاجلة. كانت صدمة كبيرة. توجّب عليّ

رؤيتك. أعرف معظم التفاصيل من الرسالة. لكن كيف أمكن لهذا أن يحصل؟ كل منا كان شديد الانتباه!».

«في الحقيقة، مازلت لا أفهم. لكنّي استعدت وأنا في الفراش هنا ما حصل بانتباه وتذكّرت على نحو مفاجئ إحدى المرّات..».

«متى؟».

«في يوم عودتك إلى طوكيو مع انقضاء الصيف..».

كدت أن أصرخ. نعم، تذكّرت. كانت ليلة عودتي إلى طوكيو في آخر شهر آب. أحسست بالدماء تجري في وجنتيّ.

وقع ذلك قبل ساعتين من موعد مغادرتي. كنت في الطابق العلوي أبدّل ثيابي. وكانت شينو التي ارتدت كيمونو بحريّا من قطن جاثية قربي توضّب أغراضي في حقيبتي. عندما فرغت من الأمر قامت بإغلاق إبزيميّ الحقيبة، ثمّ أرخت كتفيها وهي مازالت جاثية في مكانها.

«يا لها من فترة طويلة»، قالت متنهّدة. «أيلول، تشرين الأوّل، تشرين الثاني، وكانون الأوّل. أربعة أشهر. أربعة ضرب ثلاثين يساوي مئة وعشرين يوماً... يا لها من فترة طويلة. فترة ستكون الأطول، أليس كذلك».

«أعتقد هذا. لكن هكذا أفضل بالنسبة لي. عليّ إنهاء أطروحتي قبل نهاية العام».

قلت ذاك كي أشغل نفسي عن رغبتي فيها. وفيما رحت أرتدي جوربي، رأيت غطاء ريشة الكتابة[1] ملقى على الأرض قرب أحد قوائم الطاولة.

«هنا. لقد نسيت شيئاً»، قلت وأنا ألتقطه. عندما التفتّ نحو شينو لاحظت شكل ظهرها وهي جاثية هناك. كانت عيناي مأسورتين بحسّية ذلك المشهد غير المتوقّعة. أدارت شينو رأسها دون أن تنبس بكلمة ورمقتني من خلف كتفها. أحسست فجأة وكأنني أتعرّق وقمت عابثاً بمداعبة وجنة شينو بغطاء ريشة الكتابة.

كانت لحظة متهوّرة أثارها ألم الفراق. وقع كلّ ذلك بعجلة شديدة، فانتهى على نحو غير واضح. أدركت أن شينو كانت تفكّر في ذلك اليوم بالتحديد، لكن ولأنّ اليوم المذكور كان صارخاً في وضوحه بالنسبة لي ولشينو على حدّ سواء، ولأنّه انتهى بغير ذلك الوضوح، فإنّي لم أتابع التفكير بشيء آخر. إذ ما الذي ستأتي به أفكارنا تجاه أمر حدث في الماضي؟ كان لجسدينا

(1) أو «مسكة» ريشة الكتابة المعدنيّة.

معاً أفكار أخرى على ما يبدو.

«هذا أمر فظيع. إذ لم يسمح لنا بمجرّد لحظة طيش»، قلت لها. إحساس مرير بالندم أخذ يلفّني.

«أعرف هذا. فأنا نفسي لا أكاد أصدّق الأمر. لكنّ الطبيب قال مرجّحاً إنّ ذلك وقع قرابة الثلاثين من آب أو في الواحد والثلاثين منه. الثلاثون من آب كان يوم مغادرتك. كانت تلك الحادثة التي تذكّرتها. لقد كنت في غاية الارتباك».

توهّجت وجنتا شينو الشاحبتان بلون ورديّ كما لو أنّ ارتباكها عاد إليها. لكنّ الوقت لم يكن وقت تعلّق بمشاعر العار والندم. فكرة أنّ الجنين في رحمها كان نابضاً بالحياة في أثناء حديثنا، وما هو أكثر من ذلك أيضاً، كانت تكبر مع كلّ ثانية تمرّ وتمدّني بالقوّة.

«في كلّ الأحوال، لا يسعنا تبديل الأمر الآن، أليس كذلك؟ ماذا عن الطفل؟ ما الذي تريدين فعله؟».

«أنا؟ أفضّل عدم الإبقاء عليه». حدّقت شينو مباشرة في عينيّ وهي تتحدّث على نحو صادم في وضوحه.

شعرت بخيبة أمل غريبة. «إن كان هذا ما تريدينه فالمرجّح أنّه الأفضل. تبدين مفرطة في تيقّنك من الأمر».

«أجل، إذ إنّني كما تعلم ومنذ حصول الأمر لم أقم بشيء سوى التفكير به. في النهاية، نحن قطعنا عهداً، أليس كذلك؟ كما أنّني في الحقيقة لا أريد أنجاب طفل حمل به عن طريق الخطأ. فحينها لن أشعر نحوه سوى بمشاعر الأسف. عندما أنجب طفلاً ينبغي أن يكون ذلك أمراً أردتّه أكثر من أيّ شيء آخر. ينبغي لي أن أكون مسرورة في إنجابه. لا أن يكون مجرّد شيء حصل بفعل الطيش. لا أعتقد أنّ بإمكاني الإبقاء عليه لأنّه ما من بديل. ألا يبدو هذا غريباً؟».

«لا، ليس غريباً. أنت محقّة. أنا معك في هذا».

«صحيح؟ حسناً، أنا مسرورة من سماع ذلك. نعرف على الأقلّ أنّ بإمكاننا إنجاب الأطفال متى أردنا. وبإمكاننا التعلّم من أخطائنا».

ابتسمت شينو. وقد علت وجهها بشائر الارتياح.

في تلك الليلة، ناقشت الأمر مع والديّ. بعد أيّام، خضعت شينو لعمليّة إجهاض في المستشفى.

في شهر آذار التالي، أطبقت الكتاب على حياتي الجامعيّة وعدت إلى البلدة بعض الوقت، ثمّ، في شهر حزيران، رجعت إلى طوكيو برفقة شينو. في ذلك الوقت، بدأنا حياتنا الجديدة معاً

في الشقّة التي استخدمتها وأنا طالب.

بعد عام ونصف عام كاملين من زواجنا، قدّر لنا أخيراً العيش معاً بمفردنا. إلا أنّ الصعوبات اكتنفت حياتنا الجديدة منذ البداية. المشكلة أنّه لم يكن لديّ عمل. في عامي الأخير في الجامعة، أجريت امتحاناً بهدف الانضمام إلى صحيفة. قبل بداية الامتحان، طلب منّي أن أملأ استمارة مفصّلة تتضمّن أسئلة عن عائلتي وقد وجدت نفسي عاجزاً عن كتابة كلمة صادقة واحدة عن حياة أخوتي. وهكذا خرجت دون إكمال الامتحان وفقدت منذ ذلك الوقت كلّ رغبة في البحث عن عمل. لم يسبق لي من قبل الشعور بهذا الامتعاض الشديد تجاه أشباح أقاربي الموتى التي بدت متربّصة بي أينما ذهبت. لم تتملّكني رغبة قويّة كهذه من قبل في رفض مجتمع بدا أكثر اهتماماً بتلك الأشباح من اهتمامه بي بوصفي شخصاً. فلأوّل مرّة، رحت أتوق بصدق إلى عالم يقبلني لقاء عملي دون الالتفات إلى الأشباح التي أحملها فوق ظهري. «عملي» أنا، على ما قرّرت، سيكون كتابة قصص إخوتي وقد انغمست في ذلك إلى جانب عيشي حياة عزلة هادئة مع شينو. يستحيل تدبير حياة مثل هذه في العالم الواقعي، فراح طيف الفقر القاتم يطاردنا كلّ يوم.

مضى عام.

في الصيف التالي، وجدنا أنفسنا في قاع فقر مدقع. تلقيت برقية من البلدة تفيد بأنّ أبي يعاني من مرض مستفحل. على الفور، انطلقنا عائدين إلى هناك دون حمل أيّ شيء معنا غير الثياب على ظهرينا. كان أبي يعاني من مرض يدعى إنسيفالوماليسيا[1] - هزال الدماغ. سهرنا على رعايته طوال سبعة أيام وسبع ليال دون نوم، إذ شهدنا بتفصيل دقيق حال كائن بشري وهو يموت ميتة طبيعيّة. وفي صباح اليوم السابع، مات أبي تماماً كما يموت الناس العاديّون.

الموت البسيط والعادي ذاك ترك في نفسي أثرا كبيراً. إذ إنّني في النهاية كنت قد كبرت متعوّداً الشذوذ في دماء أقاربي. كان الأمر بالنسبة لي خلاصاً. شعور الدونيّة الذي حملته على الدوام في مسألة نسبي تبدّد فجأة، وقد أحسست بضياء غريب أمام عيني. قد يبدو ذلك قاسياً، لكنّي لم أستطع إخفاء الشعور بالبهجة بدل الأسى. تملّكني دافع لإخبار كلّ شخص بأن والدي، نعم، قد مات موتاً عادياً.

في ذلك اليوم، ذهبت إلى المستشفى وأخبرت الطبيب الذي

(1) مرض التهاب الدماغ.

كان قد عالجه. قلت له: «لقد توفّي والدي هذا الصباح. شكراً لك لكلّ ما قمت به».

ذهبت إلى المعبد المحلّي وأخبرت رئيس الكهنة: «لقد مات أبي هذا الصباح ميتة طبيعيّة. أرجو أن تهتم بالجنازة».

حييت أولئك الناس بابتهاج بدا مربكاً حتّى بالنسبة لي.

بعد موت أبي، بتنا نحن وحدنا، أمّي في السادسة والثمانين من عمرها، وشقيقتي العزباء في الثامنة والثلاثين، وزوجتي شينو وأنا، كلّ من تبقّى.

حين سجّي جثمانه، جثت أمّي في مساحة صغيرة أمامي. قالت: «يا بنيّ، أنت الوحيد الآن الذي قد نلجأ إليه. لا تخذلنا. إن رحلت كالآخرين من سيعتني بنا، كايو، وشينو، وأنا؟ سنموت جميعاً من الشقاء بالتأكيد. أنت الوحيد الآن الذي يمكننا اللجوء إليه. أرجوك، بحقّ العرش، لا تفعل ما فعله أخوتك. أتوسّل إليك يا بنيّ».

انحنت إلى الأسفل، فظهر موضع صلع صغير في قمّة رأسها هو أثر للأيّام حين كانت تربط شعرها في قنزعة. ثمّ استقامت وسعت مترنّحة نحو مأدبة العزاء.

ركّزت أفكاري على الدرب التي سأسلكها الآن كوني

«المخلّص». تلك لم تعد درباً أسير فيها وحدي ولا مع شينو وحدها. إذ بات معي الآن ثلاثة مرافقين. ولو قدّر لخطاي أن تحيد كي أنحرف عن تلك الدرب، لقدت الثلاثة الآخرين معي إلى السقوط. لم أعد حرّاً في إطلاق العنان لنفسي. كان أخوتي من جهتهم أحراراً في فعل ما يرضيهم. قد ألقوا عليّ نظرات ازدراء وغمغموا قائلين: «لا بأس، هو دائماً هناك. سوف يهتمّ بكل أمر»، وذلك قبل أن يلقوا بأنفسهم في ما اعتبروه مناسباً. لكن حين قام شقيقهم الأخير المتبقّي بالنظر حوله، فلم يجد خلفه ما تبقّى. لم يجد سوى ثلاث نساء يتشبّثن بخصره وينظرن إليّه مترقّبات. بلا عمل، لقد أفقرنني.

حان عندها وقت تخليص نفسي من أشباحهم مرّة واحدة وإلى الأبد. كنت أقيم عند طرف العيش. لم يكن لي حرّية القيام بما يرضيني ولا أيّ خيار آخر سوى الاستمرار في العيش. لم يعد لصون العلاقات مع أولئك الأشقّاء أيّ معنى بالنسبة لي. في الحقيقة، لم نكن يوماً أقرباء كما ينبغي. فقط حين نظروا إليّ بازدراء وهم يخطّطون لإلقاء المسؤوليّة على عاتقي - حينها فقط ربّما، كنّا أقارب حقيقيين. بعيداً عن تلك اللحظة، لم يفعلوا شيئاً سوى ملازمتي بأشباحهم وبدمائهم الفاسدة. صحيح أنّني

شاركتهم بذلك الدم الفاسد، لكنّي شعرت بأنّه إذا استطعت تخليص نفسي منهم وانغمست في الحياة، فستبرأ دمائي وستغدو دماء حياة.

منحتني تلك الفكرة قوّة متجدّدة، قوّة فاضت من مكان غير محدّد لتبلغ كلّ ركن من أركان كياني. أردت استخدام تلك القوّة كي أبدأ في أمر ذي معنى، فأحقّق الانفصال عن أشباح أقاربي وأثبت على حدّ سواء أنّني رفيق موثوق لأقاربي الأحياء. لكنّي في البداية لم أستطع تصوّر ما قد يحقّقه إنسان ضعيف مثلي.

بعدها، في اليوم الذي تلا الجنازة، كنت أنظّف الأدراج في طاولة أبي حين عثرت على ورقة منفصلة تضمّ لائحة بأسماء صبيان وبنات، نحو عشرة أسماء لكلّ من الجنسين. عرضت الورقة على أمّي وسألتها إن كان من المناسب رميها. رفعت نظرها نحوي وابتسمت بحزن.

«إنّها تعود إلى الوقت الذي كنت فيه طالباً وكانت شينو حاملاً»، قالت لي. «ألا تذكر رسالة والدك؟ قال إنّ وظيفته آنئذ ستغدو التفكير باسم لحفيده الذي سيولد. راح يفكّر ويفكّر غير أنّ هذه الأسماء كانت كلّ ما أتى به. أنت لن تحتاج إليها، أليس كذلك؟ نعم، ارمها».

أحسست بورم في حنجرتي، وحدّقت في لائحة الأسماء دون أن أقرأها في الحقيقة. كانت تلك هي اللحظة التي أحسست فيها للمرّة الأولى بأنّني أريد إنجاب طفل. سأستعير شيئاً من حيويّة شينو وأخلق سلالة جديدة كي أحقّق انفصالي عن أشباح أقاربي وعن دمائهم الفاسدة. بدا ذلك، وسط عدم جدواي وفقري، الأمر الوحيد الذي يمكنني القيام به في عزلتي، فأقدّمه لأمّي العجوز.

توجّهت باحثاً عن شينو وراء البيت. كانت جاثمة قرب البئر تغسل الثياب. وعندما وقفت خلفها هناك، أوشكت ركبتاي على الانهيار.

ناديت «شينو؟».

أجابت ملتفتة نحوي «نعم».

«لقد حان الوقت».

«حان وقت ماذا؟».

«وقت إنجاب طفل».

بدت متلهّفة. وقد اتسعت عيناها.

«سأخبرك عن هذا لاحقاً. لقد خطر الأمر لي على نحو مفاجئ».

«هل أنت جاد؟».

«طبعاً! هل سأمزح في أمر مثل هذا؟».

وعندما شاهدت ابتسامتي، استدارت شينو مرّة أخرى إلى حوض الغسيل وراحت تفرك الثياب بنشاط متجدّد. ارتفع ظهرها وانخفض مهتزّا، وراحت مياه الصابون تتطاير بعيداً وتنتشر في مساحة واسعة حتّى بلغت الأضاليا[1] المتفتّحة خلف مصرف المياه.

حسبت على نحو دقيق موعد دورة شينو الشهريّة واخترت ليلة بدت الأكثر بشراً.

بمعنى ما، تلك ستكون ليلتنا الأولى. الليلة الأولى الحقيقيّة التي نمضيها معاً على نحو طبيعي رجلاً وزوجته، وبتصميم كامل على الشروع في تكوين عائلة. لقد كبحنا نفسينا في انتظار تلك الليلة الأولى. وها هي قد وصلت أخيراً.

صلّيت من أجل طفلنا في لحظة عابرة.

منذ ذلك اليوم وما تلاه، أمضينا حياتنا في رضا مطمئن وكأنّنا أنجزنا واجباً مهمّاً. كلّ ما بوسعنا فعله كان انتظار علامة تشير إلى حمل شينو. كنت موقناً أنّها حملت. ذلك لم يكن حسّاً

(1) تعرف أيضاً بالدّهليّة، وهي نبتة طويلة ذات زهرات كبيرة جميلة.

باطنياً بل اقتناعاً راسخاً. لا أعلم لماذا كنت موقناً إلى هذا الحدّ. بدا إيمان كهذا بأفعال الجسد البشري ونزواته إلى حدّ بعيد إيماناً غير عقلاني خصوصاً أنّها لم تكن سوى محاولتنا الأولى، إلا أنّي لم أشكّ أبداً في أن الثمر الذي ستأتي به أساسه جهودنا في تلك الليلة.

للسبب إيّاه فأنا الآن أبعد نفسي عن شينو في الليل. كان يقلقني أن يؤدّي توقي لعيش متعة تلك الليلة مرّة أخرى إلى إخماد شعلة الحياة الجديدة في رحمها على نحو غير متعمّد. كي أحمي تلك الشعلة، التي كان ثمّة احتمال في ألا تكون موجودة.

أكملت شينو عملها بنشاط ومرح كما في السابق. تنكبّ بحماسة على أيّة مهمّة تقوم بها وتتحلّى بحسّ الوفاء. طاقة حياة نابضة انبثقت من داخلها ولم يكن في وجهها أيّ من ملامح الأسى الذي خيّم في بعض الأحيان على مظهرها.

في رؤيتي لها بهذا الضوء، تخيّلت أنّ شينو بات لها طاقة إحساس ذات أمومية. وكان ثمّة ما يكفي لإثبات أنّها تشاركني بذلك الاقتناع. لكنّها بين الحين والآخر كانت تأتي وتجلس بهدوء قرب مكتبي كما لو أنّها مثقلة بالشكوك. ربّما كان ذلك

طبيعيّا إذ أنّها هي من ينوء بالحمل. أحياناً كانت تبدو في هيئة حالمة وكأنّها تستمع لصوت رحمها.

«كلّ شيء سيكون على ما يرام»، كنت أقول. «فقط ثقي بالأمر وانتظري».

«نعم، لكن الأمر على ما يرام بالنسبة لك أنت»، كانت تجيب مبتسمة. «لديّ مسؤوليّة ثقيلة. لا يمكنني أن أكون غير مبالية كثيراً تجاهها». تقحم ذقنها إلى الأمام نحوي وهي تتلفّظ بالجزء الأخير من جملتها، ثمّ تقف وتمضي جارّة قدميها في خفّيها.

بعد نحو أسبوعين، ظهرت على شينو علامة التغيير الأوّلى. فقد أنزلت دماً قبل عشرة أيّام من موعد دورتها الشهريّة. جاءتني بالخبر وفي وجهها نظرة خوف؛ إذ رأت أن الحمل قد يكون مستبعداً إن أنزلت دماً. اعتقدت أنّ ذلك حتماً هو دورة في غير أوانها، وقالت إنها خبرت هذا الأمر من قبل دون إنذار مسبق. لكنّي، أنا غير الملمّ بطبيعة عمل جسد المرأة، ولهذا السبب، فقد كنت واثقاً بذاك التحوّل الذي يطرأ في الأيّام العشرة. التحوّل المفاجئ في الأيام العشرة التي تسبق الدورة المعتادة قد لا يفسّر، بالنسبة لي، على أنّه «لا انتظام» وحسب.

بعد مضي أسبوعين، ذهبنا بالسيّارة إلى الجبال كي نشاهد

ألوان الخريف مصطحبين معنا بعض التلامذة الذين تعلّمهم أختي على آلة الكوتو[1]. في طريق العودة إلى البيت أحسّت شينو بالإعياء جرّاء رائحة البنزين.

الأمر حسم الجدال: إنّها حامل. الآن عليها إخبار أمي في الأمر. لكنّها ولمزيد من الحذر أرادت أولاً الحصول على تأكيد الطبيب. فذهبنا في أحد الأيام إلى العيادة المحلّيّة متذرّعين في القيام بنزهة.

كانت العيادة قرب النهر. قررت الانتظار على جسر يقع في منتصف الطريق بين بيتنا والعيادة.

«أراك لاحقاً»، قالت شينو حين انطلقت مغادرة الجسر. «لا تغضب إن تبيّن أنّنا مخطئون».

«لن أغضب. لا تقلقي».

انطلقت شينو، عاقدة طرفي وشاحها الرقيق أمامها. عند نهاية الجسر سلكت طريقاً ضيّقة تنحدر بمحاذاة النهر، ثمّ تبعت النهر سائرة حول سفح إيناriyاما، التل الذي يعلو قمّته معبد شينتو. رحت أذرع الجسر جيئة وذهاباً ما أن غابت عن النظر، مدخّناً على نحو متواصل. وحين كانت السيكارة توشك على

(1) آلة موسيقيّة وتريّة، تعدّ الآلة القوميّة في اليابان.

لذع إصبعي، كنت أسارع إلى نفض يدي قاذفاً العقب في الهواء إلى النهر. تتبع حشرات غريبة سقوطها مثل طائرات نفّاثة. راح ذاك المشهد يتكرّر مرّة إثر أخرى. انتظرت هناك وقتاً طويلاً.

سمعت أخيراً صوت امرأة من السماء فوقي ينادي «هاي!».

نظرت إلى الأعلى مذهولاً من رؤية شينو واقفة بين الأجمات الذابلة في منتصف الطريق المؤدّية إلى إيناريياما. كانت حتماً قد سلكت الطريق المختصرة فوق التل قادمة من العيادة في الجهة المقابلة. والطريق المختصرة تلك لا تتطلّب فقط تسلّق مواضع شديدة الانحدار، بل إنّ أرضها أيضاً كانت مغطاة بجذور الأشجار. يا لها من طريق جنونيّة، قلت في نفسي.

«هاي!»، نادت شينو من جديد.

أجبتها سائلاً «كيف سارت الأمور؟».

«لقد فعلناها!» أجابت، رافعة ذراعيها في تحيّة انتصار.

«قلت لك هذا»، هتفت لها. كان بوسعي الإحساس بابتسامة تعلو وجهي. مأخوذاً برغبة في الصياح بأعلى صوتي هتفت مرّة أخرى:

«صبيّ أم فتاة؟».

بدت شينو حائرة لبعض الوقت. ثمّ وضعت يديها حول

فمها ومالت إلى الأمام كي تجيب.

«كيف لي أن أعرف!».

شرعت في الركض نازلة التل. تملّكني الذهول فأردت الصياح محذّرا، لكنّي أمسيت نفسي مبهوراً بمنظر هذه المرأة المتقدّمة في طريقها نازلة التل، وشاحها مرفرف حول رقبها، وكمّاها يتمايلان بجموح نحو اليمين واليسار، وهدب الكيمونو الذي ترتديه يخفق بعنف وهي تركض. ركضت مثل امرأة لم ترتد الكيمونو في حياتها.

لا تركضي *هكذا*! ماذا سيحدث لو وقعت؟ قلت في نفسي، فيما رحت استجمع قواي على نحو عصبي، عند منتصف الجسر.



العودة إلى الديار

بينما أشرق يوم جديد في مطلع الربيع، ألفيت نفسي ناظراً إلى الخارج من خلال نافذة القطار المتّجه شمالاً، محدّقاً في المشهد الريفي المنسحب كلّما تقدّمنا. في الخارج امتدّ سهل فسيح مترام تحت سماء رصاصيّة قاتمة حجبت طرفها القصيّ غيوم خفيضة.

كان انكشاف السهل بين الفينة والأخرى ينقطع ببقايا الثلج المتفرّقة التي، إذ رحنا نجتازها، أخذت تجتذب أشعّة الفجر الهزيلة. في زاوية من زوايا ذلك المشهد المترامي كان بوسعي معاينة الملامح الشاحبة والخافتة لوجه زوجتي الناظر إلى الأسفل.

كانت شينو نائمة في المقعد قبالتي، رأسها المتدلّي يتأرجح مع حركة القطار، في حين تعانق بذراعيها بطنها المنتفخ بشهرها

السابع. كانت قد استغرقت في النوم منذ الليلة الفائتة ما أن انطلقنا مغادرين محطّة إينو، وقد غفت طوال الليل بلا لمحة صحو واحدة. كأنّ عقلها المتعب في تلك الفترة تمكّن أخيراً من الاسترخاء متحرّراً من إجهاد الحياة اليوميّة. كنّا قد بلغنا طرف سهل سينداي. عمّا قريب سوف تبدأ الأراضي بالارتفاع والعلو، ومع حلول الوقت الذي ستكون فيه شينو قد استيقظت في النهاية، سيبدو السهل وقد غدا محاطاً بالجبال – جبل كيتاكامي من اليمين وجبل أوو من اليسار. كنّا في طريق رحلتنا عائدين إلى بلدتي عند أقصى شمال وادي كيتاكامي المديد.

إنّها المرّة الثالثة التي نذهب فيها بتلك الرحلة معاً.

كانت المرّة الأولى منذ ثلاثة أعوام عندما ذهبنا إلى البلدة كي نتزوّج. حينها، كنت لأزال طالباً، وشينو تعمل في مطعم يابانيّ صغير. لم يتسنّ لأيّ منا النوم في تلك المناسبة الأولى نظراً لاستثنائيّة الوضع وللحماسة في قلبينا التي كدنا نعجز عن كبحها. كنّا طوال الليل نتحدّث في همسات مكتومة أو نسترق ضحكات ماكرة حول أي شيء وكلّ شيء يخطر في بالنا. لم أعد أذكر ما وجدناه آنذاك مثيراً للأحاديث والضحك.

كانت المرّة الثانية بعد مضي نحو سنة على تخرّجي في الجامعة

وكنّا قد بدأنا حياتنا الزوجيّة في شقّة في طوكيو. كان ذلك في صيف العام الفائت. كنت قد تلقّيت برقيّة تقول إن والدي مريض جدّاً، فانطلقنا بسرعة إلى البلدة ولم نأخذ معنا سوى ثيابنا التي حملناها على ظهرينا. كنّا آنذاك غارقين في الفقر ولم نكن قد ادّخرنا مالاً لأحداث طارئة كذلك الحدث. فتطلّب الأمر منّا وقتاً كي نتدبّر معاً أجرة السفر. وقد مرّت أربع وعشرون ساعة بعد وصول البرقيّة حتّى تمكّنا من الوصول إلى البلدة. وبسبب توتّرنا جرّاء التأخير في الرحلة، لم يكن أيّ منّا قادراً على النوم في القطار. وصلّت شينو كي تطول حياة أبي قليلاً، في حين كنت غاضباً طوال الوقت، لأنّني كنت مقتنعاً بأننا مهما حصل سنصل متأخرّين.

لقد تمكّن الفقر من كسرنا أخيراً، ونحن نذهب الآن معاً في رحلتنا الثالثة هذه إلى البلدة. تخلّينا عن حياتنا في طوكيو كي نعود إلى بلدتي. شينو المنهكة الجسد والمثقلة بحملها، استمرّت في النوم مصدرة صوتاً لنومها – صوتاً عالياً جعلني أقلق على صحّتها. أنا في المقابل وعلى عكسها، لم أتمكّن حتّى من أن أغفو إغفاءة صغيرة. كنت أعاني الشعور بالهزيمة، متردّداً تجاه إحساس التعلّق بالحياة التي تركناها وراءنا. ولو أنّ شينو صحت

من نومها، لما كان هناك موضوع نتحدّث فيه بكل الأحوال. لن يكون بوسعنا سوى التحديق في المشهد الريفي المنسحب كلّما تقدّمنا.

ما الذي حققته في الواقع في هذين العامين الأخيرين؟

بصراحة، لا شيء على الإطلاق!

كنت أحياناً أغمض عينيّ وأكرّر هذا في رأسي متوقّعاً أن أصاب بالتعب جرّاء الرتابة، فأتمكّن لحظتها من النوم على نحو طبيعي. لكن مع اعتياد أذنيّ على إيقاع القطار، رحت أسمع صوتاً غامضاً مبثوثاً هنا وهناك في قلب ذلك الإيقاع، كصوت أوراق أشجار متساقطة تذروها الرياح. خشخشة وحفيف خشخشة وحفيف. الأمر جعل مسألة نومي مستحيلة.

كان ذلك صوت علبة بوظة فارغة جفّفتها مدفأة البخار على نحو كامل، فراحت تتحرّك إلى الأمام وإلى الخلف على إيقاع القطار. كانت شينو قد شكت من جفاف حنجرتها، فقمت بإفراغ كلّ ما في جيوبي كي أشتري البوظة قبيل انطلاقنا من محطّة إينو في الليلة الفائتة.

أكلت شينو نصف البوظة بسرعة فائقة ثمّ مرّرتها لي مع اعتذار. أخذت قضمة صغيرة وأعدتها لها. مع اعتذار آخر،

أكملت على ما تبقّى وبرفق وضعت علبة الكرتون المستديرة الصغيرة على سطح مدفأة البخار.

لم تتمكّن شينو من حمل نفسها على وضع العلبة الفارغة تحت مقعدها كما كان يفعل معظم المسافرين. لم يكن ذلك بالتأكيد صادراً عن شيء مثل توق ملحّ للحصول على المزيد؛ إذ أدركت أن عنصر انتباهها لم يكن البوظة، بل العلبة الفارغة بحدّ ذاتها. ميلها للاهتمام بأمور تافهة كهذه قد يبدو مثيراً للشفقة، لكن المؤكّد أن الأمر لم يصدر عن حاجة ملحّة في نفسها. لهذا وعلى الرغم من أنّ الصوت حال بيني وبين النوم، فقد نفرت تماماً من رفع العلبة.

بالإضافة إلى هذا، استمرّ الصوت مصدراً خشخشة وحفيفاً، خشخشة وحفيفاً. كان له طبقة صوتيّة لم يسمعها سواي، وقد بلغتني على نحو متواصل. وكان أن علقت صورة علبة البوظة الفارغة تلك في رأسي الخدر على نحو صارخ. رويداً، بدأت تتفكّك وكأنّها تتحلّل في الماء. قاعدة العلبة هي في الأصل على شكل قالب مخروطي وقد غدت الآن مجرّد قطعة كرتون دائريّة مبتذلة. القالب المخروطي انقسم على طول خط أفقي، فغدا

آنئذ قطعة كرتون مسطّحة، على شكل شبه منحرف[1]. القطعة الدائريّة والقطعة ذات الشكل شبه المنحرف كانتا متجاورتين جنباً إلى جنب، وإذ رحت أنظر إليهما بدأتا بالتضاعف. مئات وآلاف القطع تكوّمت في لحظة واحدة فوق بعضها بعضاً، وما لبثت أن كوّنت برجين عاليين. حين بلغ البرجان ارتفاعاً معيّناً، بدأا بالانحناء، ثمّ انهارا مصدرين هديراً مدوّياً وتبعثرا في كلّ زاوية من زوايا رأسي.

عندئذ وقفت شينو مشدوهة بعض الوقت، تحدّق في كمّية ورق الكرتون التي انتشرت مبعثرة على الأرض.

تدلّت صرّة ثياب جوفاء ومرتعشة من يدها على نحو مضطرب.

«عدت إلى البيت»، قالت، وأزاحت الشاشة[2] التي تفصل المدخل الصغير لبيتنا عن غرفتنا الصغيرة. إذ بقيت الصرّة المليئة بالثياب في يدها، وضعت قدماً على العتبة، ثمّ هتفت «أووب لا» ورفعت بطنها المنتفخ فوق القدم، وقد انحلّت عندها ربطة صرّة الثياب على نحو مفاجئ.

(1) شبه المنحرف: شكل ذو ضلعين متوازيين وضلعين غير متوازيين.

(2) باب ياباني يفصل بين غرف البيت وأقسامه، وهو عبارة عن شاشة تنزلق عرضيّا ذات اليمين أو ذات اليسار.

أخيراً، أطلقت شينو تنهيدة عميقة. «آه ه. لو يوجد بسكويت»، قالت كأنّها تكلّم نفسها.

كانت شينو في الرابعة والعشرين وقد مضى على زواجنا أكثر من ثلاثة أعوام. بدا مضحكاً بعض الشيء أن تتكلّم امرأة بعمرها ووضعها على هذا النحو الطفولي، إلا أنّني لم أجد سبباً على الإطلاق للضحك عليها. كانت قد نسيت ترف أكل الحلويات. بأسلوبها المعتاد، كما لو أنّ تفكيرها المتفائل نفسه أربكها. مالت شينو برأسها وأطلقت قهقهة بسيطة وراحت تجمع قطع الكرتون التي انتشرت فوق الأرض. وضعت القطع في كومتين منفصلتين واحدة للقطع ذات القواعد المستديرة وأخرى للقطع ذات أضلاع شبه المنحرف. غير أنّه كان هناك المئات من كلّ نوع وقد اختلطت القطع مع بعضها البعض. بدا الأمر يتطلّب منها البقاء إلى الأبد كي تجمعها كلّها وتصنّفها وفقا لشكلها.

«عذراً»، قالت أخيراً بصوت مرتفع وقد أرهقها الأمر، «هل تعتقد أنّ بإمكانك مساعدتي إن لم يكن ثمّة ما يشغلك؟».

كنت جالساً خلف مكتبي في زاوية الغرفة مرتدياً كيمونو مبطّناً [1].

(1) كيمونو شتوي سميك ومبطّن.

«في ماضي الأيام»، قلت لها بأسلوب صارم، «إن حملت الزوجة بطفل، كان سيد البيت ينثر حبّات الفول في كلّ أرجاء صالة البيت الكبرى كي تقوم زوجته بالتقاطها من جديد. تفعل ذلك في وضعيّة الوقوف، هل تفهمين. تنحني كي تلتقطها كلّها حبّة إثر حبّة. قد تظنين الآن أنّ الأمر خطير كونه يسبّب ضغطاً كبيراً على بطن المرأة. لكنّ في الحقيقة، وفي كلّ مرّة تنحني فيها المرأة، فإنّها تشدّ بطنها مقوّية بذلك عضلات معدتها. كما أنّ هذا التمرين يحول دون بلوغ الطفل حجماً كبيراً، ما يجعل ولادته أكثر يسراً. في مسقط رأسي، يجعلون النساء الحوامل يقمن بمسح الأرضيّات الخشبيّة في أروقة البيوت صباحاً ومساء. التمرين مهمّ في أثناء الحمل. وسيكون جيّداً لك من الآن وصاعداً، ألا تعتقدين ذلك؟».

«إذن أنت السيّد الآن؟ نعم، نعم! سيّد متدثّر بمبذله[1]!».

«أها! المبذل هذا ليس سوى مظهر خارجيّ لإنسان يحيا في الخفاء»، قلت لها، وقد وقفت أخيراً. «أنت اجمعي قواعد الأوراق، وأنا أجمع ضلوعها».

مثّلت أوراق الكرتون تلك، من الصنفين المذكورين، المواد

(1) المبذل: «روب دي شامبر»، أو ما شابه.

التي تصنع منها علب البوظة. كانت شينو تحصل عليها مرتين في الأسبوع من رجل يعيش في زقاق مليء بالبيوت المهجورة يبعد مسير نحو عشر دقائق عن شقّتنا، فكانت تجلبها إلى البيت ملفوفة بقطعة قماش كبيرة. وقد وضعت قرب النافذة طاولة صغيرة حيث انشغلت في جمع قطع الكرتون.

كان ذلك عملاً جانبيّا شرعت به شينو منذ نحو عام. «ربّما عليّ القيام بعمل ما»، قالت لي مرّة على نحو غير متوقّع أبداً، مشيحة بوجهها عمّا قرأته في قسم «الوظائف الشاغرة» بصحيفة أحد الأيّام. المدّخرات الهزيلة التي كانت معنا حين تزوّجنا نفدت وأخذ الفقر فجأة يتفرّس فينا وجهاً لوجه.

«عمل؟ أيّ نوع من العمل؟».

«حسناً، لست موقنة من العمل في بار أو مقهى. لكنّ العمل في مطعم قد يكون مقبولاً. لن يكون هناك مشكلة في ذلك».

بدت شينو واثقة باحتمال إفادتها من خبرتها في عملها القديم.

«لا تكوني سخيفة»، قلت لها قبل أن تنهي كلامها. «وإلا ما معنى أن تكوني قد تركت عملك السابق كي تتزوّجي؟ عليك ألا تضيّعي وقتك في أفكار كهذه لا طائل منها».

«لكنّي أشعر بخواء عقيم في مجرّد التجوال هنا دون القيام بأيّ عمل».

«هذا لا يهم. أنت في حال جيّدة. إذ ليس بوسعي تحمّل شروعك في الركض هنا وهناك. كما أنّني أملك بعض الأفكار الخاصة إن بلغت حالنا مرحلة اليأس. ينبغي ألا تقلقي نفسك».

لم يكن لديّ في الواقع أيّة أفكار محدّدة لانتشال مصيرنا الواهن. وفي الحقيقة، ما أن نطقت بكلمات المؤاساة الفارغة تلك، حتّى بدأ عسرنا المالي يضيق في اليوم عينه.

بمضيّ عشرة أيّام، عادت شينو إلى البيت مرتفعة المعنويّات.

«أخبار سارّة!» صاحت ما أن فتحت باب المدخل. «لقد وجدت عملاً يمكنني القيام به من البيت. وجدّته معلناً عنه في ملصق معلّق على عمود التلغراف قبالة السوق. لا أعرف لماذا لم أره من قبل. أليس هذا خبراً ساراً؟ قل إنّك ستوافق على قيامي بهذا العمل!».

كان العمل يتطلّب جمع علب البوظة.

قلت لها «انسي أمره».

«لكن لماذا؟ إنّه عمل بأجر جيّد ويمكنني القيام به من البيت متى أشاء. سيأتون ويأخذون الأوراق حين أنتهي من جمعها.

وسأحرص على عدم إزعاجك بالتأكيد. أرجوك دعني أقوم به!»

ثم شرحت لي كيف تبعت الخارطة المطبوعة على الملصق كي تصل إلى بيت في آخر زقاق، وكيف أنّها وافقت على القيام بذلك العمل.

لم أفكّر ولو للحظة واحدة أن عمل شينو الجانبي ذاك قد يجني لنا ما يكفينا للعيش. كانت الفكرة الأولى بالنسبة لي عبئاً نفسيّا، وقد حسبت أنّه من الغباء ألا تفهم هي ذلك. حتّى إنني لم أستطع حمل نفسي على الضحك من فكرتها الحمقاء عندما أخبرتني عنها. إلا أنّنا في النهاية كنّا في منتهى العوز. أيّ خيار أمامنا؟ خيارنا الآخر الوحيد كان الاستسلام للفقر. فربما من الأفضل، في هذه الحال، الانشغال بأمر والانغماس فيه كي نوقف بذلك ما هو أكثر سوءاً.

قلت لها «لا بأس إذن، سيكون الأفضل أن تحاولي. لكن فقط كي تدعمي وضعنا، هل تفهمين»؟

«بالطبع. هذا ما كنت عازمة عليه. سأتوقف عن العمل متى تطلب منّي ذلك».

في اليوم التالي، توجّهت شينو في الحال للإتيان بالمواد. بين

غرفتنا الصغيرة ونافذتنا ثمّة مساحة ضيّقة أرضها خشب، لم تكن شرفة ولا حتّى رواق. وضعت هناك طاولة صغيرة تحت النافذة وانهمكت في جمع الكرتون.

يأتي كلّ ثلاثة أيّام صاحب العمل من آخر الزقاق، وهو رجل ملتح في عقده الوسيط، كي يأخذ علب الكرتون المنجزة. يركب درّاجته الهوائيّة التي ربط في رفرافها صندوقاً كبيراً يقوم برفعه إلى الأعلى تحت نافذتنا. ثم يقرع بإصبعه على النافذة وينادي زوجتي بصوت مهذّب مناقض لهيئته. إن كان الباب المنزلق بين غرفتنا وبين مساحة الأرض الخشبيّة مفتوحاً، تسرع شينو في إغلاقه. ثمّ تفتح النافذة وتضع علب الكرتون الملفوفة في بعضها على شكل أنابيب، في الصندوق المثبّت على رفراف درّاجته الهوائيّة وهي تعدّ في أثناء ذلك «واحد، اثنان، ثلاثة..». وعندما تنتهي، يعاود الرجل ركوب درّاجته هاتفاً «يا له من يوم جميل!» عندما يكون الطقس مشمساً، أو «إنّنا بحاجة ماسّة إلى هذا المطر!» عندما يكون الطقس رطباً. ثمّ يكمل جولته إلى أربعة أو خمسة بيوت أخرى جامعاً علب الكرتون بالطريقة عينها.

بدأت شينو العمل في مطلع الربيع. ومع اقتراب الصيف، أخذ الرجل يأتي لجمع علب الكرتون كلّ يومين، وفي بعض

الأحيان كلّ يوم، فيقرع النافذة بإصبعه كما يفعل دائماً وينادي «مرحباً! كيف تجري الأمور؟».

«أنا آسفة»، كانت شينو تجيبه، «لم انته بعد. الحال ليست بهذه السوء، لكن هناك أموراً أخرى كثيرة ينبغي القيام بها».

«صحيح؟ لم يعد لديّ كرتون كما ترين، لهذا أنا بحاجة ماسّة إلى بعضه. كم بقي لديك ممّا لم تنجزيه بعد؟».

«آه، نحو سبعين أو ثمانين، أظنّ».

«حسناً، هل لك أن تسلّميني ما أنجزته حتّى الآن؟».

«هل أنت جاد؟ حسناً، هل تفي هذه بالغرض؟».

«أجل، هذا جيّد».

وعندما رحت استمع لكلامهما من خلف الباب المنزلق، بدا لي ذلك أشبه بحوار بين كاتب شهير وناشره.

«أنت شهيرة»، قلت لشينو في نصف تهكّم ونصف مزاح بعد مغادرة الرجل.

«هذا ما يبدو»، أجابت شينو ببراءة. «والأمر يؤلم الأصابع».

استدارت إلى الطاولة الصغيرة وعاودت الانهماك في جمع الكرتون.

سرعان ما أصبح ما جنته شينو من ذلك العمل مصدر دخلنا الوحيد. كنّا في أحسن الأحوال نستخدم المال المذكور كي نسدّد إيجار شقتنا، فيوشك على النفاد. ولحسن حظنا، كان صاحب الملك يسمح في تأخّير دفع المستحقّات ما أتاح لنا على ذلك النحو الاقتصاد في عيشنا. صاحب الملك ذاك، الرجل الطيّب المنغمس في التجارة، كان أيضاً من توهوكو. «آه ه، ما من مشكلة. المال يأتي ويذهب»، كان يقول. «كلّنا أحياناً نمرّ في فترات صعبة. سدّدوا عندما تتمكّنون من ذلك».

كلّما ازدهر عمل شينو، ازداد رأسي اضطراباً. فلم يكن الأمر سيّئاً إلى هذا الحدّ عندما ظلّت ثقتي بنفسي موجودة، لكن عندما يلفّني إحساس غير الواثق، فإنّه يغرقني في التعاسة. كي تثبّت شينو قاعدة علبة بوظة من كرتون، كانت تضع قطعة القاعدة أوّلا على لوح هو عبارة عن قالب، ثمّ تضع القطعة المخروطيّة فوقها وتنقرها برفق بواسطة راحة يدها. راح صوت النقر ذاك يصفعني على نحو حاد. تجمع شينو العلب المنجزة، بعضها داخل بعض، في شكل أنابيب طويلة وتسندها عموديّا في إحدى زوايا الغرفة، جاعلة تلك الأنابيب تبدو كأقلام رصاص عملاّقة. في إحدى المرّات، تراءى لي أنّ غابة أقلام الرصاص

هذه كانت توبّخني جرّاء كسلي ساخرة من انعدام جدواي، وحاثّة إياي على الكدح في العمل. «أوقفي صوت النقر هذا!» أردت أن أصرخ. إلا أنّنا كنا سنفقد مصدر دخلنا الوحيد إن أوقفت شينو تلك النقرات. راح رأسي يضجّ بالغضب. كان أمراً يفوق الاحتمال، فاندفعت إلى الخارج.

جاورت شقّتنا قناة إسمنتيّة كانت تمرّ عبر ضواحي منطقة يامانوتي. سرت خلف البيوت على طرف القناة، ثم فوق جسر وصعوداً في طريق ضيّقة عبر أجمة من نباتات الخيزران[1] نحو قمّة تلّ حيث انتصبت بعض منشآت الجيش في وقت سابق. من هناك، أمكن لي رؤية المنطقة بأسرها حول شقّتنا. أمكن لي رؤية نافذتنا. انثنيت على جذع شجرة كرز عند طرف التلّ ودخّنت سيجارة على مهل ناظرا إلى الأسفل نحو نافذتنا.

انتقلت إلى تلك الشقّة في الربيع الذي سبق عامي الأخير في الجامعة. قبل ذلك كنت قد عشت في المساكن الطلابيّة، ثمّ قصدت هذه المنطقة كي أجد غرفة أكثر هدوءاً يتسنّى لي فيها إنجاز أطروحة التخرّج. ذهبت لزيارة صديق يعيش في هذا الجوار، وقد اصطحبني لمقابلة سمسار عقارات كان يعرفه. بعد

(1) Bamboo.

أن استمع منّي السمسار إلى المواصفات التي أرغب فيها قال إنّ لديه مكاناً مثالياً لي وقادنا إلى بيت لاصق الورق قرب القناة.

كان بيت لاصق الورق مؤلّفاً آنذاك من بناء صغير ذي طبقة واحدة. فبالإضافة إلى الأقسام العائليّة في بيته، لم يكن لديه سوى غرفة صغيرة يعرضها للإيجار. كان للغرفة رواق صغير في إحدى جهاتها ونافذة صغيرة في جهتها الأخرى. حين تفتح النافذة يمكنك رؤية القناة وخلفها التلّ الذي تغطيّه أجمة من نباتات الخيزران.

أعجبتني سكينة المكان أكثر من أيّ شيء آخر فقرّرت في الحال استئجار الشقّة. لكن وقبل أن أسلّمه العربون النقدي، قال صاحب الملك إنّه يودّ رؤية بطاقة باسمي. كان واضحا بأنّني لا أملك شيئاً من ذاك القبيل كوني لست سوى طالب فقير. فقام سمسار العقارات آنئذ بانتزاع ورقة من دفتر ملاحظاته طالباً منّي كتابة تفاصيل شخصيّة عن نفسي عليها، عوض بطاقة الاسم. كتبت في البداية عنوان منزلي في مقاطعة أيوموري.

«أنت من أعلى الشمال، أليس كذلك؟ حسناً، يمكنك الوثوق دائماً بالشماليين»، قال وهو واقف إلى جانبي في ما بدا محاولة لطمأنة صاحب الملك.

ثمّ كتبت إنّني أدرس في جامعة واسيدا. التفت السمسار إلى صاحب الملك. «كن شاكراً كونه ليس في جامعة هوسيي[1]»، قال له. «هناك هم كلّهم محامون. هم يحاولون دائماً العثور على ثغرات في العقود ولا يصدر منهم سوى المتاعب».

أخيراً، عندما كتبت أنّني أدرس الأدب الفرنسي بدا سمسار العقارات مثاراً على نحو إيجابي. «أووه، انظر! الأدب البوذي»، قال. لم أستطع سوى التفكير في أنّه أخطأ على نحو غير مقصود في قراءة كلمة فرنسي بالأحرف الصينيّة، إذ إن الأحرف عينها تستخدم أيضاً لكتابة كلمة بوذي. قال، «سوف تصبح راهباً عندما تعود إلى الشمال، أليس كذلك؟ لم تخيّب ظنّي أبداً – يا لك من شاب جادّ راجح الذهن». اعتقد الرجل حتماً أن البوذيّة توحي بالجدّ أكثر من الأدب الفرنسي.

هكذا جئت للعيش في هذه الشقّة. قبلها كنت قد تزوّجت شينو في مطلع ذلك العام، لكنّي فضلت العيش متباعدين ريثما أتمكّن من إنهاء أطروحتي. حجبت النافذة بستارة خضراء كانت شينو قد خاطتها لي وعشت هناك وحيداً طوال عام. عندما قدم صديق لزيارتي في إحدى المرّات رافقته حين غادر في المسير إلى

(1) Hosei.

محطّة تراموای تاماغاوا القريبة، وفي طريق عودتي إلى البيت، سلكت الطريق العابرة فوق التلّ. وقد لاحظت من هناك في الأعلى كم بدت تلك الستارة شديدة الخضرة. سادني إحساس بالنضارة آنذاك، تماماً مثل الستارة. كنت استعر أملاً، وكنت مفعماً بالنشاط على الرغم من الفقر.

الآن؟ دون إجهاد نظري، لم يتسنّ لي حتّى معرفة أين تقع نافذتنا – والأمر لم يسببه ازدياد عدد النوافذ عمّا كان عليه في السابق.

بعد انتهائي من الجامعة، عدت إلى البلدة بعض الوقت، ورجعت مصطحباً شينو بعد أشهر قليلة. في تلك الأثناء، كان بيت لاصق الورق قد صار مبنى كبيراً من طابقين بجدران من جصّ أقفلت على شقّتنا من إحدى جهاتها على نحو كامل. لا، لم يكن ذلك هو السبب. فالستارة بحدّ ذاتها كانت قد أضحت آنئذ خافتة وباهتة وغدت بلون الحشائش الذابلة. ثمّ لمزيد من السوء، فقد لطّختها هنا وهناك بقع متعدّدة الأشكال جاءت بفعل الرياح والمطر المتسلّلين عبر شقوق في النافذة. غدت الستارة مهلهلة تماماً وإن شدّت ولو شدّة خفيفة، لتشقّقت وتمزّقت بلا ريب. تماماً مثل، تلك الستارة، أصبحت عندها رثّاً وفقيراً.

تخرّجت في الجامعة غير أنّني بقيت بلا عمل. جلست خلف طاولتي أكتب في كلّ يوم، لكنّ قصصي التي كتبتها لم تؤدي إلى تحصيل أيّ دخل أبداً. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن لديّ أيّة رغبة في ترك مكتبي كي أذهب وأبحث عن وظائف مدعّماً بإعلانات الصحف أو ما شابه. لم أفقد وميض الأمل على الإطلاق في أنّ القصّة التي كنت أكتبها في تلك الفترة قد تأتي بالنجاح، وهذا ما أبقاني مقيّداً في طاولتي. إذا كتب لهذه القصّة الفشل، فستقودني خيبة أملي المطلقة إلى كتابة قصّة ثانية. وإذا فشلت القصّة الثانية، فسأعاود البدء بعناد من جديد.

لقد كنت مثل بغل يجرّ إلى الأمام بواسطة حبل غير مرئي. ربّما أجرّ إلى المسلخ. لا يسعني بالتأكيد تعيين الوجهة التي أجرّ إليها، لكنّني تابعت خطوي إلى الأمام. لم أرغب في التوقّف، ولم أشدّ الحبل إلى الجهة المعاكسة. إذ إنّ للبغل في النهاية كبرياءه.

بدا جوارنا المتواضع ذاك في الحقيقة فخماً لشقيق شينو وشقيقتيها في توتشيغي حين جاؤوا لزيارتنا بالتناوب. وهؤلاء إذ افتقدوا أمّهم وأباهم كانوا على الأرجح قد اعتبرونا بديلين لهما. اعتبرني شقيق شينو الأصغر وشقيقتاها الصغيرتان «أخاهم الأكبر»، اللقب الذي حصلت عليه عبر زواجي من شقيقتهم

الكبرى. إلا أنّني بوصفي شقيقاً أصغر بين ستّة أبناء، إضافة إلى فارق السن الكبير بيني وبين إخوتي الخمسة الآخرين، فقد كنت قد كبرت دون معرفة معنى أن يكون للمرء إخوة.

بالإضافة إلى التسلية الكبيرة المتأتّية من اعتباري «الأخ الأكبر»، فقد شعرت ببهجة غير معتادة في القرابة منهم. يفيض داخل شقتنا الرتيبة على نحو مفاجئ بإشراق نور مبهج كلّما أتوا لزيارتنا.

كانامي شقيق شينو يبلغ الواحدة والعشرين من عمره وهو يمتهن صناعة المكانس. كان شاباً بسيطاً وصادقاً - وذاك كاد يصل إلى درجة الإزعاج. ارتدى على الدوام ثياباً فضفاضة وبدلة زرقاء سماويّة للزيارات، وبوجهه الذي يشبه وجه تلميذ جادّ كان يمتحنني في أسئلة عن توافه أمور محيّرة طالما أربكتني. «هل فعلاً يمكن أن تموت لو أكلت تبغاً؟ كان يسأل، أو «هل العفاريت موجودة فعلاً؟».

في إحدى المرّات أبرز لنا مغلّفا زهريّ اللون باهتاً. «لقد تلقّيت هذه الرسالة»، قال مبتسماً ابتسامة عريضة. «ما الذي ينبغي لي فعله؟» فتحت المغلّف. كان يضمّ كلمات أغنيّة معروفة عن الغرام الأوّل، إضافة إلى أرقام كتبت إلى جانب المقاطع

الشعريّة. وفي ذيل الرسالة: «هذه الأغنية تعبّر عن مشاعري تجاهك. من أيكو».

كانت الكبرى بين الشقيقتين، سايوكو، قد أنهت مدرسة المرحلة المتوسطة قبل ثلاثة أعوام، وهي الآن تمارس عمل البيت الروتيني عند أقاربها في توتشيغي إضافة إلى مساعدتها لشقيقها في صناعة المكانس. كانت ذات طبيعة مرحة إلى أقصى حدّ، وصوت جهوري - من الأنسب القول في الحقيقة إنّها تذيع أكثر ممّا تتحدّث. «لن أتزوّج أبداً» هي جملتها الآسرة. عملت سايوكو بكدح وتمثّل طموحها الوحيد بادّخار المال الكافي كي يتسنّى لها افتتاح متجرها الخاص لبيع حساء الفول السكّري، شيريكو.

كانت الشقيقة الصغرى تامي في عامها السادس في المدرسة الابتدائيّة. فتاة خجولة في طبيعتها، لها عادة عصبيّة كلّما تحدّثت مع شخص من الأشخاص تتمثّل في لكز الأخير بأصابعها. ربّما هدّأ الأمر من روعها، إذ كان لسانها يعقد إن عجزت عن فعل ذلك. طعامها المفضّل هو كروكيت[1] البطاطا وكعكات الرز المحشوّة بهريسة الفول.

---

(1) كتلة من لحم أوسمك مفروم تكسى بالبيض وتقلى بالسمن.

كان كاناني في العادة يأتي بمفرده، أمّا سايوكو فقد أتت على الدوام جارّة تامي معها. كانوا يمكثون عندنا يوماً أو يومين ثمّ يغادرون بعد أن يكونوا قد أثاروا هواء شقّتنا الخدر. في زياراتهم، طرحت على الدوام السؤال إيّاه كلّما أقبل المساء. «كاناني (أو سايوكو، أو تامي)؟ ماذا تحبّون على العشاء هذه الأمسية؟ لا تخجلوا. قولوا صراحة ماذا تحبّون؟».

لم يكن موقفي المتأنّق ذاك يخلو من رغبة دفينة في التباهي بسلطتي بوصفي «الأخ الأكبر». كان ذلك لأنّني أردت على الأقل تحويل مائدة المساء إلى مناسبة مبهجة. لقد تركتهم شقيقتهم الكبرى وهم بأعمار يافعة كي تأتي للعيش معي، وإذ نظرت إليهم وهم جالسون هناك قبالتي لم أستطع تحاشي إحساس بالذنب مصدره أنّني كنت من سرقها منهم. لم أجرؤ بالطبع على اعتبار الأمر قابلاً للتصحيح بمجرّد عشاء واحد. لكنّ في ظلّ أوضاعي الراهنة فإن ذلك هو أفضل ما بوسعي عمله بين فينة وأخرى.

بعد سؤالهم عن طلباتهم كنت أجري حساباً لمقدار المال المطلوب وأختار بضعة مجلّدات من مكتبتي. «أنا خارج كي أتمشى قليلاً»، أقول. «لن أطيل غيابي. لنذهب جميعاً فيما بعد إلى الحمّام العمومي».

ثمّ أتبادل النظرات مع شينو وأمضي خارجاً. وعندما أصير في الخارج كنت أسرع في طريقي إلى مركز التسوّق المحلّي.

أحد المحال هناك متجر كتب مستعملة يدعى كونوجي شوبو. قصدت على الدوام ذلك المتجر كلّما أردت بيع الكتب. صاحبه شاب بارز الجبين ووسيم الملامح، تواجد في العادة بالطابق العلوي، في حين جلست خلف طاولة البيع في الطبقة الأرضيّة امرأة نحيلة مقوّسة الحاجبين بدا واضحاً أنّها زوجته. حين كنت آخذ كتباً كي أبيعها هناك كانت المرأة تنحّي ستارة النورن[1] جانباً وتنادي على الطابق العلوي. ثم يصدر الدرج صريراً إذ يطوءه الرجل نازلاً. مع تكرّر الأمر، رحت أشعر بشيء من الحرج لرؤيته، لكنّه إذ يراني يهزّ رأسه في إشارة إلى أنّه عرفني ويبدو أكثر حرجاً بدوره.

منذ المرّة الأولى التي قصدت بها ذلك المكان كي أبيع الكتب، تخيّلت بافتراض يقينيّ أنّه مثلي أيضاً بغل يتمّ جرّه قدماً بواسطة حبل غير مرئي. لم تسبق لي رؤيته جالساً خلف مكتبه، لكنّ إحساسي كان قويّا في أنّنا روحان شقيقتان. كنت موقناً أنّ

(1) ستائر يابانيّة تحوي نقوشا تقليديّة وتغطّي الأبواب الجرّارة والنوافذ، أو تستخدم فواصل متحرّكة بين أقسام البيت.

له في غرفته بالطابق العلوي مكتباً يجلس خلفه من الفجر حتّى الغسق ويكتب القصص القصيرة تماماً كما أفعل. عندما تناديه زوجته، يضع قلمه على الطاولة وينهض عن كرسيه. سرعان ما غدت هذه الصورة المتخيّلة واقعاً راسخاً، إذ رأيت في أحد الأيّام وهو نازل السلّم آثار حبر على أصابع يده اليمنى.

ليس فقط من خلال إحساس قرابتنا الصامت، بل أيضاً من نوع الكتب التي أخذتها إلى هناك، فهو عرف حتماً كلّ شيء عنّي قبل معرفتي أيّ شيء عنه. كتبي من نوع مضى زمانه وندر حظّه في إيجاد من يشتريه، لكنّه دائماً يشتريها بأسعار عبثيّة الارتفاع ربّما نتيجة شعوره الودّي تجاه عاشق كتب يشبهه.

الأسعار التي دفعها زادت نصف ضعف على ما عرضت دفعه المتاجر الأخرى. وكنت إذ أقبض المال أشعر بالشكر والتعاطف على حدّ سواء.

أقول «حسناً، شكراً لك».

ويجيب «شكراً جزيلاً لك».

بعد تبادل بسيط للتحيّات أغادر المتجر.

شعرت أحياناً أنّنا أصبحنا في غاية القرب، فوددت الجلوس وتبادل حديث قلبيّ معه، لكنّني خشيت عندئذ من أنّ يؤدّي

الأمر إلى قطع دراساته. بالإضافة إلى هذا، وبالنسبة لنا بوصفنا بغلين فخورين، أن يقدّم أحدنا نفسه إلى الآخر كاد يكون خطأ، الأمر الذي جعلني أغادر دائماً دون إضافة أيّ شيء.

على هذا النحو، أخذت الفراغات في مكتبتي تتّسع تدريجيّا حتّى لم يتبقّ في المكتبة مع اقتراب الصيف سوى بضعة مجلّدات قليلة. وتعيّن عليّ بيع هذه الأخيرة بعد فترة قصيرة كي أوقف الألم في أسنان شينو.

في طريقي إلى مكتبة كونوجي للمرّة الأخيرة، قلت إنّني سأترك صاحب المكتبة هذه المرّة يقرّر الأسعار وذلك كيلا أفرض عليه ضغطاً ليس ضروريّاً. ثمّ قلت له، «في الحقيقة، إنّها آخر ما تبقّى لديّ. أشكرك لشرائها كلّها، فقد ساعدتنا في الواقع كثيراً. الآن هل لي أن أطلب منك معروفاً؟ هل لك إن كان هذا ممكناً وضع كتبي في أبعد مكان بآخر المكتبة؟ فأنا آمل أن أكون قادراً على شرائها مرّة أخرى في المستقبل».

بدا إعلامه ذاك بأنّني آمل في إعادة شراء الكتب مرّة أخرى طريقة مثلى لمكافأته دون صخب على ودّه غير الصاخب.

كان الباب الزجاجيّ مقفلاً عندما بلغت المكتبة، وكذلك الستارة خلف الباب. وقد أشارت لافتة معلّقة هناك إلى أنّ المكتبة

لن تفتح اليوم. آنئذ، رحت أفكّر خائبا بمعاودتي المجيء في اليوم التالي، لكنّ ألم أسنان شينو كان قد بلغ أقصاه ما جعلها عاجزة عن النوم على مدى ليلتين أو ثلاث. تجاوزت شينو في حينها قدرتها على الاحتمال. وعلى الرغم من استيائي من عدم تمكّني من بيع آخر كتبي لمكتبة كونوجي، أرغمت نفسي على التوجّه إلى متجر آخر حيث بعت الكتب بسعر بخس قبل عودتي إلى البيت.

أخذت محتويات خزانة شينو بدورها وجزء من جهاز عرسها تتناقص شيئاً فشيئاً. وتزامناً مع فراغ مكتبتي الكامل، غدت الخزانة أيضاً خاوية تماماً. راح مجرّد الخطو على الأرض قربها يهزّها على نحو عنيف، فتجلجل رفوفها كلّها في وقت واحد.

كنت أنا من أقنع شينو ببيع أغراضها مبقياً لها مهمّة نقل الأغراض المباعة تلك إلى المتجر. وقد طوّعت نفسها للمهمّة المذكورة على أمل التخفيف من عبء الرهن. كان قد بقي لشينو عدد من الكيمونو من مهنتها السابقة. أخذت كلّ واحد منها على حدة ولفّته برفق بثوب فوروشيكي[1]. وعندما بلغت محلّ الراهنين، توقّفت على نحو مفاجئ وتنشّقت رائحة العتق التي

(1) قماش ياباني تقليدي تلفّ به الأغراض والهدايا.

تنبعث من رزم الثياب، ثمّ خطت لحظتها داخل المتجر مشيحة ستارة النورن بمقدّمة رأسها.

أخيراً عندما لم يتبقّ لدينا أيّ شيء وصلت من الديار البرقيّة التي أبلغتني بمرض أبي. على نحو ما، تدبّرنا معاً ما يكفي من المال للذهاب، لكن ما استطعنا تدبيره ذاك لم يكن كافياً سوى لتخطيط رحلة الذهاب إلى البلدة ليبقى أمر العودة إلى طوكيو بمنأى عن قدراتنا.

توفّي والدي وبقينا في منزل العائلة مئة يوم. لم يكن لدينا أيّة مشاغل ضاغطة محدّدة في طوكيو. كما أن حزن أمّي وشقيقتي كان أكبر من أن يجعلنا نفكّر بمغادرة قريبة.

حبلت شينو ونحن هناك. لم يكن هذا خطأ في تعيين دورتها الشهريّة بل أمر خططنا له في الحقيقة. الإقدام طوعيّاً على قرار مثل هذا في ظلّ ما تعانيه حياتنا من عوز قد يبدو أمراً مفتقرا إلى الحكمة، غير أنّني كنت على الدوام إنساناً يحاول أموراً تبدو هكذا مفتقرة إلى الحكمة وفي غير أوانها، فأبدأ بها فصلاً جديداً من حياتي. «عرسي وأنا طالب» هو أحد الأمثلة على ذلك. مثال آخر هو حياتي في طوكيو في ظلّ الفقر والبطالة. والآن رحت أخطّط لإنجاب طفل. كان نجاح هذا الأمر المذكور أو

فشله في المرتبة الثانية من الأهميّة. وكان وجوب الإقدام عليه في المرتبة الأولى. عندها، اختبر امتلاء الحياة وأنا سائر بها. كان ذلك بالنسبة لي السبيل الوحيدة المحتملة للعيش. تعذّر عيشي على ذلك النحو أشعرني بالعجز عن الهرب من القدر البائس المطبوع في سلالتي الدمويّة.

أعطتني أمّي نصف مال عزاء أبي، العطايا الماليّة التي تركها المشاركون في الجنازة. انتظرت تبدّد ألم شينو الصباحي ثمّ مضينا إلى طوكيو من جديد في نهاية شهر تشرين الثاني.

بعد يومين من عودتنا إلى طوكيو، ذهبنا في نزهة نادرة إلى مركز التسوّق المحلّي. فكلّما امتلكنا بعض المال شعرنا بإلحاح غير منطقي لتبديده على الفور، ربّما بسبب اعتيادنا على الحياة في ظلّ الفقر. بين الأشياء الكثيرة التي أردنا الحصول عليها، أمتعنا التردّد حول ما ينبغي لنا وما لا ينبغي لنا شراؤه. شارف المبلغ النقدي الذي عدنا به من الديار على النفاد جرّاء تسديدنا الدين الناشئ من تدبّرنا ما لزم لرحلة الذهاب إلى البلدة. لكنّ مبلغاً بسيطاً كان قد بقي لنا.

قررنا إنفاق المبلغ المتبقّي ذاك على هدايا يقدّمها أحدنا

للآخر، إذ يشتري كلّ منا شيئاً اعتبر أنّ الآخر هو أكثر حاجة إليه. ولأنّ المحفظة عينها هي مصدر المال جميعه، فإنّنا لم نضطرّ إلى محاكاة تلك العادات البرجوازيّة الموحية بأنّ لكلّ منّا مورداً ماليّاً منفصلاً. على أنّ الفقر المدقع زاد من صعوبة اختيار ذلك الشيء الذي كان واحدنا يحتاج إليه أكثر من الأشياء الأخرى.

اشتريت لشينو وشاحاً صوفيّاً. فعمّا قريب سوف تهبّ الرياح الباردة، فقد كان عنقها من الخلف بارداً على نحو فظيع، إذ لم يكن لديها معطف وكانت تعقد شعرها في أعلى رأسها.

أهدتني شينو زوجاً مدعّم القاعدة من صندل غيتا[1] الخشبي. إذ كان زوج الصندل القديم الذي أملكه قد بلي تماماً فتعذّرت معرفة إن كان مرتفعاً عن الأرض من قبل أم لا. دوسي فوق الحصى في الطريق جعله يلتوي مثل الخشب الرقائقي[2].

في متجر بيع صنادل الغيتا جعلتني شينو أختار الزوج الذي أريده. اخترت زوجاً يبدو متيناً ومكسوّاً بقصب البامبو. سألتني شينو بعد تسديد ثمنه إن وددت ارتداءه في الحال.

«نعم ربّما أفعل هذا»، أجبتها. «ففي هذه القديمة أشعر كأنّني

(1) حذاء ياباني تقليدي مصنوع من خشب، و يرتدى خارج البيت. هو يجمع في مواصفاته بين القبقاب وشبشب الـ «فليب فلوب».

(2) خشب مصنوع من طبقات رقيقة مغرّاة.

أسير على الجليد. إنّها تضيّق على أصابعي».

أشاحت شينو بوجهها عنّي وقامت بالبصق على نعليّ الصندل الجديد دون أن يراها أحد، ثمّ استدارت نحوي وسلّمتني إيّاه.

قالت «إنّه لك».

يا له من شيء غريب قامت به، فكّرت في نفسي حين ارتديت صندلي الجديد وخرجت من المتجر.

سألتها ونحن في الخارج «لماذا بصقت عليهما؟».

«إنّها رقيّة سحر!»، أجابت على نحو مسرحي ثمّ أخفضت نظرها وراحت تقهقه.

«أيّ نوع من الرقى هذه؟!».

«إنّها تقيك من العلاقات الغراميّة!».

بينما وجهها احمرّ، استمرّت في الضحك.

«يا إلهي، إنّها تؤرّق النساء أليس كذلك؟» قلت لها بابتسامة ساخرة. «إذ حتّى مع زوج حاله مثل حالي مازلت عاجزة عن الشعور بالأمان. ما الذي قد يلفت نظر النساء إلى رجل معدم مثلي؟!».

أجابت، مسرّعة خطاها «لا تسعى جميع النساء إلى المال كما تعرف».

«حقّا؟».

«منهنّ من لا تهتمّ بأمر مثل هذا. النوع المذكور من النساء هو الذي يخيفني».

عاودت تسريع خطاها مرّة أخرى.

أكملنا في ذلك المزاج حتّى بلغنا واجهة مكتبة كونوجي. أو هكذا اعتقدت - إذ أن الأمر كان وهماً على الأرجح لأنّه لم يكن هناك مكتبة كونوجي. ربّما هي أبعد قليلاً إلى الأمام. نظرت حولي بقلق ونحن مكملين في طريقنا حتّى بلغنا آخر المحال، لكن مكتبة كونوجي لم تظهر في أيّ مكان. استدرنا وعدنا أدراجنا إلى المكان السابق حيث كنا اعتقدنا أنّها هناك. في المكان المذكور كان ثمّة متجر لبيع الفساتين يدعي «شارم.»[1]

«شيء مضحك - أنا موقن أنّها كانت هنا. سأذهب وأسأل». لا أعرف إن قلت ذلك لشينو أم في قلبي، لكنّي سرعان ما ألفيت نفسي دافعاً الباب الجديد والرشيق لمتجر الفساتين كي أفتحه هامّاً بالدخول».

«من فضلكم؟» قلت بصوت عال. «أرجو ألا يزعجكم سؤالي، لكن ألم يكن هذا المتجر في السابق مكتبة تدعى

(1) Charme.

كونوجي؟».

كانت هناك امرأة ترتدي ثوبا أسود تقف مكتوفة الذراعين متأمّلة في مانوكان عار في آخر المتجر. التفتت كي تنظر إلي.

«أجل»، قالت، «سمعت بهذا».

«إذن هل انتقل مالكاها إلى عنوان آخر؟».

«لا أعرف كثيراً عن هذا الأمر في الحقيقة»، قالت. كانت ترتدي خفّاً منزليّا من الفرو، وبدت حين مشت صوبي على مهل كأنّها تقيس أرض المتجر بخطواتها في حين بقيت ذراعاها مكتوفتين. «لكنّي سمعت أنّهما أقفلا المكتبة ومضيا عائدين إلى القرية».

«ماذا؟ عادا إلى القرية؟» قلت معلياً صوتي على نحو غير متعمد من شدّة المفاجأة.

«آه، جئت مطالباً بالمال، أليس كذلك؟» سألت المرأة مسيئة فهم مقاصدي. «حسناً، أنت لست الأوّل على أيّة حال. يبدو أنّهما اختفيا في ليلة واحدة على الأكثر. لقد أرسلت جميع من جاؤوا قبلك إلى صاحب الملك. إن أردت عنوانه..».

«لا، هذا يكفي. شكراً لك».

توجّهت إليها بانحناءة عاديّة وخرجت مسرعاً.

«ماذا قالت؟ سألت شينو.

أجبتها «قالت إنّهما أقفلا المكتبة وذهبا إلى بلدتهما».

«ذهبا إلى بلدتهما؟ إلى أين؟».

«إلى القرية طبعاً».

حين قلت هذا أحسست بنسمة جليديّة تعصف في كياني. رفعت شينو نظرها نحوي وحدّقت فيّ قليلاً بعينين واسعتين، ثمّ طرفت بعينيها وأشاحت بهما عنّي.

«ربّما كان العمل خفيفاً»، أكملت كلامها.

«أعتقد ذلك. وهذا بالتأكيد لم يكن سببه أنّهما دفعا ثمن كتبي غاليا؟».

«بالتأكيد لا..».

لم يكن هذا هو السبب بالتأكيد. غير أنّ الأمر لم يوقف الكرب الذي ألمّ بي.

حتماً، لقد أبعد الزوجان كونوجي عن طوكيو تحت ضغط الديون. لم يكن بوسعي سوى الإحساس بعلاقتي في الأمر. تذكّرت الزوج الشاب بوجهه المتّقد ذكاء- «شقيقي الروحي»- وزوجته النحيلة بحاجبيّ عينيها المقوّسين. كان لديهما مكتبة محترمة عملا فيها بكدّ معاً، لكنّهما مع ذلك أجبرا على العودة

إلى القرية. في هذه الحال، أيّ فشل قاس ينتظرنا؟ نحن لا نملك متجراً يحيي آمالنا بدخل معقول وكنّا معتمدين تماماً على عمل شينو الجانبي البسيط. بالإضافة إلى هذا، كانت شينو قد بلغت المراحل الأخيرة من حملها، وكان دخلها الذي جنته من تركيب علب البوظة وجمعها آنئذ قد تراجع كثيراً حين حلّ الشتاء علينا. غدت الشوارع الشتائيّة أكثر برداً إذ رحت أفكر في تلك الأمور.

المصير الذي بلغته مكتبة كونوجي أرخى بظلاله على أيّامنا المقبلة.

في أحد الأيّام مع اقتراب نهاية العام أقبلت إلينا سايوكو، شقيقة شينو، في زيارة مفاجئة. كانت ترتدي معطفاً أحمر قصيراً وصندلاً، وقد جاءت بيدين فارغتين.

«هل جئت بمفردك؟» سألتها شينو. «أين هي تامي؟».

«أنا بمفردي!» قالت مقهقهة، ثمّ مالت وانحنت أمامي انحناءة خفيضة. «أهلا بعودتكما إلى طوكيو! العام الجديد اقترب الآن!».

كانت تلك كلمات تودّد غير ملائمة تماماً تصدر من فتاة في

الثامنة عشرة تتلفّظ بكلام أكبر من عمرها. نظرت إلى شينو على نحو تلقائي لكنّ شيئاً لم يصدر عنها سوى وقوفها هناك متجهّمة تحدّق بشقيقتها.

«أجل، لقد عدنا الآن. شكراً لمساعدتكم لنا حين كنّا بعيدين عن طوكيو»، قلت ممازحاً وآملاً في تحويل كلام التودّد الفضوليّ ذاك إلى ضحك.

«ما من مشكلة»، أجابت. «المال شحيح بالتأكيد هنا في طوكيو، أليس كذلك!» قالت عاقدة حاجبيها على نحو ما يفعل الكبار ربّما جواباً على مزاحي. تصرّفاتها عندئذ لم تعد تصرّفات فتاة مراهقة.

«سايو!» صاحت شينو غاضبة. بدت كأنّها أحسّت بانفلات أمر ما من عقاله ولم يعد بالإمكان السكوت.

«ماذا؟».

«أنت تعملين في طوكيو، أليس كذلك؟».

هزّت سايوكو كتفيّها ومدّت لسانها هازئة.

«صحيح!».

«أين؟».

«في مكان يدعى أنكل كاتسوس. في إيكي بوكورو.».

«أنكل ماذا؟».

«قلت أنكل كاتسوس! إنّه مطعم تونكاتسو[1]»، قالت مبتسمة.

«تماماً كما اعتقدت..». قالت شينو وسقطت فوق بساط التاتامي[2]. لقد أعياها الكلام ورفعت نظرها صوبي تطلب المساعدة.

«لماذا مطعم تونكاتسو من بين كلّ المطاعم؟»، سألتها بلطف. كنت مذهولاً بدوري لكنّي ضحكت وكأنّ شيئاً لم يكن.

«حسناً..». راحت سايوكو تجهد نفسها إذ بدأت تشرح.

في أحد أيّام شهر أيلول قالت لها جارتها في توتشيغي، وهي امرأة في منتصف العمر، إنّه من العبث قيام شخص مثلها تخرّج في المدرسة الثانويّة في العمل مساعداً لصانع مكانس. وقد سألت المرأة سايوكو إن كانت تودّ الذهاب للعمل في طوكيو. ولئن بدت تلك المرأة طيبة، أجابتها سايوكو أنّها قد تفعل هذا إن لم يمانع كلّ من شقيقها وشقيقتها الصغرى. حين سألت كاناني

(1) نوع من المطاعم اليابانيّة التقليديّة التي تقدّم وجبات التونكاتسو وهي مكوّنة من قطع لحم الخنزير أو قطع الأسماك والثمار البحريّة التي تغلّف بالطحين وتقلى جيّداً.

(2) بسط يابانيّة تصنع تقليدياً من قشّ الأرزّ.

عن رأيه في الأمر قال لها «أفعلي ما يحلو لك، فأنا نفسي سوف أذهب إلى طوكيو قبل فوات الأوان». وقالت لها تامي «أجل، إن وعدتني بالسماح لي في الذهاب في الرحلة المدرسيّة». قطعت سايوكو وعدها، وسمحت للمرأة في أخذها إلى طوكيو. «في الحقيقة كلّ ما أردته كان وظيفة مقبولة. كنت متلهفة للحصول على ذلك»، قالت منهية كلامها. عندها، لكمت الهواء بقبضتها في حركة تشبه تمارينا الروتينيّة بالجمنازيوم في زمن الحرب.

«كيف هو إذن الأنكل كاتسوس هذا؟» سألتها.

«إنّه مطعم صغير لا أكثر. مالكه في السابعة والثلاثين من عمره يرتدي قبّعة كهذه» - رفعت يديها فوق رأسها لتشير إلى قبّعة الطبّاخين - «مائلة إلى جهة واحدة. لماذا يضعها مائلة إلى جهة واحدة؟» سألت نفسها. ليس لديّ أيّة فكرة. «لأنّه أصيب بالصلع في موضع فوق أذنه»، تابعت حديثها، حاجبة فمها بيدها وهي تهتزّ بالضحك. «إنّها مضحكة جدّا! زوجته في السادسة والثلاثين. إنّها صاخبة قليلاً في بعض الأحيان، لكنّها ليست سيّئة. لديهما طفلان. أكبرهما فتاة، والصغير صبي. وهذا كلّ ما في الأمر».

«همم»، علّقت على حديثها مهمهما، وقد أنهكني خطاب

سايوكو الناري المتسارع. كانت شينو قد استمعت بهدوء حتّى هذه النقطة، غير أنّها الآن انضمّت إلى الشجار. «ماذا عن الزبائن؟ أيّ نوع من الناس هم؟».

«حسناً..». مدّت سايوكو يدها وأخذت تعدّ على أصابعها. «هناك النادل... موسيقي الشارع... مدير الملهى الليلي – الذي يأتي في كلّ يوم بصحبة امرأة مختلفة. وهناك الطلاب... والمجرمون... وآخرون غيرهم. لا أعرف بالتحديد ماذا يعمل كلّ من يأتي».

ردّت شينو على نحو عصبي: «الآن توقفي قليلاً سايوكو»، قالت لها. «الحصول على وظيفة لا يعني أن تعملي في مكان كهذا!».

«لِمَ لا؟» سألت شقيقتها، ناظرة إلى شينو بارتباك شديد. «ما هي مشكلة مطعم التونكاتسو؟ أنت كنت تعملين في مطعم، أليس كذلك؟ لا يمكنني أن أرى في الأمر فارقاً كبيراً».

طرفت شينو بعينيها ونظرت إلى الأسفل. «أجل، لكن في شينوبوغاوا لم يكن لدينا زبائن مثل هؤلاء. زبائننا كانوا من أساتذة الجامعات وأصحاب المتاجر المحترمين ومديري الأقسام..».

«ومن الطلاّب، صحيح؟ في النهاية كان عزيزنا طالباً

حينها، أليس كذلك؟

وجاء لرؤيتنا في اليوم الذي سبق وفاة والدنا مرتديا بدلة الطلاب، ألم يفعل هذا؟ وكان يبدو هكذا؟» وضعت سايوكو قبضتيها على ركبتيها وحنت برأسها خجلاً وهي تقلّدني.

«لا تكوني وقحة إلى هذا الحدّ!» صرخت شينو موبّخة إياها. وقد تورّدت وجنتاها.

«حسناً، على أيّة حال»، قلت لها بهدوء، «نعم، ربّما كنت طالباً. لكن أنت تعرفين يا سايوكو، نحن لا نقول إن المطعم مطعم جيّد لأنّ زبائنه أساتذة جامعات، وآخر سيئ لأنّه يجتذب موسيقيّي الشوارع. ما نقوله هو إنّك مازلت صغيرة، وإنّ بيئتك التي تعملين فيها مهمّة بالنسبة لك مهما كانت وظيفتك. إن توجّب عليك العمل، فمن الأفضل بالتأكيد العمل في بيئة آمنة لا في بيئة قاتمة وخطرة. ما تعنيه شقيقتك هو أنّها لا تمانع في التحاقك بالعمل، بل إنّها تدعوك إلى وجوب الانتباه للبيئة التي تختارينها.

هزّت سايوكو رأسها بهدوء.

«هذا تماماً ما قالته معلّمة المدرسة».

قالت شينو «اتركي هذا العمل يا سايوكو».

تجهّم وجه شقيقتها. «ماذا، وأعود إلى توتشيغي؟».

«أجل، من المستحسن. لكن إن كان لابدّ من العمل هنا فعلاً، فسوف أساعدك على إيجاد عمل أفضل».

«حسناً، سيكون هذا جيداً، لكنّي لن أعود إلى توتشيغي».

«لم لا؟ يمكنك الاستمرار قليلاً في مساعدة شقيقك بعض الوقت. صناعة المكانس هي وظيفة مقبولة، أتعرفين هذا؟».

بدت سايوكو مرتبكة. «ماذا؟ ألم يخبرك؟»، قالت، وقد تحوّلت إلى الكلام بلهجة توتشيغي الحادّة إثر مفاجأتها التي ظهرت.

«أخبريني ماذا هناك؟».

«لم يعد يصنع المكانس. هو الآن يعمل في متجر للدراجات الهوائيّة».

«ماذا؟!» ردّت شينو رأسها إلى الخلف وبادلتني النظرات. «لماذا بحقّ السماء؟».

«كيف لي أن أعرف؟ لماذا لا تسألينه بنفسك؟».

نظرت شينو إليها بصمت قبل أن تغلق عينيها وتتنفّس نفساً عميقاً.

في تلك الليلة، علّمتنا سايوكو سرّ الإعداد المثالي للتونكاتسو،

شرائح لحم الخنزير المغلّفة بدقيق الخبز. عندما غادرت خضت مع شينو مناقشة جدّية تناولت عائلتها ابتداء بسايوكو. اتفقنا على وجوب إقناعها بترك أنكل كاتسوس. لكن ولأنّ المطعم كان في عزّ انشغاله بفترة اقتراب العام الجديد قلنا إنّه من غير المناسب جعلها تترك في الحال. قررنا بدلاً من ذلك إبلاغ صاحب المطعم ما قررناه، ثمّ نحملها على ترك العمل نهائيّا في العاشر من كانون الثاني. في تلك الأثناء، نبحث لها عن بيئة أفضل تناسبها. أمّا بالنسبة لتغيير كانامي مهنته، فلم يكن ثمّة فائدة من عمل أيّ شيء قبل التحدّث إليه شخصياً بالدرجة الأولى والاستماع إلى ما سيقوله.

«على أيّة حال»، قلت، «دعينا ندعو أشقاءك إلى هنا في ليلة رأس السنة. يمكننا الاحتفال بالأعياد معاً. ثمّ نناقش ما يخطّطون القيام به من الآن وصاعداً. كما أن ثمّة أمراً أودّ إخبارهم إيّاه أيضاً. هيا نفعل هذا».

«أشقائي البلهاء... أشعر بالخجل بسببهم»، قالت شينو مغمضة عينيها. «وسيكون إطعامهم جميعاً مكلفاً جدّا..».

«هذا ليس مهماً. رأس السنة الجديد المقبل ليس مثل الأعوام السابقة. قد تتعرّض عائلتك للتفكّك إن لم نتدخّل في الحال...

لقد حان وقت استخدام الأسلحة الثقيلة».

«أنت تعني...؟».

قطّبت شينو جبينها واستدارت نحو خزانة الحائط. «الأسلحة الثقيلة» تعني بدلتي المفضلة التي خبّأتها شينو ووضبتها في أسفل صندوق خيزران للثياب. لو كان ثمّة من أردت إثارة اهتمامه في جهودي الأدبيّة لأرتديت تلك البدلة والتقيت به دون أيّ إرباك. إن قمنا برهن البدلة، فإنّ الأشخاص الخمسة سيقضون في المقابل يومين أو ثلاثة يشعرون فيها بأنّهم في عيد رأس سنة حقيقي. أنا بالتأكيد لم أهجر العمل على نحو نهائي. لكن كان واضحاً بما فيه الكفاية أنّني لن أحتاج إلى تلك البدلة في المستقبل القريب.

في وقت متأخر من الليل كتبت شينو رسالة مستعجلة إلى شقيقها كانامي، في حين قمت أنا بالكتابة لابنة نسيب بعيد لي من قريتي تعيش أيضاً في طوكيو. تعمل النسيبة في مصنع لجوارب النايلون يمكن الوصول إليه عبر خط الترامواي الذي نستقلّه. سألتها إن كان أصحاب العمل عندها يتيحون توظيف فتيات جديدات للمصنع.

فجأة سمعنا صوتاً عالياً يصيح في ناحية القناة. «ميلاد مجيد! ميلاد مجيد!» كان ذلك صوت لاصق الورق، صاحب الملك الذي يؤجّرنا وقد أخذت كلماته تخرج متلعثمة من فمه. كان واضحاً أنّه ثمل.

سألت «ماذا؟ هل عيد الميلاد اليوم؟

«لا»، أجابت شينو. «غداً هي ليلة عيد الميلاد».

«ها! المهرّج في غاية السكر فلا يعرف بأيّ من الأيّام نحن».

«أووه، لكن أنظر. لقد انقضى منتصف الليل. لنكن دقيقين، ليلة عيد الميلاد حلّت الآن».

إذ رحنا نتحدّث أخذ الصوت يهدر بشيء آخر. أضحنا السمع مرّة أخرى.

«ما رأيكم بهذا إذن! ولد ابني الصغير في الخامس والعشرين من كانون الأوّل! تماماً مثل يسوع المسيح! ما رأيكم بهذا إذن! ميلاد مجيد!».

نظرت شينو إليّ ونظرت إليها ورحنا نضحك على نحو مكتوم.

وصل كانامي وتامي من توتشيغي بعد الظهر قبيل أمسية رأس السنة.

«عذراً، هذا كلّ ما استطعت تدبيره»، قال كانامي مقدّماً لي مكنسة بذراع طويلة لفّت بجريدة. انتزعت الورقة عنها فظهر لي عمل متقن الصنعة، إذ خيطت هلب[1] القشّ بدقّة في أعلى المكنسة بوساطة خيطان خضراء اللون.

«شكراً»، قلت له. «إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها عملك. إنّه حقّا جميل».

قال بنبرة اعتزاز «حسناً، إنّها واحدة من أفضل ما صنعت».

جاءت سايوكو مسرعة إذ هبط الليل كي تنضمّ إلينا وقد حلّت في بيتنا المتواضع أجواء احتفال غير معتادة. في العشاء، شربت قنينة صغيرة من الساكي الساخن الرديء. حين كنت طالباً كان بوسعي شرب برميل من الساكي، لكنّ الضعف الذي أصابني الآن أشعرني بسكر لذيذ من مجرّد شرب قنينة واحدة صغيرة.

«في المناسبة يا كانامي»، قلت مبتدئاً الحديث معه وقد اخترت الوقت الملائم بانتباه. «أخبرتني سايوكو بأنّك تركت عمل صناعة المكانس؟».

(1) ما غلظ وصلب.

نظر كانامي إلى سايوكو غاضباً. «هذا صحيح»، قال بضحكة مرتبكة.

«وأنت تعمل الآن في محلّ للدراجات الهوائيّة؟ ما الذي جعلك تترك صناعة المكانس؟».

«لأنّ جميع المكانس الآن باتت تصنع بوساطة الآلة. لقد بارت تلك المكانس المصنوعة يدويّاً. في غضون سنتين أو ثلاث سنوات ستكون جميعها مصنوعة بواسطة الآلة، على ما أقدّر. سوف يتعذّر علينا كما ترى الإبقاء على حجم الإنتاج المطلوب. نعم، أظنّ أنّ المكانس المصنوعة يدويّاً انتهت الآن».

«حقّا»، قلت له. لقد بدا ذلك سبباً كافياً للإقناع. «إذن ماذا عن محلّ الدرّاجات الهوائيّة؟».

«آه، في الواقع لقد سألني صاحب محلّ الدرّاجات في البلدة الانضمام إلى العمل معه إن سمح وقتي بذلك، فانضممت إليه بعض الوقت. لكن على الرغم من هذا، فلست معه الآن».

«أين أنت إذن؟».

«هيتاشي».

«هيتاشي؟ هل تقصد مصنع هيتاشي؟».

«هذا صحيح. أنا مشغّل مخرطة».

رحت أحدّق فيه برهة من الزمن مأخوذاً بسرعة تبدّله المهني. ثمّ عدت وتمالكت نفسي.

«الآن»، شرعت في الكلام، «سأقول هذا كوني أفضل قوله قبل أفول العام. ثمة شيء أودّ طلبه منكم جميعاً. أنا لا أمانع طبعا في أن تبدأوا العمل. لكن قبل أن تفعلوا أودّ منكم المجيء أوّلاً لتطلبوا نصيحتي. أودّكم فقط أن تأتوا وتسمعوني آراءكم. كوني أعيش هنا مع شقيقتكم ولأنّه ما من شيء آخر أستطيع فعله لكم جميعاً، أودّ أن تتسنّى لي فرصة نصحكم على الأقل. ما رأيكم بهذا؟».

بصراحة لقد حسدتّهم على حريّتهم في تبديل المهن حسب ما يحلو لهم، كما أنّني حين تكلّمت رحت أنعم في نفسي بمحاولتي الأولى للتصرّف كأخ أكبر. غير أنّهم جلسوا جميعاً صامتين بوجوه حانية وكأنّهم أساؤوا فهم عرضي لهم ذاك، فاعتبروه تأنيباً.

«هاي ما بالكم، أنا لست غاضباً!» قلت لهم مرفقاً ذلك بضحكة مشجّعة. «إن كان لديكم أيّ رأي عبّروا عنه في الحال. دعونا نتكلّم بصراحة».

رفع كانامي وجهه بهدوء.

«كيف لنا أن نأتي إليك كي نأخذ نصيحتك، هذه هي المشكلة؟ أنت لن تفهم وضعنا. للحال علاقة بالمنطق. إذ ليس بوسع إنسان لا يعمل أن يسدي نصائح مثل هذه. نحن لن نشعر بحاجة إلى القدوم إليك لأخذ النصيحة قبل أن تبدأ أنت نفسك بالعمل أيضاً».

لم يبعث وجهه عندما راح يتكلّم أيّة إشارة ازدراء ولا ملمحاً عدوانياً أو ابتسامة سخرية. وحدهما عيناه أومضتا بالنور كأنّهما تضمّان شيئاً مشعّاً داخلهما. لقد راح يعبّر بملامحه المعتادة وصوته إيّاه عن مشاعره على نحو صريح. مع ذلك، فإنّ هدوءه التامّ ذاك جرح مشاعري.

«إذن لا بأس في المضيّ طوال الوقت بتغيير العمل، أليس كذلك؟» قلت. وإن كان ثمّة إحساس عدائي قد بدر فهو قد بدر منّي.

«بوسع أشخاص مثلكم ممن تخرّجوا في الجامعة البقاء في البيت طوال اليوم بلا عمل»، أكمل كانامي قائلاً في النبرة عينها. «لكن من هم مثلنا لن يسعهم تحصيل عيشهم دون عمل يومي. لن يتاح لنا الوقت كي نستعرض الأعمال ونختار منها. ففي النهاية، لا تنتظرنا الأعمال إلى الأبد. أنا أحبّ العمل. وسأختبر

يدي في كلّ شيء. وحين أجد الشيء الذي يروقني أكثر من غيره باستطاعتي حينذاك المضيّ في عمله طوال حياتي، ألا أستطيع فعل هذا؟ ذاك الشيء وليس غيره».

بعد قوله ما قاله من كلام أظهر كانامي شيئاً من اللامبالاة.

ما هو أكثر إيلاماً في الموضوع كان ما ظهر بكلام كانامي وشقيقتيه ليشير إلى أنّنا نعيش في عالمين منفصلين تمام الانفصال – هم «أناس عاملون»، وأنا «شخص لا يعمل». هكذا بدت حياتي غير المنتجة حياة ضالّة في نظرهم. وبانتماء كلّ منّا إلى ما هو فيه، أدركت عندها تعذّر أن أكون في الدائرة ذاتها معهم، ما جعلني أشعر بعزلة لا تحتمل.

«لا بأس، لكن على الأقل يمكنك الكتابة لنا كي تعلمنا بأمر تغيير عملك أو عنوانك. وإلا لن يكون بوسعنا معرفة ماذا يفعل شخص، أو أين يعيش شخص آخر. وهذا قد يثير مشكلة إن طرأ أمر ما».

وبالإضافة إلى عدم استمتاعي بأدائي بوصفي أخاً أكبر، فقد بدأت حينها في التوسّل إليهم.

لم تكن مهمّة كتابة الرسائل أفضل المهام التي يودّون القيام بها. نظروا إلى بعضهم بعضاً وهزّوا بأكتافهم غير مبالين.

بمرور أيّام قليلة على انقضاء رأس السنة، وصلنا جواب منتظر من ابنة نسيبي البعيد. قالت في رسالتها أن أربعا أو خمسا من زميلاتها سيتركن المصنع في أواسط شهر كانون الثاني، وإنّها قد تتمكّن حينها من تزكيّة سايوكو. أرسلت لها جوابا في البريد المستعجل يقول إنّنا بالتأكيد نودّ منها المضيّ في ذلك. في تلك الأثناء، أرسلت شينو كي تأتي بسايوكو من مطعم أنكل كاتسوس في العاشر من كانون الثاني، كما كنّا قد خطّطنا.

أقامت سايوكو عندنا عشرة أيّام أو نحوها. في تلك الفترة، اصطحبتها شينو لإجراء مقابلة في مصنع جوارب النايلون حيث تمّ التوصّل إلى اتفاق غير رسمي على توظيفها.

«هذه أخبار جيّدة»، قلت.

«أجل»، قالت سايوكو. «أعتذر عن تسببي لكم بكلّ هذه المتاعب».

«ابذلي كلّ ما في وسعك، إلى أن تستقيلي من العمل للزواج».

«ماذا؟ أنا لن أتزوّج أبداً!».

في أحد الأيّام، انتقلت سايوكو للعيش في مساكن عمّال المصنع، تاركة خلفها أصداء ضحكتها المفعمة بالمرح.

في يوم رأس السنة، كنت قد شعرت بإلحاح البدء في كتابة قصّة جديدة. طفلنا سيولد بعد نحو ستّة أشهر. ولم يكن بوسعي في حالي الراهنة تقديم أيّة مساعدة لشينو، فقبلت آنئذ اقتراح أمّي في أن يولد الطفل في بلدتنا. عندها، ستكون القصّة الجديدة هذه إشارة جيّدة إلى مدى قدرتي على إعالة نفسي بنفسي بعد أن تكون شينو قد غادرت إلى البلدة. حتّى إنّها، إذا تسنّى لي السماح لنفسي بشيء من التفاؤل، قد تأتي بما يكفي من مال يغطّي رحلة شينو إلى البلدة وتكاليف المستشفى أيضاً.

جلست خلف طاولتي غارقاً في كتاباتي ليل نهار. تقدّم السرد في مراحل بطيئة مؤلمة لكنّه ثابر في سيره نحو خلاصته. في مطلع شباط، وفي عملي ساعات متأخّرة من الليل، نسيت القيام بإعادة تزويد المدفأة بالفحم فانتهى الأمر بإصابتي بالزكام. لا أعرف تماماً إن كانت تلك هي الحال، لكنّي وبعد مضيّ أربعة أيّام، حين ظننت أنّ الزكام انحسر، حلّت بي على نحو مفاجئ حمّى بدرجة مئة وثلاث.

بقيت في السرير دون عمل ليومين، ثمّ ألحقتهما بيوم آخر، مفترضاً تجدّد الزكام. لكنّ حتّى بعد زوال عوارض الزكام على نحو كامل، فقد استمرّت الحمّى دون إظهار أيّة إشارة انحسار.

سرعان ما بدأت مؤخّرة رأسي تنبض بالألم. كنت في العادة أتحاشى الأطبّاء، لكّني هذه المرّة شعرت بإرهاق شديد قادني إلى الذهاب إلى العيادة المحليّة. أشار تشخيص الطبيب بعد المعاينة الأوّليّة إلى تجدّد الزكام، فأعطاني حقنة ومسحوق دواء مضادين له. نفد المسحوق سريعاً، غير أنّ حرارتي رفضت التقهقر ولو قليلاً. عاينني عندها الطبيب بدقّة أكبر دون التمكّن من معرفة مشكلتي. الأمر الوحيد الذي يمكنني فعله كما استنتج كان تجربة بعض أقراص دواء يدعى «كلوروميسيتين».

كان ثمن الأقراص مرتفعاً جدّاً بالنظر إلى ظروفنا. وما زاد من صعوبة الأمر كان وجوب تناولي قرصاً واحداً كلّ ست ساعات. لي صديق في ميجيرو كان قد ساعدني مالياً عدّة مرّات في الماضي. شرحت له ورطتي، فاستدنت منه المال واشتريت الدواء.

جاء صديقي في ميجيرو كي يتفقّد تطوّر حالي يوماً بعد يوم. أصدقاء آخرون من أيّام الجامعة جاؤوا لزيارتي كلّ على حدة بعد أن سمعوا منه أخباري. جلسوا عند طرف السرير وأخذوا يخمّنون طبيعة مرضي. قال أحدهم إنّه السل، آخر رأى أنّه قد يكون داءاً يدعى حمّى إيزومي. صديق آخر تسبّب لي بالرعب

حين قال «إنّها الكوليرا، أليس كذلك؟» ولأنّ الألم تواصل في مؤخّرة رأسي، فقد أرّقتني فكرة احتمال إصابتي بأحد أمراض الدماغ. حالات الحمّى التي لا يعرف لها سبب أو اسم هي حالات مقلقة جدّاً. صرت مستعدّاً للركون إلى أيّ من الأمراض المستعصية لو يتبدّد هذا الشكّ. إذ مجرّد توقّع مرض في الدماغ بدا أمراً لا أستطيع مواجهته.

راحت الحمّى تنحسر ولو على نحو محدود بعد يوم من بدئي تناول الأقراص. بدأ الألم في مؤخّرة رأسي آنئذ يخفّ أيضاً بمرور كلّ يوم، حتّى صرت قادراً بعد عشرة أيّام على المزاح حول ما أصابني. «أخيراً بتّ أعرف ما اسم مرضي»، قلت لأصدقائي حين جاؤوا لزيارتي. «الاسم العلمي بالروسيّة يعني «الحمّى الفقيرة». يقولون إن دوستويوفسكي أصيب بها. إنها حمى انتقلت من روسيا إلى أوروبا، وقد أصيب بها تشارلز لويس فيليب ضمن من أصيبوا..».

حين كنت لاأزال مصاباً بالحمّى، انتظرت أيّام الآحاد دون غيرها من الأيام بفارغ الصبر. فيها كانت سايوكو تأتي لزيارتي. عواطفي الخامدة تحت وطأة داء من الحمّى لا اسم له، كانت آنئذ تستعيد عافيتها وتعتدل حين يمسّها تفاؤل سايوكو الحيي.

كانت سايوكو تجثو قرب فراشي وتفيدني بتقرير عن حياتها اليوميّة. حتّى النهوض من النوم صباحاً وتنظيفها أسنانها كانا بالنسبة لها، أمرين مرحين. كانت تحيّي رفيقات سكنها «بصباح الخير!» من القلب. كنّ يتبادلن رفع أصابعهنّ الثلاثة[1] ويبدأن بالضحك. لم يبق لوصول يوم الأحد سوى ثلاثة أيّام! في ليلة السبت تعجز تماماً عن النوم. لم يكن بوسعها الكفّ عن الضحك، إذ كانت تراقب رفيقات سكنها وهنّ يجدلن شعورهن متلهّفات في انتظار عشّاقهنّ. وفي صباح الأحد تقودها حماستها الشديدة ثلاث مرّات إلى الحمّام. تجلس متململة نافدة الصبر في الترامواي ثم تفتح باب بيتنا بحيويّة بالغة وتنادي صهرها بـ «تارا!»، هذا الأخير الذي استلقى خامداً بكيس من مكعّبات الثلج فوق جبهته. سرد الأحداث تتلوه سايوكو صياحاً لا كلاماً عادياً. وإذ كنت أستمع، كان يسود رأسي المحموم شعور حنين ضبابي لتلك الأيّام البريئة حين كان بوسعي أيضاً الاستمتاع بحياة كهذه – حياة تركتها ورائي منذ زمن بعيد.

في أحد الأيام وبعد حديث الثرثرة العشوائي المعتاد هذا،

(1) حركة في أصابع اليد الثلاثة تعني المال، سواء توافر أم لا، كما تتمنّى الحظ الحسن في السعي للحصول عليه.

تركت سايوكو خلفها على الأرض في رواق المدخل حين غادرت مغلّفا مستطيلاً ورقيقاً. «هذه لك. رسالة تمنّي الشفاء»، قالت، قبل أن تعدو ذاهبة.

تناولت شينو المغلّف ونظرت إلى ما في داخله. «يا إلهي!» صاحت بصوت لاهث.

ضمّ المغلّف دفتراً مصرفيا لتوفير المدّخرات ورسالة. المعدّلات المسجّلة في دفتر التوفير كوّنت في الحقيقة مبلغاً مدهشاً استطاعت جمعه فتاة في الثامنة عشرة من عمرها. قرأت الرسالة:

أخي العزيز:

هذا المال ادّخرته من عملي في صناعة المكانس، وفي تونكاتسو، وفي مصنع جوارب النايلون. لقد عملت على ادّخاره لأنّني أودّ أن يكون لي، في يوم من الأيام، متجري الخاص لبيع حساء شيروكو الفول السكّري. لكنّني مازلت في الثامنة عشرة من عمري وأنا لا أحتاج إلى هذا المال الآن. لذا، أقوم بتقديمه لك هديّة لشفائك. أرجو أن تستخدمه كما يحلو لك.

سايوكو

«حسناً. أليست غريبة هذه الفتاة»، قلت بفظاظة على نحو غير متعمّد، مفكّراً بيني وبين نفسي في أنّ الأمر بلا شكّ يعني نهايتي. أنا هنا مليء بالآمال الكبيرة، لكنّي عاجز عن إنتاج شيء واحد ذي قيمة، في حين قدّمت لي شقيقة زوجتي، التي تعمل في عمر الثامنة عشرة، دفتر توفيرها. هل فعلاً تستحق حياتي الاستمرار كي أصل إلى مرحلة استخدام جميع مدخّراتها أيضاً؟

في يوم الأحد الذي تلا، كما جرت العادة، جاءت سايوكو بعبارتها المحيية «تارا!».

«شكراً للطفك الأسبوع الفائت»، قلت لها. «أنا أقدّر الفكرة، لكن لا يمكنني قبولها مهما كانت الحال. عليك النظر في الأمر».

بينما هممت بتسليمها دفتر التوفير، أسندت سايوكو جبهتها على دعّامة الباب وراحت تبكي. لم نفعل شيئاً أنا وشينو غير المراقبة دون كلام. ثمّ استدارتِ سايوكو فجأة لمواجهتنا. «كيف يمكن لكما أن تكونا بلا قلب هكذا؟» قالت غاضبة. «هذه هي مشكلتكما بالتحديد! من المفترض أنّنا أقارب، أليس كذلك؟! أنتما لا تفعلان شيئاً سوى انتقادنا ولا تتعاملان معنا بوصفنا

عائلة! أيّ هراء هذا!»

كلماتها أصابتني في الصميم. شعرت بانفعال يعتمر في داخلي فرميت دفتر التوفير على الطاولة.

«حسناً، سوف أحتفظ به. أرجوك لا تبكي».

استدرت مشيحاً نظري عنها كي أواجه مكتبتي الخالية.

في مطلع آذار، تمكّنت أخيراً من مغادرة الفراش. كنت قد عانيت من الحمّى طوال شهر. عندما حاولت النهوض شعرت بخفّة في رأسي، وإذ حاولت المشي أوشكت ركبتاي على الانهيار. بدا جسدي كلّه ضعيفاً ومرتعشاً. كان الأمر وكأنّ الحمّى أصابت كياني في صميمه.

استمرّ التعرّق الليلي. في بعض الليالي، كان عليّ تبديل ثياب النوم مرّتين. في فترات الطقس الغائم الطويلة، حين يتعذّر جفاف الغسيل، نفدت من عندي كل ثياب النوم النظيفة، فرحت أستعير أردية شينو الداخليّة كي ألبسها في النوم. كما أنني عانيت بين وقت وآخر من الغثيان ووجيب[1] القلب. بذلت جهداً هائلاً كي أجلس خلف مكتبي، لكنّني ببساطة عجزت عن إكمال ما كتبته قبل مرضي. ربّما مسّت الحمّى الأنسجة الداخليّة لخلايا دماغي

(1) الوجيب: خفقان القلب بسرعة وقوّة.

فعطّلتها. في إحدى المرّات في ساعة متأخّرة من الليل، جلست هناك خلف الطاولة خاوياً وقد أخذ الانقطاع عمّا كنت أسرده يحملق في وجهي، ثمّ سمعت جلبة أصوات في الخارج. راح خادم الحمّام العمومي المحلّي على غير عادته يفرغ ماء أحواض الاستحمام على أرض الحمّام المبلّطة. مسمّراً بذلك الصوت، رميت رأسي فوق الطاولة وانفجرت باكياً.

بدأت شينو التي بلغت الآن المراحل الأخيرة من حملها تشكو من آلام غير محدّدة في بطنها. عاينها الطبيب قائلاً إنّ هناك خطر ولادة مبكّرة وأعطاها حقنة بروجيستيرون. قد يولد الطفل بصحّة جيّدة قبل موعده المنتظر في تمّوز، قال الطبيب. كانت نصيحته أنّ على شينو إن احتاجت إلى الذهاب إلى القرية، أن تفعل ذلك في أسرع وقت ممكن.

في مطلع نيسان، كان لدي ما أقوله لها.

«انظري، في النهاية أعتقد أنّني سأرافقك»، قلت لها. «لا يعرف المرء أبداً ماذا يمكن أن يحصل وأنا في هذه الحال. لقد تسنّى لنا تحمّل كلّ هذه الأمور حتّى الآن فقط لأنّنا كنّا بصحّة جيّدة. هل تذكرين الزوجين كونوجي؟ لنفعل ما فعلاه. نفعل الأمر الحكيم ونذهب إلى القرية بعض الوقت. ثمّة شيء أودّ

كتابته، شيء لا يكتب من أجل المال. أودّ التأنّي في كتابته في أثناء استعادتي صحّتي على نحو تدريجي. ثمّ حين يولد الطفل يمكنني البدء في انطلاقة جديدة. وعندما أبدأ من جديد، فلن أستعجل في أيّ أمر. سوف أحاول في المرّة المقبلة تحقيق عمل أفضل».

«حقّا؟» قالت زوجتي وقد ومضت عيناها بالفرح. «هذه ليست كذبة أوّل نيسان؟».

قرّرنا المغادرة في العاشر من نيسان.

استعنّا بمدخّرات سايوكو كي نفكّ رهن ممتلكاتنا. جمعنا معاً آخر ما لدينا كيّ نسدّد إيجار الإخلاء. ثمّ بعنا لتاجر المفروشات المستعملة صناديق حفظ الثياب ورفوف الكتب وخزائن المطبخ، هذا الأخير الذي فرغ تماماً من محتوياته. حتّى أنّ تاجر المفروشات «رمى» طاولة كتابتي بين الأغراض على الرغم من أنّ إحدى قوائمها كانت زائفة. كلّ ما بقي لنا كان صرّتين صغيرتين من الثياب الملفوفة والمكنسة التي أهدانا إيّاها كانامي. بعد سنتين من العوز المرير، كنّا سنغادر طوكيو بلا شيء يحمل اسمنا سوى مكنسة خشبيّة.

في صباح يومنا الأخير، جاءت جارتنا لزيارتنا وهي امرأة عرفناها معرفة عابرة. لم نقم علاقات مع جيراننا أبداً، لكنّا على الدوام كنّا نتبادل التحيّة مع تلك المرأة حين نلتقي بها في الشارع. سلّمتنا رزمة ورقيّة خالية من أيّة زينة إضافيّة.

«هذه بعض الأشياء للطفل كي يرتديها»، قالت لنا. «لقد اشتغلت عليها مدّة من الزمن، إذ أردت إنهاءها قبل مغادرتكما. أنا على الدوام أعجز عن الاستمرار بعد التاسعة ليلاً، لكنّي نجحت مساء أمس في إنجاز العمل بها. إنّها ليست شيئاً مهمّاً، حقّا».

«أووه، جميل، شكراً جزيلاً لك، في الحقيقة ما كان يجب أن... في كلّ الأحوال، إنّنا لا نعرف بعد إن كان الطفل صبيّاً أم فتاة»، قلت مرتبكاً ومذهولاً بتلك المفاجأة.

«لا، إنّها لأيّ طفل مولود وستناسب الجنسين. حسناً الآن، اعتنيا بنفسيكما»، قالت حين غادرت.

فتحنا الرزمة الورقيّة لنجد في داخلها طقمي طفل ناصعيّ البياض.

«سيكونان تذكاراً جميلاً»، قلت.

«أجل»، هزت شينو رأسها في حين ابتلت عيناها بدموع التأثّر.

كانت رشّة ثلج ناعمة تحاكي قشرة الصباغ قد هبطت فوق الغابة بمحاذاة خط القطار. حين عبر القطار نفقاً، اجتاز تقاطع خطوط مختلفة وراح يتمايل.

«كان الثلج يهبط حين وصلنا القرية في المرّة الأولى، أليس كذلك؟» قالت شينو.

«هذا ما كان. هيّا نستعيد ما كنّا نشعر به آنذاك. هيّا نبدأ من جديد».

خطونا حاملين صرّتي ثيابنا الصغيرتين ومكنستنا إلى رصيف محطّة القطار. ولفحتنا ندف الثلج من إحدى الجهات.



وجه الموت

في الماضي، كلّما علمت بموت في عائلتي، وجدتني أسير مشاعر العار. بدا الموت بالنسبة لي شيئاً من الخزيّ. حتى الآن، اختطف الموت مني شقيقتي، ولي شقيقان قد يكونان على قيد الحياة أو أنّهما فارقاها. ألحق موتهم وحظوظهم العاثرة كلّها العار بعائلتنا.

عندما كنت في العاشرة تقريباً، اعتقدت أن الموت يعني الإقدام على الانتحار. أثبتت شقيقتاي نظريتي. فقد تجرّعت الكبرى السمّ، أما الصغرى فأغرقت نفسها. لم يتمّ أبداً إخباري بالتفاصيل الحقيقيّة. كنت معروفا في القرية بشقيق الفتاة التي تجرّعت السمّ، الصبيّ ابن عائلة الفتاة التي أغرقت نفسها. بدا الأمر مهيناً. كنت أخاف الأولاد الآخرين الذين في عمري،

فأسلك على الدوام الدروب الفرعيّة. لكنّ أولاد الدروب الفرعيّة تلك كانوا أكثر وقاحة وإيذاء. لذا رحت أذهب في التفافات حول القرية سالكاً الحقول.

كان ذلك في أثناء سيري في الحقول بأحد الأيّام وأنا في طريقي إلى المدرسة، إذ علمت بالطيش الذي أقدم عليه شقيقي الأكبر. كان شقيقي عضواً في رابطة الأهل في المدرسة وقد سأل المسؤولون في هذه الأخيرة عن مكان وجوده. سائراً عبر الحقول في الصباح التالي، فتحت الرسالة الجوابيّة التي كتبها والدي وقرأتها. ضاع شقيقي، قالت الرسالة. سمعت لاحقاً أنّه ذهب في رحلة بغية قتل نفسه، وفي طريقه قام بإرسال معطفه النصفي الحريري الثمين وحزام الأوبي الرسمي إلى عشيقته الفقيرة هديّة للذكرى. راح رأسي يترنّح إذ حاولت فهم الرسالة. لم يكن ثمّة أحد غيري في الحقل لكنّي شعرت بخزي شديد فلم أعرف أين أخفي نفسي. مزّقت الرسالة ورميتها في جدول ماء، ثمّ حملت نفسي على إكمال المسير فيما ملأ حلقي دخان موقدة أشعلت في الحقل.

حتّى في حينها كنت مقتنعاً أنّه إذا قدّر لي الموت أخيراً، فإنّ الانتحار سيكون طريقة الموت الوحيدة على الرغم ممّا سيحمله

من خزي. لم أعرف طريقة أخرى. واكتشفت في سرّي طرقاً عدّة للإقدام على الانتحار لم يعرفها أحد من قبل، لكنّ في خضمّ حماستي تلك فقد صعب عليّ اختيار واحدة من بينها. ثمّ بعد ذلك، وهو الأمر الذي فاجأني كثيراً، دخلنا حقبة غريبة جرى فيها، في الواقع، تمجيد الانتحار.

كانت الحرب بالنسبة لي فرصة مثاليّة للذود عن شرف أشقّائي المهان. اعتبرت جادّاً أن وقت موتي قد حان. لكنّي كنت في الخامسة عشرة فقط، ولمّا أبلغ بعد العمر الذي يتيح تطوّعي لانتحار مشرّف. في آخر المطاف، تمنّيت لو أموت على يد الأعداء. أغار العدو على بلدتنا من الجو في ذلك الصيف وجاء لمهاجمتي. لو أنّني فقط كنت أقوم بما جرت عادتي القيام به في المكان المعتاد، لكنت متّ منتحراً كما تمنّيت، لكنّ لفتة من القدر حالت دون ذلك. ثمّ، وفي أحد الأيّام، تبدّدت تلك الفرصة المثاليّة على نحو كامل.

بعد انقضاء الحرب، أصبحت شاباً ورأيت أنّه من غير الضروري أن يعني الموت إقداماً على الانتحار. لكن مع ذلك، فقد ظلّ تخلّصي من إحساس الخزي صعباً. حين كنت أرى أناساً محزونين جرّاء موت قريب لهم، اعتبرت الأمر غريباً.

هل من المحزن أن يموت أحد؟

هل ستبكي إن مات أبوك؟

طرحت على نفسي أسئلة كهذه وعجزت عن إيجاد أجوبة لها. حين كنت ألتقي صديقاً فقد قريباً له، رحت أنحني احتراماً لكنّي لم أكن لألمسه في بليّته تلك. بالنسبة لي، كان ذلك هو السبيل الأمثل لإظهار التعاطف.

في الثامنة عشرة من العمر، ذهبت إلى طوكيو والتقيت شقيقي الأكبر الثاني. اهتمّ الأخير بي وساعدني في الدخول إلى الجامعة، لكن بعد مرور عام واحد فقط فرّ الشقيق آخذاً معه أموال العائلة واختفى. عصف العار في صميم كياني. لم يكن ذلك عار من خزي عائلتي وحسب، بل أيضاً من حماقتنا في الوثوق بذلك الشقيق، دون أن نتصوّر أبداً خذلانه لنا على هذا النحو. وكان ذلك عار من بلاهتي جرّاء عيشي في المدينة عينها ورؤيتي الدائمة له دون أيّ شكّ عابر تجاه نواياه الخبيثة، إذ لم أكن أنظر إليه إلاباعتباره شقيقاً أكبر فأتودّد له. غادرت طوكيو ورحت أهيم في أنحاء قرية الينابيع الساخنة الصغيرة، مسقط رأس أبي، أو في أرجاء قرية الصيّادين قرب بلدتنا، وعلى هذا النحو بقيت متخفّياً طوال ثلاثة أعوام.

لم أعد أرى أنّ حظوظنا العاثرة نحن الأشقّاء هي ببساطة وليدة للظروف. كان من غير الممكن تخيّل الظروف وحدها سبباً يقودنا نحن الأربعة، واحداً إثر الآخر، إلى الخراب. تمنّيت لو أن واحداً منهم، أيّ واحد، سقط جرّاء سبب عادي. لكنّهم جميعاً بلا استثناء كانوا غير عاديين.

اعتقدت أن الأمر يكمن حتماً في دمنا. فكّرت بأن دمنا هو على الأرجح سبب خرابنا. إن كان الأمر كذلك، فإنّ الدماء المخرّبة عينها تجري أيضاً في عروقي. لن أسمح لنفسي بالخراب جرّاء دمائي. بينما دمي يشعرني بالخزي، رحت أحاول اعتماد سبل إلى الحياة رغماً عنه. كانت الطريقة المثلى أن أمارس عيشاً مناقضاً تماماً لعيش أشقّائي، ما يعني تجنّباً مسبقاً للشرك القاتل في دمي. ما فعلته في الواقع كان محاولة قبول كلّ أمر ببساطة. حتّى إنني مارست ذلك في تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة. حاولت في كلّ أمر فعلته التفكير بأسلوب مناقض لما تخيّلت أنّه قد يكون أسلوب تفكيرهم في حالة معيّنة، وذلك كي أتصرّف على نحو مختلف تماماً عمّا كانوا سيفعلونه. وحين تأكّدت من امتلاكي أسلوب العيش الجديد هذا، طلبت بعض النقود من أبي ودخلت الجامعة مرّة أخرى.

وأنا في الجامعة التقيت بامرأة تدعى شينو كانت تعمل في مطعم قريب من مساكن الطلبة حيث أقمت، فاصطحبتها إلى بلدتي وتزوّجتها. كان أشقّائي سيعتبرون الحب خطيئة، في حين نعمت أنا فيه على نحو بريء. فرح كلّ فرد في عائلتنا من أجلي. لم يبد أحد أيّ مظهر اعتراض، وأنا نفسي لم يشعرني أيّ أمر بالخزي. بدت الحال أفضل على ذلك النحو. ربّما اتسمت حياتنا بالفقر لكنّها كانت حياة عاديّة - والدي ووالدتي المسنّان وشقيقتي كايو في منزلنا العائلي في القرية، وأنا وشينو في طوكيو حيث كنّا نذهب لزيارتهم في البلدة بين وقت وآخر. كنت آنئذ في السادسة والعشرين.

كان ذلك في أواخر شهر تمّوز. رذاذ خفيف يهبط منذ الصباح. بعد ذلك، في آخر النهار وصلتني برقيّة غير متوقّعة من بلدتي الشماليّة لتنبئني بمرض والدي الشديد.

في ذلك الوقت، كنّا شينو وأنا نمكث مسترخيين في شقّتنا المواجهة للقناة التي تعبر ضواحي طوكيو. وضعنا وردة في إناء زجاجي على سطح مكتبتي الفارغة ورحنا نصوّب على وريقاتها، واحدة إثر الأخرى، بواسطة مسدّس لعبة. جاء دور

شينو، وإذ أغمضت إحدى عينيها كي تصوّب، توقّفت على نحو مفاجئ. «هاي! ما هذا؟» قالت. أصخنا السمع فلم يبلغنا سوى صوت درّاجة ناريّة بعيد. قمنا معاً وتوجّهنا نحو النافذة.

تحت النافذة ثمّة طريق ممتدّة. القناة تمتدّ بمحاذاة الطرف الأبعد للطريق. وراء ذلك تسنّى لنا رؤية الدراجة النارية الخضراء لساعي البريد المستعجل وهي تتقدّم صوبنا بمحاذاة أسفل التل. بدا التلّ مثل كعكة ضخمة حيث انحشرت بعضها ببعض الأبنية البيضاء لمنطقة سكنيّة قامت في أعلى منحدر تغطّيه نباتات القصب[1] الكثيفة. في الأحوال العادية تبدأ شينو بالغمغمة، «من هنا! من هنا!»، كما لو أنّها تحاول اجتذاب الفراشات، وحين اجتازت الدراجة الناريّة الجسر الإسمنتي وانعطفت سالكة الطريق الضيّقة المارّة من تحت نافذتنا، مالت شينو من الشبّاك المفتوح كي تتناول البرقيّة قائلة، «وصلت! وصلت!» وكان عليّ أن أشدّها من أحد ذراعيها كي أمنع سقوطها. وجّه ساعي البريد الشاب إلينا نظرة غير مبالية ونحن نطلّ من النافذة. أكمل طريقه وتجاوزنا لمسافة أربع ياردات أو خمس، ثمّ على نحو متروّ هتف «برقيّة!» متوجّهاً صوب نافذة شقّة أخرى منادياً باسمي. كانت تلك

(1) Bamboo.

طريقته لجعلنا نبدو مغفّلين.

إنّه مشهد تكرّر مرّة أو مرّتين في الشهر. قضينا أيّامنا لا نفعل فيها شيئاً سوى انتظار البرقيات. كنت لاأزال بلا عمل على الرغم من مضيّ سنتين على تخرّجي في الجامعة، فتدبّرت عيشي من خلال كتابة الفواصل الإذاعيّة، الأمر الذي أتاحه لي أحد معارفي. كنت استدعى مرّة أو مرّتين في الشهر عبر برقيّة نمطيّة تضمّ عبارتي «عمل متوافر». كنت أتلقّف العمل على الفور فأنجزه في ليلة واحدة وأقدّمه في اليوم التالي للمحطّة الإذاعيّة حيث أتقاضى ما يكفينا نحن الاثنين للعيش طوال أسبوعين. لو توافر العمل المذكور مرّتين في الشهر، لعشنا مثل بقية الناس إلى حدّ ما، غير أنّ الترف ذاك لم يتح لنا سوى في أشهر قليلة. والذي طرأ هو أن العمل أخذ يتباطأ منذ ذلك الربيع وفي حزيران تلاشى على نحو كامل. كان هذا عملاً عديم القيمة لم يؤمّن لنا الاكتفاء، مع ذلك مارسته دائماً وكنت أتمنّى التخلّص منه في أقرب وقت ممكن. لكن العوز سرعان ما حلّ بنا عندما لم يعد العمل المذكور متوافراً. حاولنا تيسير أمورنا عبر بيع الثياب والمفروشات التي أحضرتها شينو معها، كما فعلت بكل كتاب من كتبي، إلا أن هذه الأشياء سرعان ما انتهت. حينها، رحت أمضي الأيام منغمساً في

قراءة كتاب مسرحيات دمى جوروري لـ تشي كاماتسو، والذي نجا من البيع، إذ كنت قد أعرته إلى صديق.

ولكن في ذلك اليوم بدا ساعي البرقيات الذي جاء في زيارة مفاجئة، مختلفاً عمّا يكون عليه في العادة. لم ينظر إلينا حيث كنا واقفين في النافذة، بل دخل إلى البناية عبر المدخل وقرع بابنا على نحو مهذّب.

«برقيّة» قال منادياً.

حين فتحت شينو الباب سلّمها البرقيّة منحنياً، ثمّ استدار منصرفاً ومعطفه الفينيل الأسود المضاد للمياه يتلألأ تحت المطر. أسندت شينو ظهرها إلى الباب وقرأت البرقيّة لتسقط في الحال مكوّمة على بساط التاتامي الذي يغطّي الأرض.

لم أتمكّن جرّاء ارتعاشي من الابتعاد عن النافذة إلى أن تبدّد صوت خطى ساعي البريد المنسحبة. ثم تناولت البرقيّة من حضن شينو وقرأتها واقفاً.

الوالد مريض جدّاً - احضروا بسرعة

- كايو

عندما قرأتها في البداية، كانت العبارة الأخيرة دون غيرها هي التي تركت أثرا في ذهني: كايو شقيقتي الوحيدة المتبقّية، المولودة ببصر ضعيف، لم تكن قد وطئت بقدميها إلى الآن مكاناً مثل مكتب البريد. استحضرت الطريقة التي كتبت فيها بلغة مشوّشة «احضروا بسرعة» في ذهني صورة في الحال: تخيّلتها تكتب هذه الكلمات وهي تنحني فوق طاولة مخلّعة تغطّيها بقع الحبر في الغرفة ذات الأرض الداكنة لمكتب البريد في القرية، وهي، إذ تلقّت نظرات موظّفي البريد الفضوليّة، عصتها الكلمات العاديّة المستخدمة في هكذا مناسبة، «طارئ» أو «عودوا في الحال». عدت وقرأت الرسالة مثاراً بإحساس الخطر، لكنّ عيني لم تفعلاً سوى المرور سريعاً على العبارات الثلاث الجوهريّة في البداية، العبارات التي عجزت عن تحسّس واقعيّتها.

كان أبي مشرفاً على الموت. فهمت إلى ذلك الحدّ. حتّى أنّني هذه المرّة لم أفكّر في أنه حاول الانتحار. كان قد بلغ السبعين وعانى من سكتة دماغيّة معتدلة قبل خمسة أعوام. على الرغم من التعافي التدريجي الذي حقّقه منذ ذلك الوقت، كان أبي معرّضا للانتكاسة في أيّة لحظة. «أنا لن أبقى هنا كثيراً»، غالباً ما قال ضاحكاً، في نصف مزاح لا أكثر. «ادفعني دفعة واحدة

أخيرة فأسقط ميّتاً». كأنّ «دفعته الأخيرة» قد وصلت الآن.

لكن مرّة أخرى ما الذي نقصده حين نقول إن إنسانا «شارف على الموت»؟ يأتي الموت بلا شكّ على نحو غير متوقّع، ليعود ويختفي بالسرعة ذاتها دون أن يخلّف وراءه سوى الجسد. في الماضي، كانت الميتات في عائلتي مقرونة بأجساد الميّتين. هذا ما حصل لشقيقتيّ. كما ينطبق هذا الأمر على الذين تعرّضوا للهجوم من الجو في الحرب. حين كنّا نكتشف إقبال الموت عليهم، كانوا قد غدو أجساداً ميّتة. لم نعرف عن موت المرء إلا حين نشاهد جسده: لم يكن ثمّة من فاصل بين الموت والجسد. يأتي الموت خطفاً، وينسحب خطفاً. كلّ ما يخلّفه وراءه هم أولئك الذين يبقون كي يعقدوا طقساً حزيناً يجتمعون فيه حول الجسد ويبكون.

وجدت صعوبة في التصديق بأنّ والدي يموت. وهكذا فإنّني لم أفاجأ ولم أحزن.

«إنّه انقلاب بائس في الأحداث»، قلت وأنا أطوي البرقيّة في مواجهة الشفق القاتم المتلبّد خارج النافذة. وقفت شينو رويداً على قدميها.

«ماذا يجب أن نفعل؟».

«ماذا يمكننا أن نفعل؟ علينا أن نذهب».

كان الكلام سهلاً، إلا أن قريتي تقع في جوار أقصى شمال هونشو، وكان جليّاً افتقارنا للمدّخرات التي تتيح لنا دفع تكاليف سفرنا إلى هناك. كما أنّه لم يعد بوسعنا عندها الذهاب بمجرّد ثياب نحملها على ظهرينا. يعني موت والدي أنّني أنا من سيكون المشيّع الرئيسي. وعلى شينو أيضاً الحضور في مقدّمة الناس على النحو الملائم. لكن لم يكن في متناولنا قطعة ثياب واحدة مناسبة. كانت ثيابنا لاتزال محجوزة عند المسترهن[1] واحتجنا إلى مبلغ كبير كي نستعيدها.

قضيت وقتاً طويلاً دون انتباه وأنا أجمع كلّ ما نملك. في تلك الأثناء، قصدت بيوت ثلاثة من أصدقائي لاستدانة المال وحين عدت بأجرة السفر والثياب كان قد اقترب انتصاف الليل. قررنا أخذ القطار الشمالي في الصباح التالي وسهرنا طوال الليل الذي وصلتنا فيه برقيّة أخرى.

الوالد في حال أسوأ – أسرعوا

– كايو

(1) مقرض المال لقاء رهن.

وقفت عند النافذة وانبعثت نحوي رائحة القناة. قلت إنّني لن أرى والدي حيّاً بعد الآن أبداً، وافترضت أنّ الأمر هو قدرنا، كأناس لهم الدماء عينها، متمثّلاً في أنّ أحداً منّا لا يمكنه أن يشهد موت الآخر.

المصابيح المصفوفة على طول القناة بدت وسط الرذاذ مثل ضباب أحمر. بدت تماماً كالفوانيس الورقيّة في موسم تفتّح الكرز – موسم المناظر في الأرياف.

كانت تمطر حين بلغنا القرية متأخرين في المساء التالي. عندما مشينا عبر المجاز السفلي[1] المنخفض، الذي وصل بين رصيف القطار في أسفل خطوط السكّة وبين المبنى الرئيسي للمحطّة، لفح هواء الليل البارد دائم الهبوب في أنحاء الشمال مؤخّرة عنقي على الرغم من أنّنا كنّا في عزّ الصيف. استجمعت قواي العقليّة والجسديّة على نحو غريزي.

كان عمّي المسيحيّ الذي يعيش في قرية أخرى يقف هناك تحت ضوء المصباح الخافت عند بوابة شراء التذاكر وقد بدا كأنّه يضم مظلّته إلى صدر بدلته السوداء. حين رأيته واقفاً في ذلك المكان، اعتقدت دون معرفة السبب أنّ أبي قد مات. عندما

(1) المجاز السفلي: طريق تحت سكّة الحديد، او تحت طريق أخرى.

شاهدنا عمّي أقبل راكضاً نحونا. أصدرت جزمته الكاوتشوكيّة العالية جرّاء ركضه أصواتاً تشبه الأصوات التي يصدرها الخائض في الوحل.

«عذراً للتأخير»، قلت له.

فأجاب عمّي «لا، لقد أتيتما من مكان بعيد، وما كان لكما أن تتجنبا التأخير».

قال إنّ هناك بعض الأمور التي ينبغي له الاهتمام بها في بلدته ذلك المساء وإنّه سيغادر في قطار البخار ذاته الذي وصلنا فيه. بدا الأمر لي ذريعة يقدّمها لعدم مشاركته في السهر حول الجثمان. قلت «ما من مشكلة في ذلك. سنهتمّ بكلّ شيء منذ الآن».

حينها طرفت عيناه على نحو مفاجئ قائلاً «لا تستسلم للمرارة، افعل فقط ما تقدر عليه. يتعيّن علينا جميعاً أن نغادر الدنيا في وقت ما. كلّ شيء في يد الله». أطلق القطار صفّارته. «حسناً إذن، إلى اللقاء»، قال، ثمّ هرع نازلاً إلى المجاز السفلي بسرعة محمومة، ممسكاً قبضة مظلّته عالياً.

كانت المحطّة خالية في تلك الساعة. وحدها حشرات صغيرة غير محدّدة العدد راحت تحوم حول المصابيح الكهربائيّة دون أن تصدر صوتاً. لم يكن هناك أيّ شخص آخر كي يلقانا.

كنا قد أرسلنا برقيّة من القطار كيلا يحصل لبس حول موعد وصولنا. فكرت أنّهم جميعاً قد يكونون غاضبين لظنّهم أنّنا ضيّعنا وقتاً طويلاً كي تفوتنا معايشة لحظات أبي الأخيرة. كان بوسعنا التوجّه معاً إلى البيت، لكن بحراً من الوحل كان قد تكوّن خارج مبنى المحطّة. لم يكن في قدميّ سوى حذاء عادي في حين ارتدت زوجتي كيمونو وصندل زوري[1]. وإذ وقفت هناك عند مدخل المحطّة متردّداً غير مدرك لما يمكن فعله، لاحت هيئة شخص أمام ناظري. ركض الشخص صوبنا على نحو غير مضطرد عبر الطريق الموحلة، هذه الأخيرة التي أومضت فيها الآثار العميقة للإطارات كما تومض خطوط السكّة الحديدية تحت أضواء مصابيح الشوارع الخافتة. اعتقدت أنّها الجدّة العجوز كاجي. انتظرنا اقتراب الشخص ذاك نحونا.

أجل إنّها كاجي. كانت العجوز أرملة مزارع طيّبة القلب تعيش قبالة بيتنا.

«آسفة جدّاً! آسفة جدّاً!» قالت لنا. «ذهب سائق التاكسي للشراب في مكان ما. لقد قضى النهار وهو يوصل معزيكم

(1) صنادل يابانيّة تقليديّة كان يصنعها المزارعون من أقمشة الثياب القديمة ومن القش.

ويعيدهم وأظنّه جنى مقداراً من المال لم يجنه منذ فترة. أراهن على أنّه ذهب إلى ذلك المطعم الصغير في البلدة المجاورة».

في الحقيقة، فاحت من أنفاس العجوز أيضاً رائحة الكحول. تساءلت إن كانت سهرة الشراب حول الجثمان قد بدأت ورحت أبدّل حذائي بجزمة كاوتشوكيّة تناولتها من صرّة قماش حملتها العجوز على ظهرها. رفعت شينو طرف الكيمونو وارتدت حذاء مختلفاً، وقد ظهرت ركبتاها ومقدّمتا ساقيها على نحو كامل.

قالت شينو «يبدو منظري مثيراً للسخرية».

«لا، إنّكما تبدوان جميلين وهادئين»، قالت كاجي.

خضنا الوحل في الطريق الرئيسة المحاطة بالبيوت، هذه الأخيرة التي أقفلت أبوابها ونوافذها مع حلول الليل. أردت أن أعرف وقت موت والدي وكيفيّة موته، لكنّي لم أقو على السؤال. لم يكن سبب عدم سؤالي أنّنا برفقة الجدّة كاجي. فأنا لم أكن لأسأل عمّي حتّى. تملّكني إحساس شديد بالرهبة من فكرة سماع شخص آخر يشرح سبب موت أبي وكيفيّة موته. تلك لم تكن رهبة سماع الحقيقة، بل رهبة من سماع ما يخزي.

عندما كنت صغيرا، توفّيت اثنتان من شقيقاتي في تعاقب

سريع، غير أنّي بقيت سنوات عديدة تلت غافلاً تماماً عن حقيقة أنّ الأولى كانت قد أغرقت نفسها. في أحد الأيّام، قام ابن حدّاد في قريتنا، بعد أن أفحمته في سجال، بإفشاء حقيقة الأمر أمام الجميع. «شقيقتك أكلها الدلفين بالقرب من تسوغارو[1]!» قال الفتى على الملأ.

كان في الانتحار ما يكفي من خزي، إلا أنّ نوعاً جديداً من الخزي ألمّ بي من جراء كوني الشخص الوحيد بينهم الذي لم يعرف عن أمر يعرفونه جميعاً. عندما توفّيت شقيقتي الثانية فيما بعد وسادت بيتنا الحيرة، لم أتردّد أبداً في سؤال أمّي: «هل قتلت نفسها؟».

حينها وبسرعة احتضنت أمّي رأسي وضمّته إلى صدرها باكية بأسى. وقد نشأت لا أجرؤ أبداً على السماع من الآخرين، أو سؤالهم بنفسي، عن أيّ شيء حول الموت.

لم تقل شينو كلمة واحدة عن أبي، كأنّها أيضاً كانت قد عافت الأمل. مشينا متجاوزين بستاناً بمحاذاة الطريق وراحت تلهث إذ رأت تفاحات البستان المبلّلة تشع متلألئة كلّما أضاء فانوسنا عليها. خلف البستان، وعلى نحو مفاجئ، ارتفع صوت جريان

(1) تسوغارو بلدة في ولاية أيوموري اليابانيّة.

النهر حين بلغنا الجسر.

«كان والدك يحبّ صيد السمك، أليس كذلك؟» قالت الجدّة كاجي. «لن يقدر على الصيد بعد الآن، طبعاً. إلا أنّه استمرّ بالمجيء حتّى الأيّام الأخيرة كيّ يقف هنا على هذا الجسر طوال الوقت ويراقب الصيّادين. أعتقد الآن أنّه لن يفعل هذا كثيراً».

ابتسمت إذ أحسست بدفء ما في كلماتها.

«حسناً، لابدّ أن تكون هناك أنهار أيضاً في الجهة الأخرى»، قلت لها قاصداً المزاح.

«ماذا تقصد بهذا؟» سألتني العجوز بلهجة حادّة.

«أقصد أنّني سوف أضع قصبة صيد في كفن والدي».

«ماذا!»، صاحت وتيبّست في مكانها. «كيف لك أن تقول شيئاً مشؤوماً كهذا؟ من قال إن والدك مات؟

أصابني الذهول.

«لا، لا، هو لم يمت بعد»، صاحت بصوت ملوءه الزهو. «إنّه ينتظر عودتك أولاً! تعود إلى هنا متوقّعاً أن تجده ميتاً، أيّ صنف من الأبناء أنت؟».

«شكراً للسماء!» هتفت شينو، ثمّ ضربتني عدّة مرات على

ظهري بقبضة يدها وذلك نوع من العقاب. «شكراً للسماء! شكراً للسماء!» راحت تقول مراراً وتكراراً.

كان منزل أهلي في طبقتيه العليا والسفلى ساطعاً بالأضواء وقد التقطت أنواره المتناثرة من النوافذ رشّات المطر الصيفيّ مثل ما يفعل المنوار[1]. توقفت في طريقي للحظة منبهراً بذاك المشهد الليلي المضاء لبيتنا. لا أذكر أنّني رأيته ساطعاً على هذا النحو من قبل.

تقدّمت شقيقتي كايو نحو باب المدخل راكضة حين سمعت النداء العالي للجدّة كاجي، ورمت نفسها على الفور على كتفي. «هل فوجئتما؟» سألت بهدوء، وقد علت وجهها ابتسامة على الرغم من ذلك.

«أجل»، أجبتها مبتسماً، وكنت لاأزال منبهراً بروعة البيت.

استدارت كايو نحو شينو. «لا بدّ أنّك متعبة»، قالت لها.

«لا، أنا آسفة فقط لوصولنا متأخّرين»، أجابت شينو.

«لا بأس في الأمر، لا بأس فعلاً»، قالت شقيقتي وهي تهزّ رأسها وتجرّني برفق من الخلف وتدفعني إلى آخر الغرفة.

(1) المنوار: أداة لإسقاط النور الكشّاف.

كان أبي ممدّدا تحت دثار قرب الخزانة في غرفة تتّسع لاثنتي عشرة حصيرة تاتامي[1]. جلست أمي جاثية على الأرض بين الخزانة وبين الفوتون الذي يرقد عليه والدي، تمسك يده اليمنى في إحدى يديها وتلّوح بالمروحة في يدها الأخرى. قرب وسادته جلست خالتي، شقيقة أمّي الصغرى، المتزوّجة من مالك متجر للكحول في المقاطعة المجاورة.

«نحن هنا»، قلت عندما جثوت عند المدخل.

«أنت هنا؟» سألت أمّي وقد تغضّن وجهها بملامح الفرح. دنت خالتي بوجهها نحو وجه أبي. «انظر»، قالت له. «لقد وصل!».

غمغم أبي شيئاً غير مسموع وكان مازال ملتفتاً نحو أمّي. «ما هذا؟» سألت أمّي، مقرّبة أذنها إلى شفتيه. ثمّ استدارت نحوي. «يقول شكراً لمجيئك».

ضحكت خالتي. «لابدّ أنّ أمّك مترجمة - لا أحد غيرها يمكنه فهم كلمة واحدة ممّا يقول! أرأيت، إنّها الحياة الزوجيّة!».

«لا يستطيع الالتفات إلى هذا الاتّجاه يا بني، لماذا لا تقترب

(1) مساحة الغرفة في اليابان تقاس تقليديّا بعدد حصر التاتامي المفروشة فيها. كما تختلف مقاسات التاتامي بين منطقة يابانيّة وأخرى. ففي كيوتو مقاسات الواحدة منها تبلغ 0,95 متر بـ 1,91 متر.

إلى هنا؟» قالت أمّي مشيرة عليّ بمروحتها. تقدّمت إليه وأنا مازلت جاثياً على ركبتي ثمّ حدّقت في وجهه.

ظهر أكثر هزالاً مما كان عليه في الربيع الماضي حين رأيته لآخر مرّة، غير أنّ وجهه لم يتغيّر كثيراً. عيناه ووجنتاه بدت غائرة بعض الشيء نحو مؤخّرة رأسه، أو ربّما كان ذلك مجرّد ما تخيّلته. بدا أنفه وفمه مائلين نحو وجنته التي عصرتها وسادته قليلاً. لم أعرف إن كان سبب هذا يعود إلى مرضه. ثمّ إنّني مرّة أخرى عجزت عن النظر إلى وجهه من مسافة قريبة على نحو طبيعي. لم تبد ملامحه في غاية السوء. وجهه بلّله العرق وقد تورّد بلون زهري على نحو كامل كما من فرط الإثارة. بدا جزء محدّد من جبينه أحمر اللون، كأنّه لطّخ بحبر قرمزيّ، فكان إشارة أكيدة إلى شعوره الشديد بالضيق. منذ أن انهار للمرّة الأولى، أخذت مساحة حمراء تعلو جبهته على نحو تلقائي كلّما حل به التعب. أنفاسه ثقيلة بلا ريب وفمه مفتوح وهو يلهث. لكن في الإجمال، فقد صعب تخيّل أنّ الرجل هذا يعاني من مرض خطير وأنّه مشرف على الموت.

حتى أنّ مجرّد تغيير ناحية رؤيته تطلّب منه جهداً ملحوظاً. ببطء حرّك مقلتيه إلى الأسفل وتمكّن من النظر في وجهي بعد

جهد كبير. «أبي»، ناديته على نحو تلقائي إذ التقت أعيننا. وكي أكون صادقاً، فإنّ صوتي لم يكن طبيعيّاً، بل بدا مثل صوت طفل يقرأ من كتاب المدرسة. في تلك اللحظة، انتشر ملمح خجل حول عينيّ والدي. ثبّت ذقنه كأنّه يظهر انفعالاً وأطلق لهاثاً متقطّعاً ومحموماً من فمه الغائر. تلك كانت طريقته في الضحك.

«حسناً، حسناً، حسناً، أنظر كم أنت قوّي الآن!» قالت أمّي وهي تهزّ يد أبي اليمنى التي كانت تمسكها بيديها الاثنتين وتضعها فوق ركبتها. حين نظرت إلى يديها عن قرب، لاحظت أن ذراعيها ترتجفان على نحو عنيف وكأنّهما في صراع ليّ الأذرع، كما أنّني لاحظت للمرّة الأولى أنّ أمّي لم تكن تمسك يد أبي لمجرّد إظهار تعاطفها على الملأ. فقد علمت أنّها إن تركتها على عواهنها، فإنّ يده اليمنى تلك ستبدأ في القيام بحركات عاصية كما يحلو لها. بين حين وآخر، كانت تعبر في يده قوّة متشنّجة هائلة. كان واضحاً أنّ أمّي تجهد نفسها كي تبقي الذراع مثبّتة فوق ركبتها.

«ربّما من الأفضل عدم إثارته كثيراً»، قالت خالتي، ثمّ استدارت نحو أبي. «هذا يكفي الآن، أليس كذلك؟ أنت أفضل حالاً الآن، صحيح؟ لماذا لا تأخذ استراحة لذيذة»، قالت وكأنّها

تهدّئ روع طفل بسيط التفكير.

صدرت دمدمة عميقة بدت أشبه بخرير الهرّ من حنجرة أبي. وضعت أمي أذنها على فمه وهزّت برأسها. «يطلب إليكم ألا تقلقوا»، قالت لنا شارحة بعد استدارتها نحونا. «يقول إن عليكم أخذ استراحة الآن أيضاً».

انسحبنا إلى غرفة الجلوس حيث استرحنا قرب موقد النار المفتوح وشربنا بعض الشاي الأخضر الذي أعدّته شقيقتي.

«ما رأيك بحال والدنا؟ سألتني.

«في الحقيقة، الأمر يبدو غريباً. فهو في النهاية لا يبدو بحال سيّئة»، أجبتها.

«حسناً، أنت مخطئ في هذا - إنّه ليس في حال جيدة أبداً. لقد هدأ روعه أخيراً لكنّنا لا نستطيع الشعور بالرضا عن أنفسنا».

قبل أمسيتين من هذه، جاء إلى بيتنا معلّم شاكوهاتشي[1] يدعى أودا، وكان يرافق كايو في عزفها على الكوتو[2] في الطابق العلوي. كان موعد أبي المعتاد للذهاب إلى النوم، لكنّه في ذلك المساء مكث قرب موقد النار في غرفة الجلوس مستمعاً إلى

(1) آلة موسيقيّة نفخيّة تشبه الفلوت.

(2) آلة موسيقيّة وتريّة.

الموسيقى التي كانا يعزفانها في الطابق العلوي.

«أيّ طبقة هذه؟» سأل أمي بعدما استمع إلى عدّة مقطوعات عزفاها.

«كادجي ماكورا[1]، على ما أعتقد» أجابت أمّي.

«إنّها طويلة بعض الشيء»، قال أبي قبل أن ينهض ويتوجّه إلى بيت الخلاء. تلك كانت عادته في إراحة نفسه قبل رقاد الليل. عارض الإمساك المزمن الذي عانى منه لم يزدد إلا سوءاً مع مرضه وقد أخذ يقضي مزيداً من الوقت هناك في بيت الخلاء.

في تلك الليلة لم يكن قد عاد من بيت الخلاء حتّى بعد انتهاء «كادجي ماكورا». حين انتبهت أمّي إلى الأمر ونظرت إلى ساعة الحائط، كانت قد مضت عشرون دقيقة على وجوده هناك. قادها قلقها إلى فتح الباب عند المدخل المفضي إلى بيت الخلاء. «أيّها الوالد!» نادت. «لقد مضى عشرون دقيقة على وجودك هنا، هل تدرك هذا!».

«أعرف، أعرف. أنا على وشك الانتهاء الآن»، قال أبي من داخل بيت الخلاء وكأنّه لم يكن ثمّة من مشكلة. عادت أمّي إلى

(1) عبارة تعني حرفيا «الدفّة - الوسادة»، أي دفّة المركب الذي يمخر الماء على نحو هادئ. وهي اسم لطبقة موسيقيّة يابانيّة هادئة.

غرفة الجلوس إلاّ أنّه لم يخرج حتّى بعد مرور خمس دقائق. ثمّ بعد أن انتابها فجأة نذير الشؤم قامت وهرعت إلى بيت الخلاء مرّة أخرى. فتحت باب المدخل ولاحظت أنّ الباب الداخلي كان مفتوحاً أيضاً. كان أبي مازال قابعاً هناك غير أن جسده كان يميل متثاقلاً نحو اليسار.

«أيّها الوالد!» نادت أمّي، في شبه صرخة.

«لا تقلقي. ماذا هناك؟ ماذا هناك؟» غمغم أبي بصوت مبهم وراح يضحك. أمّا جسده، فقد ظلّ متّكئا هناك ولم يتزحزح. روّعها الأمر، فنادت أمّي السيّد أودا من الطابق العلوي. نزل الأخير وقام مع شقيقتي بمساعدتها على حمل أبي إلى فراشه. كان جسده ثقيلاً مثل زند خشب سميك منقوع في المياه.

بدا أن شقيقتي روت هذه القصّة مرّات عديدة أمام زائري أبي، وهي بدت معتادة جدّاً على روايتها إذ فعلت ذلك دون أيّ تلعثم. كما أنّها استخدمت الاسم الصحيح لمرضه - الإينسيفالوماليسيا[1]، ترقّق قشرة الدماغ. بعدها وعلى نحو مفاجئ أخفضت صوتها.

«برقيّتي كانت مضحكة، أليس كذلك؟».

(1) إينسيفالو: بادئة معناها الدماغ.

«لا»، أجبتها، «ليس تماماً».

«لا أعرف كيفيّة كتابة البرقيات، كما ترى. هذه كانت المرّة الأولى التي أرسل واحدة منها. حين أخبرت السيّد أودا عن الأمر، لم يبدر منه شيء سوى الضحك عليّ».

كايو في السادسة والثلاثين من عمرها والتي مازالت غير متزوّجة، تورّدت خجلاً وراحت تقهقه كفتاة صغيرة. بدا أنّها لا تخفي شيئاً عن السيّد أودا.

دخلت خالتي إلى غرفة الجلوس. قالت لكايو إنّ أمي تناديها، ثمّ جلست في الموضع الذي أخلته شقيقتي بعد مغادرتها الغرفة.

«لابدّ أنّك متعبة جدّا»، قالت خالتي لشينو وكأنّها تواسيها. ثمّ استدارت نحوي. «هذه قد تكون نهاية والدك»، قالت لي على نحو غير مبال.

«أجل»، أجبتها موافقاً.

«لو أنّ أخويك هنا فقط..».

لم أقل شيئاً.

«لا بدّ أنّه يودّ رؤيتهما أيضاً على الرغم من كلّ شيء. إن لم يكن بونزو، فإنّ تاكوجي كان ليبذل هذا الجهد بالتأكيد»،

قالت خالتي بحزن.

في الحقيقة، كنت قد استسلمت بالنسبة لموضوع شقيقيّ. كان قد مضى عشرون عاماً على ذهاب شقيقي بونزو في «رحلة موته»، وسبعة أعوام على انطلاق شقيقي الأصغر تاكوجي في رحلة الخيانة. في هذا الوقت، لم يرد من كليهما أيّ كلام، كما أنّنا لا نعرف إن كانا على قيد الحياة أم ميّتين. حتّى لو كانا حيّين وعرفا أن والدنا مشرف على الموت، لما كان ثمّة احتمال على الإطلاق، استناداً إلى طبيعة كلّ منهما، في أن يأتيا إلى البيت الآن. هما كانا من تخلّى عنّا. قضينا حياتنا ونحن نفكّر بأنّ ثمّة طريقة خاصّة للحياة بالنسبة للأشخاص الذين نبذوا. لم يعد هناك في حياتنا أيّ متّسع لعودتهما.

«دعك من شقيقيّ. أنا موقن أن أبي لا يودّ رؤيتهما. وأمّي كذلك» رحت أقول، لكنّني أحسست فجأة ورائي بحضور شخص ما. عندما التفتّ كي أرى كانت أمي تقف صامتة عند الباب دون أن يلحظ وجودها أحد.

منذ تلك الليلة وما تلاها، قسمنا أنفسنا إلى فريقين – أنا وأميّ من جهة مقابل شينو وشقيقتي – ورحنا كلّ ساعتين

نتبادل السهر للاهتمام بأبي طوال الليل. يجلس أحدنا بين فراش الفوتون وخزانة الثياب ممسكاً بيد أبي اليمنى، في حين يقوم الآخر بتحريك الهواء فوقه.

أدركت، إذ أمسكت يد أبي أن كلّ ما تبقّى من جسده كان قد خرج عن سيطرته. ذراعه اليسرى والجزء السفلي من جسده باتا عاجزين تماماً عن الحركة وكأنّهما فارقا الحياة. كما كادت تنعدم الحركة في شفتيه وجفنيه. اقتصرت قدرته الهزيلة في الإفصاح عن رغباته على استخدام أسفل ذراعه اليمنى نزولاً من عند المرفق، وذلك على الرغم من الحركة الانفعاليّة غير المنضبطة لهذا الجزء المذكور. عندما شددت على أصابعه، شدّ بدوره بقوّة غريبة. إن أمسكنا ذراعه برفق كي تبقى في الأسفل وتركناه يحرك يده، فإنّه سيجهد كي يتلمّس بأصابعه صدر الشخص الذي يساعده. في أوقات أخرى، كان يبذل محاولات حثيثة كي يضغط على ذقنه بطرفي إبهامه وسبابته.

اعتقدت في البداية أن أداء يد أبي هذا جاء كلّه نتيجة تشنّجات عصبيّة سبّبها مرضه، لكن في إحدى المرّات، إذ فرغت يده بعد جهود هائلة بذلتها من حلّ جميع أزرار قميصي من الأعلى إلى الأسفل، أدركت أن الأمر هو آخر ما تبقّى له من مقاومة في

مواجهة المرض وهو صلاته اليائسة لتوسّل الشفاء. منذ ذلك الوقت وما تلاه، صرت أتعمّد ترك يده تفعل ما يريده منها. فإن حاول الإمساك بتفاحة آدم[1] في حنجرتي، أتركه يفعل ذلك، فأتوقّف عن ابتلاع ريقي. وإن حاول الإمساك بأنفي، أقطع ببساطة أنفاسي وأنتظر.

جاء، بعد ظهر اليوم الذي تلا وصولنا، طبيب من مستشفى المقاطعة إثر إرسالنا في طلبه إلى بيتنا. سألني إن كان بإمكاننا التحدّث على انفراد وقد فعلنا ذلك في الغرفة المجاورة. قال الطبيب إن هذا الأسبوع سيكون حاسماً، فمع مرض والدي هذا، تتفتّق شرايين الدم في الدماغ واحداً إثر الآخر – في عمليّة لا تظهر أمام العين المجرّدة – الأمر الذي يتطلّب منّا الاستعداد لحصول الأسوأ في أيّة لحظة. بدا كلامه كأنّه حكم بالموت. ابن أخ والدي والذي كان عضواً في المجلس البلدي أو شيئاً من هذا القبيل، جاء مرّة أخرى لزيارتنا. «حسناً، إن سألتموني رأيي، فأقول إنّ عمّي لن يصمد حتّى مهرجان البون[2]»، قال مسلّما. لا يمكنني التأكّد من وفاة أبي إلا إذا تسنّى لي رؤية ذلك بعينيّ. لم

(1) الحرقدة: عقدة الحنجرة.

(2) طقوس بوذيّة يابانيّة لتكريم أرواح الأجداد الميّتين.

يكن لتوقّع الموت بالنسبة لي أيّ معنى. ومع ذلك، فقد أغضبتني اللامبالاة الحمقاء التي يظهرها الناس. فمن السهل على طبيب أن يعلن بصوته الهادر العالي حكمه التحذيري الاعتباطي الذي قد يصل بسهولة إلى مسمع المريض. وقد يخشى قرويّ ابن عائلة ميسورة مرض الرئة كما لو أنّه الكوليرا، لكن عندما يرتبط الأمر بترقّق الدماغ[1]، فانطق حينذاك بأيّ كلام عديم القيمة وقل، «لقد أصيب بها!». تعامل كلاهما مع والدي وكأنّه كان قد مات. بعبارة أخرى، لقد عاملاه بازدراء متعادل. نهضت وتركتهما دون أن أنطق بأيّة كلمة.

في أوّل المساء، أرادت خالتي العودة إلى بيتها. حين غادرت موضعها قرب أبّي ظنّ الأخير أنّ الأمر يعني مغادرتنا نحن أيضاً إلى طوكيو، فاضطرب اضطراباً شديداً. تمكّنت أميّ من إقناعه بأنّنا لا ننوي المغادرة إلا أنّه بقي مثاراً. بعد ذلك، راح ينادي أمّي ويسأل عنّي كلّما عجز عن رؤيتي. تعيّن عليّ البقاء في مجال نظره الصغير طوال اليوم خصوصاً في الليل. إذ إن أبي كان يخاف الليل كما يفعل طفل صغير.

في وقت متأخّر من إحدى الليالي، وحينما كنت ممسكاً يده،

(1) Encephalomalacia.

أفهمني بإشارة أنّه يريدني أن أقرّب أذني منه. ثمّ شرع في الحديث معي محرّكاً شفتيه بانتباه كي يتهجّى كلّ عبارة يقولها. كلامه الذي ترافق مع صفرة خافتة بلغ أذني متقطّعا بفواصل صمت بين الفينة والأخرى.

«متى... تعود... إلى بيتك؟ سألني في البداية.

أجبته أنّني باق.

«ماذا... عن... عملك؟» سأل.

كان أبي الشخص الوحيد الذي آمن إيماناً راسخاً في العمل الذي ثابرت عليه منذ أيّام دراستي، العمل الذي لا يتمتّع بوعود المكافآت الكبرى. ولو كنت استخففت بذلك العمل منتقصاً من قدر نفسي، لقوّس أبي حاجبيه ووبّخني على كسلي وخفض كتفيه غمّاً. لكن حتّى ذلك العمل على الرغم من قلّة أهمّيته، كان سيغدو عمّا قريب مدفوناً في جحيم حياتنا المعدمة. لو علم أبي أن كلّ ما بقي في حقيبتي هو كتاب مسرحيات دمى جيروري[1] لـ «تشيكاماتسو» لأصيب بخيبة أمل قد تسقطه ميتاً في مكانه. وعلى الرغم من الألم الذي أحسسته في قلبي، أجبته

(1) دراما يابانيّة أبطالها دمى. اسم هذه الدراما مستمدّ من حكاية رومنطيقيّة يابانيّة من القرن الخامس عشر بطلتها الرئيسيّة هي حسناء تدعى جوروري.

بأنّ حال العمل هو على ما يرام، وأنّني أحضرت معي إلى القرية عملاً كثيراً.

«سوف أكون هنا... بعض الوقت... كما ترى»، قال أبي.

بقيت موقناً حتى تلك اللحظة أنّه عازم على الحياة لزمن طويل. حين قلت له إنّ أحوالي كانت بخير حدّق في وجهي على نحو واهن وفاضت عيناه بانعكاس ضوء المصباح الكهربائي.

«حقّاً؟» سأل مستفهماً، كما لو أنّه أراد أن يتيقّن.

بقيت بعض الوقت عاجزاً عن إبعاد أذني عن شفتيه، ورحت أراقب وأنا في ذلك الوضع صدره الذي بانت عظامه وهو يجيش على نحو عنيف. كان عمق الارتياب عند والدي جديراً بالشفقة حقّاً. مسكين هو قلب الرجل الذي كان أباً لستّة أولاد قام أربعة منهم في أعمار مبكّرة بخيانته، وواحداً تلو الآخر، الأب الذي لا يستطيع حمل نفسه على الوثوق بي، أنا ابنه الوحيد المتبقّي. لم أقل شيئاً، إذ تملّكني حزن لا يحتمل، بل هززت يده بقوّة. بذاك ساد الهدوء قسمات وجهه.

«حسناً... حسناً».

أنا موقن من أنّه قال هذا. ثم أغمض عينيه في نصف إطباقة

وغفي على الفور، وراح يغط غطيطاً حادّاً مدهشاً.

على نحو تلقائي ساءت حال أبي يوماً إثر يوم. وهنت قوّة تشبّثه تدريجيّاً وسرعان ما فقد قدرة الوصول إلى صدورنا. ازداد لسانه ثقلاً ولم يعد بإمكانه فوق هذا احتساء مقادير قليلة من الطعام السائل التي ظلّ قادراً على تناولها إلى ذلك الوقت. ارتشاف شاي الهوجيتشا البارد هو الشيء الوحيد الذي ظلّ قادراً عليه، لكنّ حتّى الشاي المذكور بدأ يخنقه فراح يلفظه من فمه في أغلب الأوقات. الكلمة العرضيّة التي كانت تنزلق من شفتيه لم تعد تصل بسهولة حتّى إلى سمع أمي.

في اليوم الرابع، تلاشت ملامح وجهه كلّها. فقط حين كنّا ننظّفه إثر قضاء حاجته كان يعقد حاجبيه معبّراً عن انزعاج واضح. وإذ كنّا نبدّل ثيابه الداخليّة كانت مهمّتي تتلخّص في أن أقف مباعداً بين رجليّ وظهري على بطنه، فأقوم برفع ركبتيه. لم يعد جسده يشبه جسد الرجل الذي كان له من قبل – الرجل الذي بلغ طوله خمسة أقدام وعشر بوصات ووزنه مائة وخمسين باونداً، الابن ذي البنية القويّة لمزارع غنيّ والذي تعلّم الجودو في المدرسة الثانويّة، ومن ثمّ في عمر العشرين صاهر

عائلة أمّي متزوّجاً من الابنة البكر لتاجر كيمونو ذائع الصيت. لم يعرف عنه من قبل على نحو خاص أنّه كان سريع التبدّل، غير أنّه في أغلب الأوقات ظلّ دائم التنقّل والتردّد بين الوظائف في متاجر مختلفة في سنوات تدرّبه المهني، وهو سرعان ما بلور مقته الشديد للتجارة المحليّة. ثمّ وفي أحد الأيّام، في خضمّ إحباطه، أعلن «سأذهب إلى طوكيو كي أصبح مصارع سومو»، الأمر الذي حمل أمي على البكاء.

حين توجّهت لأمسك بساقيّ هذا الرجل، بدا جلده المسودّ طافياً فوق قمم عظامه، وحين رفعت تلك الساقين بأقلّ ما يمكن من جهد، ارتفعتا مستقيمتين في الهواء.

في اليوم الخامس، بدأ حلقومه يهدر دون توقّف. إنّه البلغم. راح البلغم يظهر تدريجياً منذ فترة قصيرة لكنّه في اليوم الخامس ازداد على نحو مفاجئ. لم يعد أبي قادراً على لفظه إلى خارج حلقومه. إذا نظرت داخل حلقه، أمكنني رؤية لسانه متورّماً في شكل أسطواني بنفسجيّ اللون، وملتصقاً في لثّته السفلى. وقد استقرّت آنئذ كتلة متقدّمة من البلغم في مؤخّرة حلقومه مشكّلة غشاء أبيض حليبيّاً هدّد في إغلاق قصبته الهوائيّة. كلّما تنفّس كان حلقومه يضجّ بصوت خشن أجشّ.

يقال في حال مرض ترقّق الدماغ إنّ النهاية تقترب عندما يظهر البلغم. ألقى الطبيب الزائر نظرة واحدة داخل فم أبي، فتجهّم وثنى ذراعيه كأنّه استسلم، ثمّ نظر إلى الخلف من وراء كتفه نحو الممرّضة، الأشبه بالطفل، التي كانت ترافقه. «أعطهم التعليمات حول كيفيّة إزالة البلغم»، قال الطبيب. طلبت الممرّضة زوجاً من العيدان[1] وأمسكت بعود واحد منهما. «هذا كي نتيقّن من أنّه لن يقضم لسانه»، شرحت لنا وأدخلت العود في طرف فم أبي. ثمّ لفّت القطن حول رأس العود الثاني. «وبهذا العود نقشط البلغم ونسحبه»، أكملت كلامها. وضعت العود الآخر داخل فم أبي ولفّته، ثم سحبته وصرخت. اختفى القطن الذي لفّته حول رأس العود. «حمقاء!» قال لها الطبيب موبّخاً. ثم قام بنفسه وأدخل العود في الحلقوم ولفّه، وفي النهاية أعاد إخراج القطن. قال شيئاً مثل «على أيّة حال، تأكّدوا من أن تفعلوا ذلك بطريقة صحيحة»، بعدها أعطى أبي حقنة منشّطة للقلب تساعد على إبقائه صاحياً، وغادر.

عندما حاولنا في الحقيقة القيام بما شرحته لنا الممرّضة، أدركنا

(1) العودان، أو الـ «تشوب ستيكس»، هما عودان يتناول بهما اليابانيّون والصينيّون طعامهم. chopsticks

كم لا يحقّ لنا، نحن من موقعنا هذا، لومها على محاولتها الفاشلة. غشاء كثيف ولزج من البلغم يشبه كائناً حيّا ذا مجاس[1] كان ملتصقا بقوّة في ثنايا حلقوم أبي. وقد أثير ذلك الغشاء وتحرّك مع كلّ نفس كان يتنفّسه، ما جعل مهمّة كشطه بواسطة القطن من هذه المسافة التي ينتشر فيها مهمّة بالغة الصعوبة. صرت موقناً أن حلقوم أبي سيسدّ عمّا قريب بكتلة كثيفة من البلغم إن لم نستمرّ في تنظيفه على نحو دائم. ولأنّ نظر أمّي وشقيقتي ضعيف، فقد تعيّن علينا أنا وشينو تولّي هذه المهمّة. قمنا بسحب خيوط عديدة من البلغم يبلغ طول واحدها نحو قدم واحد وهي موصولة ببعضها مثل أسلاك من الخرز، لكنّ المزيد منها استمر في الظهور بلا توقّف. ولأنّ فم أبي ظلّ مفتوحاً على نحو متواصل وقتاً طويلاً، فإنّ عينيه سرعان ما طفحتا بالدموع.

«لا تستسلم يا أبي. سوف أسحب بقدر ما أستطيع»، قالت له شينو كي تقوّيه حين قامت على نحو حاذق بسحب خيطين آخرين من البلغم. «أنظر يا أبي، أنظر كم سحبت منها»، قالت وهي تريه إيّاها.

«شكراً يا شينو. شكراً»، قال بصوت عال وواضح على نحو

(1) شعيرات الاستشعار عند الحشرات، أو الأسماك، أو الرخويّات.

عجيب كأنّه كان يدّخر الكلمات لهذه اللحظة.

وقد فاضت الدموع من عينيه نازلة نحو أذنيه. تساءلت للحظة إن كان ما سمعته حقيقيّاً وقد ساد الذهول في نظرة شينو. ثمّ نهضت الأخيرة مسرعة كأنّها تلقّت صفعة، فحجبت وجهها بيديها وركضت خارجة من الغرفة باكية.

هذان الخيطان الأخيران من البلغم كانا آخر ما استطعنا إخراجه من فم أبي. صار عاجزاً إثر ذلك عن إغلاق فمه ولم يعد بوسعه أن يبلع. وإذ كان يتنفّس على نحو بالغ الثقل، فسرعان ما جفّ فمه من الداخل، وراح البلغم فيه يزداد لزوجة. عندها، جفّ سطح لسانه تماماً وأخذ يتشقّق. الشقوق شرعت بالنزيف إثر أبسط اصطدام ملحقة بأبي ألماً مبرحاً جعله يحرّك يده في كلّ مرّة كما لو أنّه يقول «كفى». مؤخّرة حلقومه غدت كجوف كهف من الجير. وبالإضافة إلى ذلك وأمام ضرورة قيامنا بتليين مؤخّرة حلقومه بأصابعنا من وقت لآخر، تعيّن علينا باستمرار ترطيب لسانه الذي تشقّق كحقل أرزّ في فصل القحط وذلك عبر وضع الماء على طرف العود الذي كان من المفترض استخدامه لإزالة البلغم.

هزل أبي على نحو جليّ. بدا وكأنّه كان قادراً على تحسّس

دنو أجله، إذ إنّ نوعاً من الطاقة التي شابهت أحياناً نفاد الصبر، وأحياناً أخرى الألم المبرّح - والتي أوجعت كلّ من كان يشاهده - كان يمكن تلمّسها خارجة من جسده العاجز عن الحركة. بدأ يشكو من آلام الرأس ويهذي، على ما بدا، بكلمات مثل «ألعاب ناريّة». فكّرت إن كان قادراً ربّما على رؤية صور الأوعية الشّعرية[1] في دماغه وهي تنفجر مثل شرارات تنعكس على شبكيّتي عينيه المظلمتين.

في تلك الليلة، جاء الطبيب. «ليس ثمّة ما يمكنني فعله أكثر من هذا»، قال بأسلوبه المباشر. عالجه بحقنة كافور[2]، وهو أحضر معه بعض أجهزة التنفّس لضخّ الأوكسجين، لكنّ هذه تبقى ضربة نرد أخيرة لحظة انعدام الأمل. أظهر أبي قوّة مقاومة أخيرة حين أدخل الأنبوب المطاطيّ الأسود في فتحة أنفه، إلا أنّ الممرّضة سيطرت عليه بسهولة بوساطة يدها وألصقت الأنبوب المطّاطي في الموضع بين جبينه وجسر أنفه بشيء بدا مثل شريط السّيلوفان[3].

في تلك الليلة، جلسنا جميعاً حول فراش مرضه وتابعنا

(1) الأوعية الشعريّة في الدماغ.

(2) تعطى لتنشيط نبضات القلب.

(3) السّيلوفان: مادة رقيقة شفّافة شبيهة بالورق.

الاهتمام به. بدأت الريح تهبّ محرّكة الأجراس المعلّقة فوق إفريز السطح كي ترنّ طوال الليل.

جاء الصباح التالي، صباح الرابع من آب.

تباطأت أنفاس أبي على نحو ملحوظ وراح صدره يعلو وينخفض، لكنّ نفسه بدا ضعيفاً حتّى كاد ينعدم. كانت عيناه ثابتتين في اتجاه واحد ولم تكن تتحرّكان، في حين غدت يداه وقدماه باردة.

نادته أمي بصوت عال مرتين أو ثلاث مرّات دون أن يظهر أيّة ردّة فعل.

«الوالد يغادرنا»، قالت أمّي. «نادوه جميعاً، رجاء افعلوا ذلك؟ نادوه أرجوكم».

«أبي! أبي!» نادت كايو وشينو وهما تتشبّثان بجسده.

ربّتت أمّي بهدوء براحة يدها على صدره اللاهث وتكلّمت كما لو أنّها تحاججه. «يمكنك أن تغادرنا الآن بسلام يا أبي. سنعتني بـأنفسنا كما ينبغي. يمكنك مغادرة هذه الحياة بسلام». فيض من الدموع انهمر في راحتيّ يديها. صعقني الأمر على نحو غريب – كانت تدعوه إلى مغادرة الحياة في حين مازال هو

يتنفّس. إكراماً له، فقد أخجلتني لجاجة أمّي الظاهرة.

«أمّي، أرجوك لا تقولي هذا»، قلت لها. «إنّه مازال..».

«لكن يا بنيّ..». راحت تقول، فيما الدموع تنهمر من طرف أنفها. أوقفت نفسها عن ذلك وأبعدت يدها عن صدره.

في تلك اللحظة، مات أبي.

ارتمت النساء فوق جسده ورحن ينتحبن. أسندت ظهري إلى خزانة الثياب وثبّتّ ناظري في الفضاء الصغير فوق أبي وأنصتّ جيّداً. كنت رابط الجأش حاضراً كي أقبض بحواسي المختلفة على كلّ حدث، مهما صغر، قد يظهر فوق جسده في الدقائق القليلة التي تلت. لكن شيئاً لم يظهر. كلّ ما حصل هو تدفّق مادّة برّاقة لامعة من داخل فمه. كان ذلك بلغماً. بلغم في كتلة متراكمة رفضت بعناد الخروج من فم والدي مسبّبة له كلّ تلك المعاناة، وها قد غدا مجرّد سائل ليّن يتلألأ في ضوء الصباح محاولاً مغادرة جسده.

إنّه يشبه تماماً انسحاب عميل الشيطان الذي يحاول الآن العودة إلى قاعدته بعد أن ارتاح من مهمّته الوحيدة.

هذا هو الموت إذن، فكّرت وأنا واقف يسلبني تلألؤ البلغم الذي سال فوق لحية أبي التي بدت آنئذ نابتة في ذقنه على نحو

مفاجئ. لقد كان أوّل فرد من عائلتي يموت ميتة طبيعيّة. أسعينا نحن خلف الموت أم سعى الموت خلفنا، في أيّ وقت يحلّ فيه الموت في أيّ مكان ونتيجة لأيّ سبب، فإنّه إذ يصل ويغادر في جزء من الثانية يبقى موتاً واحداً لكلّ امرئ. لا يمكن أبداً أن يكون الموت جميلاً أو قبيحاً. في يوم من الأيّام، يأتي الموت وسرعان ما يغادر تاركاً خلفه جسداً ميتا لا غير. إنّه مذهل في برودته مرعب في قسوته. لا يترك مجالاً لأيّة عاطفة كي تنسلّ من خلاله. وهو لا يريد قبول الحزن على الفور. جعلني الأمر أفكّر في العار الذي أحسست به في كلّ مرّة مات فيها امرؤ حتّى الآن. وقد استنتجت أنّ العار ذاك كان نتيجة لمجرّد وهم مصدره إحساس دونيّ سببه دمي. كلّ الأوهام تتحطّم أمام وجه الموت. في الحقيقة، فشل إحساسي المعتاد بالعار في الظهور.

ومع ذلك، بدت أمراً غريباً عودة ملمح نابض بالحياة إلى وجه أبي بعد أن فارق الحياة وخمد. رحت بين فينة وأخرى أتفقّد جسده الذي سجّي ورأسه موجّه نحو الشمال حسب التقاليد. لقد انبهرت حين رفعت قطعة القماش البيضاء التي غطّت وجهه. كان ثمّة تحوّل معجز

يظهر هناك مع كلّ لحظة تمرّ. كان أوّلها ملامح وجهه التي تشوّهت جرّاء معاناة صراعه مع المرض وقد استراحت الآن على نحو تدريجي. كان الوجه الذي غدا أبيض قد بدأ أخيراً باستعادة لونه.

كانت هذه حيلة نصبها الموت. تعبير سكينة غريب، لم يسبق لي أن رأيته من قبل، حلّ في ملامحه. لم يظهر وجهه أيّ أثر للمشاعر المختلفة التي عذّبته طوال سنواته السبعين - العار، والأسى، والندم، وتأنيب الذات، والصلاة، والاستقالة، وغيرها من المشاعر التي كانت بلا شكّ غريبة عن الهناء. وعلى الرغم من معرفة الحيلة الكامنة في الأمر، فقد تعذّر عليّ عدم الإحساس بفيض من المشاعر، بالتحديد مشاعر الندم. ما صعقني وأنا أحدّق في وجه أبي الميت، الذي تحوّل عندها إلى ما يشبه تماماً قناع نو[1] لرجل مسنّ، هو أنّه لو تسنّى لذلك الوجه الظهور بملامحه القويّة هذه حين كان أبي مازال حيّاً، لكانت خطايا أولاده الأربعة الأوائل ستلطّخه بالعار. كان خزياً لي شخصيّاً ذاك المتأتّي من معرفة أنّه كان على أبي قضاء حياته كلّها مع ذلك العار. حرّر الموت

(1) مسرح ياباني تقليدي، درامي وموسيقي، ظهر منذ القرن التاسع عشر.

أبي من كلّ عار، أمّا خزيي فسيدوم.

أدركت أخيراً أنّ أبي غدا في الحقيقة بين يدي الموت. أصابني حزن يفوق الوصف، وآنئذ فقط بدأت دموعي تنهمر.

عرض الفانوس السحري

شدّت أورين ابنة الثمانية أعوام وجنتيها كي تكوّن فيهما غمّازتين غائرتين، وأصدرت صوت امتصاص وقالت، «لقد أصبت بالسفلس[1]».

«أووه. هل هو إحساس جميل؟» سألتها، مقرّباً وجهي إلى وجهها. كنت في السادسة من عمري.

«كيف يمكن أن يكون إحساساً جميلاً؟! إنّه سمّ. سمّ رهيب. يعيش داخل جسدي».

فتحت أورين عينيها باتساعهما، لكنّها لم تبح بأيّ ملمح حزين. لم يرضني الأمر، فقمت بقرص رجلها.

«أوو!».

(1) مرض السفلس Syphilis.

«تقولين إنّ سمّاً رهيباً يعيش داخلك، لكنّك لا تبدين حزينة أبداً!».

«بلى. أنا حزينة»، قالت، وقد تجهّمت على نحو مفاجئ».

«إن كنت حزينة، فلماذا لا تبكين إذن؟».

«حسناً، سوف أبكي! لكن كفّ عن مضايقتي!».

أرخت أورين شفتها السفلى وراحت تبكي. عندما رأيت فمها وقد امتلأ باللعاب الذي بدأ خيط طويل منه يتصبّب عبر فتحة بين أسنانها الصغيرة النخرة، شعرت بالرضا.

«يمكنك التوقّف عن البكاء الآن».

توقّفت أورين عن البكاء في الحال ومسحت فمها في هدب الكيمونو الصغير الذي كانت ترتديه. وعندما فعلت ذلك تسنّى لي رؤية بطنها المنتفخ على نحو غير طبيعيّ كان بطنها يعكس لون الطحالب النابتة على الأرض وقد بدا مثل بطن ضفدع.

«إذا كان هذا السمّ يعيش داخل بطنك السمين، فكيف دخل إليه؟» سألتها مظهراً الودّ.

«هو لم يدخل إلى بطني، بل ولد معي. هنا، انظر إلى أظافر أصابعي. إنّها مشقّقة كلّها على نحو طولي، أترى؟ يقولون إنّ هذه علامة السفلس. وحين يكبر المصابون بمرض السفلس، فإنّ

أنوفهم تتساقط».

فتحت أورين عينيها على وسعهما مرّة أخرى وبدت في الحقيقة كأنّها تتكلّم باعتزاز. حدّقت في أنفها الشامخ على نحو أنيق. لماذا سيسقط؟

«كاذبة! من قال هذا؟».

«أمّي قالت هذا. قالت إنّ أمّي الأولى لم تكن لطيفة».

«هل لك أمّان؟».

«أجل. لكنّ أمّي الأولى ذهبت إلى نهر مابيتشي ومضت بعيداً فوق الجبال، بعيداً جدّا، وتركتني. لذا فلي الآن أمّ واحدة».

هذه الأخيرة كانت زوجة أبيها، امرأة ذات عينين سوداوين حادّتين تتكلّم بصوت أجشّ.

«هل مازلت تريد الزواج منّي على الرغم من ذلك؟» سألت أورين.

«أجل».

«لقد قلت هذا مرّات عديدة من قبل».

«حتّى لو تساقط أنفي؟».

«أجل. حتّى لو تساقط أنفك».

«ماذا ستقدّم لي حين نتزوّج؟».

«ياقة للكيمونو».

«ما لونها؟».

«خوخيّ».

وقفت أورين بحماسة. منذ أن أكّدت لها أنّ لون ياقة الكيمونو التي سأقدّمها لها سيكون خوخيّا فإنّها تقف متحمّسة هكذا على الدوام. ثمّ تنطلق إلى بيتها مسرعة دون قول إلى اللقاء وكأنّها تطارد شبح تلك الياقة.

تدير عائلتي متجراً للكيمونو في البناية الثانية بعد زاوية الشارع الرئيسي. كنت الصبيّ الثالث في العائلة والأصغر بين ستّة أبناء. شقيقاي وشقيقاتي كانوا جميعاً يكبرونني عمراً، حتّى أن شقيقتي الأقرب كانت تكبرني بعشرة أعوام. الأولاد الخمسة الأوائل في العائلة ولدوا جميعاً بفاصل سنة واحدة عن بعضهم البعض، أمّا أنا فقد وصلت متأخّراً مثل فكرة متأخّرة طائشة.

لم يعش في القرية أحد من أشقّائي وشقيقاتي. وحدنا، أنا وأبي وأمّي، عشنا في البيت إضافة إلى خادمة ومتدرّبين.

كانت أورين رفيقة لهوي الوحيدة. يدير والدها كشكاً لبيع كعك هريسة الفول قرب مدخل الخدمة لمبنى مصرف إسمنتي

الجدران بمحاذاة بيتنا. في أحد الأيام، كنت واقفاً عند واجهة متجرنا فجاءت أورين تسير متمايلة وألصقت وجهها في الزجاج.

«ما هذا؟» سألت.

«ياقة للكيمونو»، أجبتها.

بعدها راحت أورين تأتي في كلّ يوم كي ترى الياقة. في تلك الأثناء، كانت تخبرني عن سفلسها وتجعلني أعدها بالزواج ثمّ تعود إلى البيت. كانت تلك عادة يوميّة ثابتة لا تتغيّر. حين تعود أورين إلى البيت، كنت أشعر بأنّ اليوم قد انتهى. وعلى هذا النحو في عمر السادسة، عشت حياة راضية هادئة مع عائلتي.

في فصل الربيع عندما كنت في السابعة في صباح هبّت فيه رياح آذار، كنت في متجرنا أراقب غورو، أحد المتدرّبين، وهو يستمتع في أخذ نفسٍ من عقب سيجارة أبي وذلك حين دخل شرطيّ إلى المتجر. أسرع غورو في إخفاء السيجارة في رماد الموقد وانتصب واقفاً.

«أهذا هو المكان الذي تعيش فيه مينا؟» سأل الشرطي ثمّ نظر بسرعة إلى دفتر ملاحظاته. لم يقل غورو شيئاً، بل حنى رأسه متذلّلا وانسحب إلى آخر المحلّ كأنّه ينوي الهرب. حين

خرجت أمّي من الغرفة الخلفيّة أحنى الشرطي رأسه أمامها وأعاد طرح السؤال نفسه.

«أجل»، أجابت أمّي، «مينا هي ابنتي الثانية».

طرف الشرطيّ بعينيه على نحو عصبي. «في الحقيقة..». قال، ثمّ التفت نحوي فجأة وأطبق فمه. ارتعدت هلعاً وركضت إلى آخر المتجر. وحين عدت كي استرق نظرة خاطفة عبر فتحة تتخلّل الفاصل الخشبي الذي يحيط بطاولة الحساب، شاهدت أمّي تنهار مكوّمة على الأرض أمام الشرطي.

وقفت على نحو غريزي. أشار لي الشرطيّ جامحاً إذ لمحني واقفاً هناك. «أنت هناك! أسرع وناد أباك؟» قال هاتفاً. كنت على وشك الدخول إلى الغرفة الخلفيّة حين قامت أمّي، التي كانت قد سقطت على الأرض، مستعيدة وقفتها وكأنّ شيئاً لم يحصل.

«شكراً لتبليغك إيّانا»، قالت للشرطي لكنّها إذ خرج مغادراً عادت وسقطت على الأرض وذراعاها حول ركبتيها.

زوبعة رياح حلّت في بيتنا بعد ذلك.

كلّما هبّت الرياح في شارعنا مكوّنة وراءها سحباً من غبار كانت الستائر السوداء والبيضاء المتميّزة، المعلّقة على طول واجهة

المتجر، تصفق وتتطاير أو تسارع للالتصاق بالباب الزّجاجي. أناس لم أرهم من قبل كانوا، ووجوههم محنيّة، يدخلون من الجزء التي تجمّعت فيه الستائر. كان بعضهم ممن أعرفهم، لكنّهم كانوا لا يعيرونني إلا اهتماماً بسيطاً أقلّ من المعتاد.

«ما الذي يحصل؟» كنت أسال.

«لا شيء. لا شيء. تعرف لاحقاً»، يجيبون جميعاً قبل دخولهم حجرة المذبح البوذي.

في غرفة المذبح، كان البخّور مشتعلاً. جاء كاهن وأنشد المحاورات[1].

أخبرتني المربّية أنّ هناك من مات.

بعد مرور يومين، انطلق موكب جنازة من منزلنا بعد الظهر. جرّتني المربّية بيدي وتبعنا الموكب نحو المعبد.

كشف داخل المعبد عن عالم من الحجب. وعندما استمعت إلى الموسيقى الغريبة وإلى أصوات الرهبان تدندن تحت انعكاسات الضوء المتلألئة، رحت أشعر كما لو أنّني في حلم. ذهبت كي أقف مع أمّي قرب المذبح ناثراً بعض مسحوق بني اللون في النار وضامّاً يديّ إلى بعضهما البعض في وضعيّة صلاة.

(1) المحاورات البوذيّة.

علّقت فوق المذبح صورة كبيرة في إطار. حين رأيتها ابتسمت تلقائيا لمن في الصورة. كانت شقيقتي الوسطى مينا. بدا شعرها مجدولاً ومتدلّياً فوق عنقها من الجهتين. ترتدي على الدوام سراويل هاكاما[1] أرجوانية اللون. شدّت أمّي كمّي قميصي وعدنا إلى مقعدينا.

«لا تبتسم!» قال لي أخي الثاني موبّخاً، هو الذي كان قد عاد من طوكيو.

قبل وقت من انفضاض المراسم، اقترب من أبي رجل مسنّ يرتدي كيمونو رسميّاً وكلّمه هامساً. ثمّ انحنى لنا بتهذيب وتقدّم ليقف أمام المذبح.

«مينا، لماذا متّ؟» صرخ على نحو مفاجئ كما لو أنّه يعنّفها. بدا جسد الرجل المسنّ شديد الترنّح جيئة وذهاباً.

«مينا، لماذا لم تقولي لي شيئاً؟» قال وذقنه يرتعش. «ألم نكن رفيقين في الشعر؟» أضاف وقد غدا صوته خفيضاًهامساً على نحو مفاجئ. وقف هناك بعض الوقت مطأطئاً رأسه. شرع الناس حولنا في البكاء.

هبّت رياح عنيفة حين بلغنا المقبرة. اهتزّت علامات القبور

(1) سراويل يابانيّة تقليديّة فضفاضة.

الخشبيّة كلّها بفعل قوّتها. وأكمل موكبنا الذي تقدّمه كاهن فتى يحمل جرساً سيره عبر درب ضيّقة مرصوفة بالحجارة تفضي إلى القبر الجديد. في كلّ مرّة كانت أغصان البولفينيّة[1] الضخمة تئنّ بفعل الرياح، رنين الجرس يتوقّف فجأة، فيعود الفتى إلى قرعه وسط الصمت. أذكر أنّني شاهدت، هناك فوق قمم الأشجار، طائرة ورق حمراء وحيدة معلّقة في السماء بلا حراك، وكأنّ السماء قابضة عليها بإحكام.

أدركت أنّ عائلتي كانت تخشى إخباري عن موت مينا. وأنا بدوري لم تتملّكني سوى رغبة بسيطة في السؤال عن ذلك الموت، خاضعاً للصمت السرّي المثير الذي خيّم فوق بيتنا.

صامتاً كان أبي يعمل معداده خلف الفاصل الخشبي المصبّع[2] حول طاولة الحساب. ينظّف بين حين وآخر حنجرته على نحو فظّ ويلفظ البلغم. يرفعني أحياناً، لكنّه كان يدسّ أنفه في خدّي قائلاً «لك رائحة الحليب»، ثمّ يعيد إنزالي في الحال.

أمّي التي احمرّت عيناها بدت ساهمة معظم الوقت، لكنّها كانت تعنّفني على نحو هستيري دون أيّ إنذار.

---

(1) شجر صينيّ عطر الزهر.

(2) فاصل خشبي، أو «برفان»، هو عبارة عن حاجز من القضبان المتصالبة.

في منطقة غير بعيدة عن بيتنا كان ثمّة متجر عام يملكه خالي. بدت نوافذ المرصد الزجاجيّة على سطحه، النوافذ المرئيّة من بهو بيتنا، شديدة التوهّج عند الغروب، كأنّ ناراً اشتعلت بها. تماماً خلف متجر عام، قام بيت خالي الذي أسميناه «البيت الكبير». هذا الأخير كان بيت عائلة أمّي. كان خالي شقيقها الأصغر.

شقيقي الأكبر فوميا لم يعمل فقط مساعداً لخالي، بل أيضاً عاش هناك في البيت الكبير كي يتسنّى له بذلك تعلّم كلّ ما يتعلّق بإدارة الأعمال.

كان نحيفاً مثل عصا المدمّة[1]، وطويلاً ذا وجه صغير على نحو غير طبيعيّ. يرتدي كيمونو أسود اللون ويشدّه بإحكام عند الخصر بواسطة حزام أوبي. من حين إلى آخر، كان يعاني نوبات سعال خفيف طويلة. وهذا كلّ ما عرفته عنه.

حتّى إنّني في البداية لم أعرف من يكون وما صلته بي. كنت أطرح أسئلة سريعة على البائع المسنّ في البيت الكبير، أسئلة سلّته كثيراً. أخبرني البائع المسنّ أنّ فوميا هو شقيقي الأكبر. «أووه»، قلت مفكّراً. إذ أنّ الأمر لم يرتبط فقط بالفارق في السنّ الذي جعلنا نبدو مثل أب وابنه، بل إنّني لا أذكر أبداً عيشي معه في

(1) أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة أو تسويتها.

بيت واحد، كما أنّ فكرة مشاركتنا الدم ذاته لم تراودني على الإطلاق.

مرّة، في قاعة الاستقبال في بيت خالي، تناولنا أنا وهو طعام العشاء معاً. كنّا نأكل سمك قريدس مقلياً. تناولت أحدها بواسطة عوديّ الطعام وقضمته مستمتعاً.

«هل يمكنك أن تكون أكثر هدوءاً في الأكل؟» سألني أخي على نحو نزق. هززت رأسي وقضمت القريدس بتهذيب أكبر، ثمّ أعدت ما تبقّى منه إلى الصحن ذاته. «لا تعد طعاماً كنت قد بدأت بأكله!» قال لي بغضب أكبر هذه المرّة وعيناه تومضان خلف أهدابه الطويلة. هززت برأسي مرّة أخرى، لكنّ العادات المزمنة لا تختفي بهذه السرعة. لم يمض وقت طويل على كلامه حتّى أعدت تكرار الأمر مرّة أخرى. حين أدركت ذلك ونظرت إلى وجهه، التقت عيناي بنظرته الصاعقة ولم أستطع كبح ضحكي العصبيّ على حماقتي.

عروق زرقاء بدت بارزة في جبينه الأبيض المتراجع قليلاً. أمسك غطاء عودي طعامه الأحمر المصقول بيده المرتجفة وضربني بقوّة على رأسي دون أن ينبس بكلمة.

باستثناء تلك الواقعة، اختفت صورته تماماً من ذاكرتي. كنت

أتذكّر هيئته كلّما رأيت صورة بلشون[1] في كتاب صور، لكنّي مازلت عاجزاً حتّى عن تذكّر اسمه.

شقيقي الثاني تاكوجي عاش في طوكيو وكان يأتي إلى القرية مع نهاية كلّ عام. درس الكيمياء التطبيقيّة في الجامعة التقنيّة وراح يعمل آنئذ مهندساً في معهد للأبحاث.

في صباح أحد الأيّام حين اقتربت عودة شقيقي الثاني إلى البيت، أخذتني المربّية كي ألقاه في المحطّة. لم تكن معرفتي به أفضل بكثير من معرفتي بشقيقي الأكبر، لكنّي مازلت أذكر وجهه على نحو مبهم.

حين انسحب القطار، لم يصعب عليّ إيجاد شخص يشبه شقيقي الثاني بين الركّاب الذين نزلوا إلى رصيف المحطّة. جاء عبر بوابة قطع التذاكر ينفث سحب أنفاس باردة وذقنه محجوب تماماً في ياقة معطفه. تملّكتني فجأة عندما اقترب إلينا مشاعر غريبة لم أفهمها تماماً، فأدرت له ظهري. عرفته واحداً من إخوتي دون تردّد عندما كان لايزال بين مجموعة من الأشخاص، لكن حين رأيته عن قرب في المكان الذي انتظرناه فيه، صدمني إحساسي بأنّه غريب تماماً وعلى نحو كلّي بالنسبة لي.

(1) طائر مائي هو مالك الحزين.

لم يتمكّن أخي أبداً من تذكّري جيّداً إذ كنت أتغيّر على نحو كبير في كلّ عام، فيما لم يسبق لمربّيتي أن التقت به وهي كانت معتمدة كلّ الاعتماد على ذاكرتي المشوّشة.

«إنّه لم يأت»، قلت مدمدماً بمزاج كئيب وقد سادني إحساس بخيبة أمل حقيقية إذ تبعت أخي الذي مشى أمامنا خافضاً بصره وجسده يميل قليلاً نحو حقيبة ثيابه البنّيّة التي يحملها.

عندما وصلنا، أجلستني أمّي على ركبة أخي. «ألم تعرفه؟» سألتني وهي تتبادل معه النظرات وتضحك. داعب أخي رأسي بيده وأعطاني ألواح شوكولاته جلبها معه لها على شكل أفيال ودببة.

في شهر نيسان ذاك، قبلت في المدرسة الابتدائيّة المحليّة. أشجار جمّيز ضخمة كانت تنتصب عالية عند بوابة المدرسة من الجهتين.

في مقابلة الدخول، ابتسمت المعلّمة وسألتني: «كم لك من الأشقّاء والشقيقات؟».

لم أستطع الإجابة على الفور. أبي الذي كان يرافقني سارع في القول، «أربعة». ثمّ سمح لي بالانضمام إلى المدرسة.

منذ يومي الثاني هناك، رفضت قيام أمّي بمرافقتي. تلامذة كثر ذهبوا بمفردهم حتّى في اليوم الأوّل. كانوا يلوّحون بالحقائب التي تضمّ صنادل زوري[1] التي معهم ويتصايحون بأصوات عالية في طريقهم إلى المدرسة. تملّكني خوف غريب تجاه حماستهم العالية. عندما ألحّت أمّي على مرافقتي حتّى بلوغ بوابة المدرسة على الرغم من رفضي قمت من يأسي برفس جذع إحدى شجرات الجمّيز الضخمة. وقد طوّرت عادة رفس جذوع الشجرات المذكورة عند بوابة المدرسة، كلّما أردت تشجيع نفسي.

بدأت أتردد إلى منزل شقيقاتي الكبريات الواقع في ناحية سكنية هادئة من البلدة، وذلك لتلقّي مساعدتهن في واجباتي المدرسيّة. استأجرت شقيقاتي منزلاً كبيراً ذا بوابة معدنيّة مبرشمة[2] على الطراز القديم، وقد علّقن عليها لافتة تعلن عن «دروس في الكوتو[3]».

كانت لي شقيقتان أخريان إلى جانب شقيقتي الثانية مينا. الشقيقتان الناجيتان كلاهما كانتا تعانيان عاهة خلقيّة بائسة؛ إذ

(1) صنادل خفيفة تصنع من القماش والقش.

(2) مسمار البرشام يستخدم في تثبيت قطع المعدن ببعضها البعض.

(3) آلة موسيقيّة وتريّة.

كانتا شحيحتي النظر منذ الولادة ومقل أعينهما مغطّاة على نحو كامل بغشاء رمادي. وقد قالتا إنّه إذا وضعتا نظّارات مظلّلة فوق أعينهما، فإنّ الأمر قد يسمح لهما برؤية ملامح وجوه الأشخاص مبهمة. إلا أن القدرة على احتمال رؤية الأشياء مبهمة فحسب قد تكون في الحقيقة أكثر صعوبة من احتمال العمى التام. في محاولتهما لرؤية الأشياء بوضوح أكبر، قامتا بتطوير عادة هزّ وجهيهما على نحو خفيف من جهة إلى أخرى. وتلك بدت عادة محزنة حتّى بالنسبة لي. كنت كلّما أراهما مقبلتين من آخر الشارع أشعر بشيء عالق في حلقي وأقف متيبّساً في مكاني. وضعتا نظّارتيهما المظللتين المتشابهتين وسرنا يداً بيدّ وهما تنسلان ببطء عبر طرف الطريق.

شقيقتي الكبرى آيا حازت شهادة عازفة كوتو من مدرسة إيكوتا. كايو، شقيقتي الثالثة، وعلى الرغم من عدم حصولها على أيّة شهادة، لم تشعر أبداً بعقدة نقص في براعتها الفنيّة. ما يقدّر بنحو ثلاثين تلميذة كن يأتين يومياً لتلقّي الدروس فيمتلئ البيت، الأكبر بمساحته ممّا كان مطلوباً، بأصداء أصوات الكوتو من الصباح حتّى المساء. يفيض البيت بإشراق سحري طوال الوقت الذي كانت تسمع فيه أصوات الكوتو. لم يكن هناك أيّ

من لمحات الأطياف المظلمة الأبعد، المرافقة لبلوى شقيقتي.

لم تجبرني شقيقتاي على الدرس. كانتا، بدل ذلك، تخبرانني قصصاً لا تنتهي من حكايات الجن الأجنبيّة ومن التراث الياباني. حكاياتهما تلك بدت لي أكثر إمتاعا بألف مرّة من واجباتي المدرسيّة لدرجة أنّني كنت أنسى الذهاب إلى البيت فأقوم عوضاً عن ذلك بانتظار انتهائهما من التعليم. بدا لي مدهشاً جدّاً كيفيّة نقرهما أوتار الكوتو الرفيعة الثلاثة عشر دون أيّ خطأ يذكر على الرغم من نظرهما الضعيف. بدا الأمر أقرب إلى المعجزة. حين كانت شقيقتاي تغيبان كنت أجلس أمام الكوتو سرّاً وأقلّد الوضعيّة التي رأيتهما تتخذانها إذ تعزفان. لكن إذ أغمض عينيّ كنت أفقد كلّ حسّ بالأوتار، فتضيّع الريشة هدفها تماماً ولا أصدر سوى صوت يخدش الآذان.

كان لشقيقتي آيا صديق واحد لا غير. كان شاعراً يدعى ساسا تانسوي.

نشر ساسا على الدوام أشعاراً طويلة في الصحيفة المحليّة. هو ابن عائلة ساموراي مرموقة قام بتبديد ثروته على نادلة مقهى محلّية، وقد أشيع أنّه كان قد جرّد من ملكيّة بيته. رجل ذو قامة سامقة، كان على الدوام يرتدي كيمونو غير رسمي، ويغطّي

رأسه بقبّعة رقيقة متجعّدة أرخيت فوق حاجبيه، كادت تحجب عينيه. مقدّمتا ساقيه ناتئتان مثل قصبتين تحت حاشية الكيمونو وكان يرتدي صندلاً من لبّاد في قدميه. أدرك أن آيا كانت قارئة مثابرة لمجلّة ريجوكاي الأدبيّة حيث نشرت من وقت لآخر مساهماتها، وذاك على ما بدا كان سبب زيارته الأولى. بعدها راح يتردّد بالمجيء على نحو غير متوقّع حتّى لو لم يكن ثمّة غاية محدّدة.

قدّرت آيا صديقها الوحيد ساسا تانسوي. لكنّ كايو وتلميذاتها كنّ يخفن منه ويدعونه الشيطان. وإذا شاهدته واحدة من التلميذات قادماً عبر بوابة المدخل، كانت تصرخ «إنّه الشيطان»، فتحبس الأخريات أنفاسهنّ.

وعلى الرغم من ذلك، وفي بعض الأحيان كان ساسا يظهر واقفاً في الحديقة الأماميّة قبل أن يراه أحد في غفلة عن الجميع. كانت التلميذات الأشبه بالطفلات يصرخن ويتجمّعن حول شقيقتي. لم أكن أخاف منه، إذ إنّني لم أحسبه سوى غريب الأطوار، وكنت أشاهد تلك اللقاءات الغريبة بين آيا والشيطان، فلا أتزحزح من موقعي عند طرف الشرفة.

كان يصل الشيطان في العادة عند الغسق. طريقة مرور

هامته المحنيّة النحيلة عبر الضوء الشاحب المصفرّ، هامته التي تبدو إذ يتقدّم طافية بين النباتات في الأحواض، جعلته كأنه ينثر في مشيته بعض هواء شبحي فاسد. كان الشيطان، دون إعلان عن مجيئه عند باب المدخل، ينسلّ إلى الحديقة في الحال ويقف تحت شجرة حرير[1] تتساقط منها أزهار حمراء قرنفليّة. ثمّ، كما لو أنّه يستجمع شجاعته، يقوم بصفع الهواء مرّتين أو ثلاث مرّات بعكّازه المصنوع من قصب البامبو والذي يشبه السوط، ويتنحنح على نحو مسموع منظّفاً حنجرته. من المفترض أن ذلك كان إشارة لآيا، إذ حينها كانت شقيقتي تظهر على الشرفة جاثية على ركبتيها، متورّدة الوجنتين بعض الشيء، فيتقدّم نحوها بخطى سريعة مستلاً كتاباً سميكاً بغلاف أسود من جيب معطفه الداخلي ومسلّما إيّاه إلى شقيقتي دون أن ينبس بكلمة. تخرج رسالة من الكتاب دسّت داخل صفحة العنوان وتوجّهها نحو الضوء الواهن وتقرؤها وأنفها ملتصق بها، ثمّ تنحني بخشوع وتنسحب إلى الخلف نحو غرفة الدرس. في الغرفة الأخيرة، كانت رفوف الكتب تكتظ ممتلئة بمجموعات الكتب العائدة إلى شقيقتي.

(1) المقصود بها شجرة التوت.

كان الشيطان على نحو متواصل يلكز بعصاه فخاخ النمل المصفوفة تحت الشرفة، ويقف هناك بعض الوقت غير عابئ بشيء، إلى أن تعود شقيقتي من غرفة الدرس حاملة كتابين أو ثلاثة تحت ذراعها. باستلامه الكتب كان يعليها في الهواء وينحني شاكراً - دون رفع القبّعة عن رأسه - قبل أن يدسّها في جيب معطفه الداخلي. يتراجع ببطء إلى الخلف حتّى يبلغ جذع شجرة الحرير، وطرفا فمه محنيّان إلى الأسفل مكوّنين تجاعيد عميقة حول أنفه من الجهتين. ثمّ يغيب عن أنظارنا فجأة برشاقة خطو تناقض طريقة وصوله.

تبقى شقيقتي عند طرف الشرفة ناظرة نحو البوّابة بعينين تكادان لا تريا شيئاً.

ترافق الخريف مع سلسلة أحداث تعيسة.

في مطلع الخريف، ماتت آيا على نحو مفاجئ. قبل ثلاثة أيّام من موتها غرقت في نوم عميق وعجزت الصيحات حتّى عن إيقاظها، وبذلك حلّ الاضطراب داخل بيتنا. استمرّت في النوم مصدرة الغطيط طوال الأيّام الثلاثة التي تلت، وفي النهاية لم تصح أبداً.

في اليوم الذي تلا موتها، هطل الرذاذ من الفجر حتّى الغسق. رفع الحمّالون الذين ارتدوا بدلات عليها اسم متجرنا نعشها على أكتافهم وأخرجوه عبر البوّابة. خارج البوّابة، انتظرت عربة النعش.

وصلت على نحو مفاجئ سيّارة سوداء للشرطة وترجّل منها فور توقّفها أمامنا شرطيّ يرافقه صليل سيفه.

«أنتم هناك! أوقفوا إخراج هذا النعش»، صاح بصوت عال رافعاً يده. شرطيّان آخران ورجل يرتدي برنساً أبيض خرجوا أيضاً من السيّارة وراءه. أحاط هؤلاء الأربعة بوالديّ وأخذوا يتجادلون. بدا والدي صارّا على أسنانه قائلاً، «أقول لكم لقد سبق وفعلنا هذا. إنّنا ذاهبون الآن إلى المحرقة[1]».

«لا يحقّ لك وضع النعش هنا. أبعده على الفور»، قال أحد رجال الشرطة على نحو متعجرف.

مرّة أخرى رفع نعش آيا على أكتاف الحمّالين وأعيد إلى غرفة الاستقبال في بيتنا. كاسوكي، نجّار العائلة، استخدم مخلاً كبيراً كي يخلع غطاء النعش ويفتحه أمام رجال الشرطة. علا في أرجاء الغرفة موصدة الأبواب صوت صرير حادّ رجّعت أصداؤه في

(1) مكان حرق جثث الموتى.

الغرف المحيطة. سدّت أمّي أذنيها الاثنتين بيديها وأغمضت عينيها.

حين انتزع غطاء النعش بالكامل قام الرجل الذي يرتدي برنسا أبيض ويضع سمّاعة طبيب حول رقبته بدسّ يده داخل النعش على نحو غير لائق وراح يجسّ وجه آيا الميتة. تحسّس عينيها ثمّ همس في أذن أحد رجال الشرطة الذي وقف مراقباً مزهوّاً بنفسه، وتحسّس شفتيها ثمّ همس في أذن الشرطيّ مرّة أخرى.

«هل ينبغي نهشها على هذا النحو؟ هل ينبغي إساءة معاملتها هكذا حتّى بعد موتها؟» قالت أمّي من بعيد كما لو أنّها باتت عاجزة عن التحمّل.

استدار الشرطي المزهوّ بنفسه نحوها. «هدوء من فضلك»، قال لها. «هناك أشياء ينبغي للشرطة فعلها. نودّ متابعة فحصها بعض الوقت».

هرعت أمّي خارجة إلى الشرفة. تبعتها إلى هناك وشاهدت على نحو مفاجئ الشيطان واقفاً في المطر حزيناً محجوباً تحت شجرة الحرير في الحديقة، وقد تدلّت كتفاه مثل مجرم.

في منتصف الخريف ماتت صديقتي أورين.

أصيبت أورين باعتلال في صدرها وغابت عن الأنظار منذ حلول الصيف.

ثمّ ماتت دون انتظار حتّى سقوط أنفها. ياقة الكيمونو خوخية اللون التي كان من المفترض أن أقدّمها لها بقيت معلّقة في واجهة متجرنا مدّة قصيرة تلت. لكن في يوم من الأيام، جاء غريب بهيئة ملاّح سفينة وقال، «هل يمكن لفّ هذه المنشفة برفق»، اشتراها، وذهب.

قرابة الفترة عينها، اختفى سينتا.

كان سينتا أحد المتدرّبين الذين عملوا مع غورو في محلّنا منذ ذلك الربيع. شديد الجبن ينهار أمام منظر جرذ في وضح النهار. ذهب مرّة كي يجمع أقساط زبائننا المستحقّة ولم يعد. رفض والدي اعتبار سينتا شخصاً قد يسيء التصرّف، فأرسل غورو لاستطلاع الأمر وفي ظنّه أنّ سينتا كان قد ذهب ببساطة إلى بيته. رافقت غورو إلى ناحية البلدة القديمة.

تماماً كما توقّع والدي، وجدنا سينتا خلف منزله قرب مجرى نهر بمحاذاة جدار قوّضت حجارته. كان سينتا مستلقياً تحت شجرة صفصاف عند ضفّة النهر ساهماً في ديك مصارعة محبوس داخل ما يشبه شبكة أسلاك. «سينتا!» ناديته من الخلف،

وقد وثب من وقع المفاجأة محاولاً الفرار عبر ضفّة النهر. حين شاهد غورو واقفاً هناك، توقّف مذهولاً مرّة أخرى وقفز في النهر فجأة. المياه الضحلة لم تبلغ سوى ركبتيه.

«هاي، سينتا!» صاح غورو بصوت صارم من على ضفّة النهر. «لقد ذهبت وسرقت المال، أليس كذلك؟».

«لا لم أفعل! لم يدفع لي أحد منهم!» أجاب سينتا بنبرة إنكار.

«لماذا لم تعد إلى المتجر إذن؟».

«هل أنت تمزح؟ إنّهم يسمّمون أنفسهم هناك! المكان بأسره يخيفني حتّى الموت! هيّا ارحل من هنا، دعني وشأني!» قال سينتا إذ راح يمشي إلى الخلف عكس التيار ناثراً رشّات الماء كلّما تحرّك.

سار غورو على ضفّة النهر قبالته متابعاً خطاه. «لا تكن أحمق. أقول لك إنّ ذلك لم يكن سمّا! هيّا أخرج من الماء! قال غورو، رافعاً صوته كي يقنع صديقه.

لكنّ سينتا تابع سيره صاعداً في النهر. «لن أعود إلى هناك أبداً»، قال وقد فاضت دموع عينيه. «دعني وشأني! دعني وشأني!».

حتّى سنّ الحادية عشرة، كان عليّ استخدام القسم المخصّص للنساء من الحمّام العمومي.

مع دنوّ المساء، كنّا أنا وأمّي ننسلّ من تحت الستارة الفائحة بالعطر عند مدخل حمّام النساء العمومي والكيمونو المزيّن بنقوش كحليّة اللون كنت أرتديه مثبّتا عند خصري بزنّار أوبي بنّي داكن اللون. كانت أمي تغسلني ثمّ تتأنى كيّ تغسل شعرها بعناية. وهناك إذ أنتظر كنت أجلس عند طرف حوض الاستحمام ناظراً حولي سارح الذهن. في أوقات مماثلة غالباً ما كنت أرى زوجة والد أورين تجلس ومؤخّرتها جاثمة على الأرض المبلّطة لقسم الاستحمام وتكون مشغولة في غسل عنقها.

كان بطنها يعلو منتفخاً ثمّ يعود فينكمش مرّة أخرى على نحو متكرّر. حين ينكمش كان الجلد يتدلّى مترهّلاً ويسيل عليه حليب يخرج من حلمتيها الداكنتين. كانت عندما تراني تشرع بالابتسام وتعرض لي طفلها الذي يشبه القرد ملفوفاً في منشفة.

«انظر، لدي طفل صغير. هل تريد اللعب معه عندما يكبر قليلاً؟» كانت تقول بلهجتها الكيوتيّة[1]. وقد أشار استخدامها

(1) من مدينة كيوتو اليابانيّة.

لهجة كيوتو إلى اعتدال مزاجها. تكلّمت بلهجات متعدّدة من مناطق البلاد المختلفة استناداً إلى حال مزاجها الراهن. ثمّ يبدأ بطنها بالانتفاخ مرّة أخرى. عندما ينتفخ إلى حدّه الأقصى يبدو عندها متلألئاً مثل بطن لعبة كيوبي[1] المصنوعة من السّليوليد تحت أشعّة شمس الغروب المتسللّة عبر النافذة. وبرز للعيان خط طوليّ وسط بطنها. رؤية ذلك باستمرار ودون سبب محدّد ذكّرني دائماً بصديقتي الميّتة أورين.

لكن لماذا كرهتني دائماً زوجة والد أورين، إذ ينتفخ بطنها إلى حدّه الأقصى؟ بدت دائماً غاضبة وهي تتنشّق الأنفاس مستعينة بكتفيها. وإذا صادف وجودي هناك جالساً عند حافّة حوض الاستحمام، فقد كانت تتفرّس بي بعينين باردتين. «تحرّك»، كانت تقول وتكاد تدفعني بمقدّمة بطنها الناتئ.

في أحد الأيّام حين كانت أمّي تغسل شعرها، حاولت النزول إلى حوض الاستحمام بنفسي. زوجة والد أورين كانت تخوض في حديث صاخب مع امرأة أخرى وهي ترشّ الماء الساخن

(1) لعبة صمّمت استناداً إلى شخصيّة طفوليّة ظهرت في سلسلة رسوم هزليّة لروز أونيل نشرت عام 1909 في مجلّة «ليديز هوم جورنال». اللعبة المذكورة، العارية في العادة، صنعت لأوّل مرّة في بلدة أوردروف الألمانيّة الصغيرة في مطلع القرن العشرين، ثمّ ما لبثت أن لاقت رواجاً عالمياً كبيراً.

على بطنها المنتفخ. «انظر أيّها الفتى، لقد مرّغت رقبتك كلّها بالصابون. أذهب واغسله أوّلاً!» قالت كما لو أنّها تستهزئ بي. حين أدرت ظهري للمرأتين مرتبكاً ورحت أتسلّق على مهل حافّة الحوض كي أخرج، أمكن لي سماعهما تتحدّثان خلفي بصوت خفيض.

«صبيّ من هذا؟».

«أنت تعرفين»، قالت زوجة والد أورين وأكملت كلامها آتية على ذكر اسم متجرنا. «أمّه كانت تلقّب بـ«فاتنة المنطقة» أو شيء من هذا القبيل. حسناً، ربّما كانت قد خبرت حياة فاتنة في صباها، لكن انظري إليها الآن!».

«فاتنة المنطقة؟ ياخ!» قلت كأنّني أحدّث نفسي وأنا جالس قرب أمّي وقشطتّ الصابون بالماء عن عنقي. بدت أمّي كما لو أنّها لم تسمع شيئاً. أفردت شعرها الطويل، وهي جاثية ورجلاها مطويّتان أمامها على نحو أنيق، وأسدلت شعرها وراحت تفركه بقوّة بين راحتيّ يديها.

كما أنّني ذهبت إلى الحمّام العمومي برفقة شيما أيضاً التي كانت تكبرني بستّة أعوام.

عملت شيما خادمة في بيتنا. كانت ممتلئة الجسم وذات

بشرة بيضاء. بدت وجنتاها كما لو أنّ أحداً قام بلصق دائرتين حمراوين من ورق فوقهما.

أحببت شيما. بعد موت أورين أردت من شيما أن تصبح زوجتي. إن عبّر الولد ببلدتنا عن إعجابه بفتاة تدعى ياي تشان، فإنّ الكبار في البلدة سيقولون، «آه حقّا؟ إذن عليك الزواج من ياي تشان عندما تكبر!» اعتقدت أن الإعجاب بشخص من الأشخاص هو تماماً مثل الزواج منه.

بعد أن رحت أذهب إلى الحمّام العمومي برفقة شيما، بدأت ألاحظ وجود رائحة متميّزة في قسم الحمّام المخصّص للنساء. كانت تلك الرائحة تسبّب لي شعورا بوخز غريب في مؤخّرة أنفي يعجزني عن البقاء جامدا بلا حراك. كنت أحرّك عنقي بلا مبرّر أو أبسط ذراعيّ، أو أهتز مرتعشا على نحو عصبيّ، ما كان يزعج شيما كثيراً عندما تحاول غسلي. كانت وجنتاها تغدوان أكثر احمراراً وتومض عيناها على نحو عصبيّ وهي تحاول السيطرة عليّ، لكن إذ يتخطّى جموحي قدرتها على التحمّل كانت تتّخذ هيئة صارمة في وجهها وتحكم إمساك ذراعيّ بلا كلام. كردّة فعل على ذلك، أضرب شيما بقبضتيّ على كتفيها. جلدها المخمليّ بدا غاية في المرونة مثل لعبة من مطّاط. إحساس

قبضتيّ في ردّة فعلهما تلك، كان يربكني.

عندما أرتدي ثيابي كنت أعبر من البويب[1] أمام كشك بطاقات الدخول وأجلس طاويا ساقا على أخرى قرب سخّان المياه المخصّص لحمّام الرجال. هناك كنت أشرب كوبا مليئا بمياه الشعير المملّحة قبل أن أخرج من الحمّام العموميّ بخطى رجوليّة واثقة.

عندما رفعت إلى صفّ السنة الرابعة، منحتني المدرسة شارة فضيّة جميلة كي أعلّقها على صدر سترتي. ضمّت الشارة الحرفين الأوّلين من اسم المدرسة مذهّبين، وقد أحيطا بأزهار الكرز. منحت شيما الشارة البرونزيّة القديمة التي كنت أعلّقها حتّى ذلك التاريخ. تردّدت في البداية، لكن حين أخرجت الشارة الفضّية الموضوعة في علبة خشب البولفينيّة[2] من جيبي وأريتها إيّاها أحسّت بالانبهار وسارعت إلى تناول الشارة البرونزيّة من راحة يدي ودسّتها في جيب مئزرها.

انسجمت الشارة الفضّية مع مريولي الشتوي كحليّ اللون،

(1) الباب الصغير في الباب الكبير أو قربه.

(2) شجر صينيّ ويابانيّ عطر الزهر.

لكنّها لم تنسجم تماماً مع النقش المرقّط لبدلتي الصيفيّة. عندما يحلّ موعد تبديل الثياب الموسمي، كانت شيما، بنظرتها العارفة، تقصّ قطعة صغيرة على شكل دائرة من ثوب أسود رثّ، فتخيّط الشارة عليها وتثبّتها فوق سترتي الصيفيّة المرقّطة بواسطة دبّوس أمان[1]. عندها، أمشي إلى المدرسة مختالاً.

في أحد أيّام الصيف، كنّا ننظّف الصفّ بعد دوام المدرسة. كان ابن الحدّاد يرتدي حذاء جديداً من قماش القنّب، وقد قمت دون قصد برشّ أحد فردتي حذائه بماء الشطف. اعتذرت منه إلا أن سخطه بدا شديداً.

«لم يمض على شرائي له من السوق سوى ليلة واحدة!» زعق ودون لغط كلام إضافي خلع الحذاء المبلّل من قدمه وقذفه على الأرض. طار الحذاء على نحو مذهل وحطّ بقوّة عند حافة البالوعة، ثمّ اختفى عن الأنظار. غدا ابن الحدّاد شاحب اللون.

مدفوعاً بانقلاب الأحداث هذا، انحنيت فوق البالوعة ناظراً إلى داخلها محاولاً انتشال حذائه.

«هاي! لا تلمس هذا!» صرخ مثل مجنون مقحماً سبّابته في

(1) أو ما يعرف بالدبوس الإفرنجي، وهو يغلق بقفل من طرفه المسنّن.

صدري كأنّه يشهر نحوي مسدّساً. ثمّ راح يتكلّم بصخب عن شيء لا علاقة له أبداً بحذائه الذي من قماش القنّب.

«تظنّ نفسك مدلّلاً، أليس كذلك! تحفّ هنا وهناك بهذه الخرقة البالية من الثوب الأسود!».

أصبت على حين غرّة بصدمة ممّا قال. عار شتيمته كان كبيراً جدّاً لدرجة أنّني فقدت تماسكي على نحو كامل.

«ماذا؟! سوف أسحق رأسك الأخرق الناتئ هذا!» صرخت. في وسط جبهته كان ثمّة بثور قائمة زرقاء وناتئة رفضت أن تزول، وقد بدا ذكرها ذاك الشتيمة التي لا يمكن له احتمالها أبداً. قطّب وجهه بالعبوس وبقي صامتاً بعض الوقت.

«ماذا عن أختك؟» بدأ من جديد على نحو مفاجئ. «قفزت من المركب وألقت نفسها في البحر! غلغ غلغ غلغ!».

طار البصاق من فمه وحط على قدميّ. استمرّ في بث البصاق في الأرجاء وهو يصفق بذراعيه في الهواء مقلّداً شخصاً يغرق. أخذ رفاق المدرسة من حولنا يتحمّسون، ما شجّعه على المضيّ في هجومه.

«أختك أكلها الدولفين، أختك أكلها الدولفين! غلغ غلغ غلغ، غلغ غلغ غلغ!».

راحت عيناه تترقرقان بدموع الإثارة. لم أتمكّن من فهم ما يقصد، لكنّ كلماته قهرتني في الحال. ممتلئاً بخوف مكتوم، ألقيت نفسي عليه فقط كيّ أسكته. سقط متهاوياً على الأرض، ثمّ التفّ بجسده مثل القريدس. «اسأل أمّك إن لم تصدّقني!» قال دامعاً من تحت الذراعين الملتفّتين حول رأسه لحمايته. «أنت الوحيد الذي لا يعلم! ينبغي لك أن تخجل من نفسك».

تلاشت القوّة فجأة من جسدي ونظرت إليه تحتي دون أن أنبس بكلمة. أردت البكاء على الرغم من أنّني لم أكن حزيناً في الظاهر. حجبت عينيّ بذراعي، لكنّ الدموع تدفّقت صعوداً بإرادتها.

رجعت إلى البيت ووقفت ساهماً خلف شيما التي كانت جالسة أمام فرن الطبخ موقدة النار لتحضير طعام العشاء.

«آه، هذا الدخان..». قالت شيما واستدارت كي تراني واقفاً خلفها هناك. وضعت فمي على أذنها.

«هل تعرفين مينا التي ماتت؟» سألتها بسرعة.

«أجل؟».

«هل تعرفين كيف ماتت؟».

«كيف لي أن أعرف هذا؟» حرّكت شيما رأسها بقوّة

واستدارت بوجهها نحو الفرن مرّة أخرى.

«لقد سقطت في البحر وغرقت».

«لا، لم تفعل هذا بالتأكيد..». قالت شيما كأنّها قصدت توبيخي، لكنّي حين شاهدت عينيها القويّتين وقد بدأت تزوغان بالقلق أدركت على نحو غريزي أن ما قاله ابن الحدّاد كان صحيحاً.

لم أشأ تصديق الأمر. كان بوسعي البقاء سعيداً دون أن أعلم لو أمكن لي فعل ذلك. غير أنّي لم أستطع مقاومة إغراء البوح بسرّ كان على وشك أن ينكشف. بعد مضي نحو شهر عثرت في درج خزانة أمّي على مجلّة مهلهلة. كانت مجلّة محلّيّة للشعر تدعى هاناكاجو. لم يكن لأمي أيّ اهتمام بتأليف الشعر. وإذ استعدت كلمات الرجل المسنّ ذي الكيمونو الرسمي في جنازة شقيقتي مينا، تملّكني القلق. سارعت في تقليب صفحات المجلّة وأخذتها معي إلى الطابق العلوي حيث أكون بمفردي. خفت كثيراً من الشروع في قراءتها من أوّلها، فانتقلت إلى صفحتها الأخيرة. هناك شاهدت في الحال اسم شقيقتي محاطاً في إطار أسود. تحته كان ثمّة مقالة ترثي انتحارها. لقد كانت على ما يبدو واحدة من محرّري المجلّة. قبل شهر واحد من بداية المدرسة، كما ظهر،

أقدمت شقيقتي الوسطى مينا على رمي نفسها من عبّارة في مياه مضائق بحر الشمال التي تشتهر بضمّها قطعاناً من الدلافين.

لقد لفّني عار لا يحتمل إذ علمت بهذا الأمر. وبدل سعيي لمعرفة سبب قتلها لنفسها، فقد ألمّ بي إحساس بالخزي جرّاء انتحارها ذاك. وقفت وحيداً بائساً في حجرة المذبح. نظرت إلى صورة مينا في الأعلى. كانت متبسّمة وأسفل ذقنها محجوب في ثنايا ياقة قميصها البالغة الترتيب. شقيقتي، صاحبة الوجه الباسم الجميل هذا، سقطت في زبد البحر الأبيض من على متن السفينة، ثمّ راحت تعلو وتهبط بين قطعان الدلافين. عندما تخيّلت المشهد أحسست بوجنتي وقد تورّدتا خجلاً من تلقاء ذاتهما.

في مثل هذا الوقت، بدأت أشعر بهيئتي المنفرة.

في أحد الأيّام، ذهبت إلى صالون الحلاقة بقرار حاسم. أردت الحصول على تسريحة قصيرة جداً بدل القصّة الألمانيّة التي كنت تعوّدتها.

«القصّة الألمانيّة» هي تسريحة للصبيان يجزّ فيها الشعر من الخلف ويترك شعر ناصية الجبين طويلاً. في البلدة حيث ولدت كانت تلك التسريحة هي المفضّلة للصبيان أبناء العائلات

المحترمة والميسورة. سائق عربة الحصان الذي كان يعبر شارع البلدة الرئيسي بدا الأكثر حساسيّة تجاه الفوارق في تسريحات الأولاد المختلفة. إذا رأى صبيّاً بتسريحة القصّة الألمانيّة يتعلّق متدلّياً من مؤخّرة عربته، فكان يوقف حصانه ويقول، «هاي مرحباً! عليك ألا تفعل هذا، فالأمر خطير، هل تعرف؟!».

لكنّه إذا رأى ولداً بتسريحة شعر قصيرة يعبث مقترباً من عربته، فقد كان يتعمّد إطلاق الحصان مسرعاً ويفتل طرف عنانه ليبدو مثل وهق[1]. «أيّها المزعج الصغير! تعال إذن إن أردت انسحاقاً حتّى الموت!» ويزأر وهو يعبس عبوساً ضارياً.

وطموحاً في أن أصير واحداً من أولئك الأولاد المزعجين، تجاهلت حلاّقي المعتاد وذهبت إلى آخر يبعد عنه قليلاً. وهناك وقع نظري على هيئتي الغريبة في مرآة الحلاّق المشوّهة.

كان ينبغي لوجهي أن يكون مستدير الشكل بوجنتين مستديرتين، غير أنّي آنذاك بدوت خشن الملامح بعظام حادّة بارزة من وجنتيّ وبذقن مدبّب. لاح وميض أحمر في عينيّ، حتّى أنا نفسي أجفلت منه. مؤخّرة رأسي الظاهرة بدت مفاجئة في طولها. ليس هذا فحسب، بل إنّها حوت فجوة مستديرة

(1) الوهق: حبل في طرفه أنشوطة يستخدم لاقتناص الخيل أو الأبقار.

كأنها زبديّة وضعت فوق رأس عادي. انتقلت ماكينة الحلاّق لقصّ الشعر برشاقة إلى قمّة رأسي بعد أن جزّت شعر الأطراف، ثمّ هبطت في هوّة كبيرة حين بلغت الفجوة في قمّة رأسي.

تصرّفي المتعمّد هذا أدهش كلّ من عرفني وأحزن أمّي. الشعر القصير لم يحزن الأخيرة بقدر ما أحزنها الأمر المنفّر الذي أقدمت عليه دون إعلامها. أبي راح يحدّق في رأسي غير موقن ثمّ أشاح بصره عنّي دون أن ينبس بكلمة.

عندما كشفت رأسي الطويل أمام نظرات الآخرين تملّكني إحساس بالكآبة يفوق الوصف كما لو أنّني أتعرّض لما يشبه العقاب. هذا إضافة إلى إحساس بالراحة مصدره حقيقة أنّني لم أعد طفلاً. ثمّ إنّني بعد ذلك أحبطت من جديد، إذ شعرت بظلم هذا العقاب الذي لا أستحقّه. كنت شديد الاكتئاب، فأثار الأمر شكوك شيما التي سألتني عن السبب. أجبتها أنّ السبب هو الارتباك المتأتي من شدّة طول رأسي. ضحكت شيما دون اكتراث.

«لا تكن سخيفاً!» قالت. «لريو في كينبوشي رأس أطول بكثير، أليس كذلك؟ ليس هناك ما ينبغي لك أن تقلق بسببه أبداً».

كينبوشي حانة قذرة في شارع خلفي قرب بيتنا. كان محرّماً عليّ الذهاب إلى أمكنة مثلها، لكنّي في تلك اللحظة أردت الذهاب إليها في الحال وتحديداً لأنّها محرّمة عليّ. انسللت سائراً تحت حواف أسطح البيوت ثمّ عبرت الشارع الخلفي ودخلت مسرعاً عبر ستارة الحبال عند باب كينبوشي. ضحكنا أنا وريو بحماقة على بعضنا البعض عبر طاولة صفّت عليها جرار الساكي الخزفيّة مائلة إلى جنبها.

صرت من روّاد كينبوشي المداومين.

كنت ألعب أنا وريو عدّة أدوار سريعة في لعبة الشوغي[1] تحت تمثال الهرّ جالب الحظّ المنتصب مسودّاً بالسّخام في زاوية الحانة المعتمة. تعبق الحانة دائماً بأجواء كثيفة متّقدة وثقيلة، تمتزج فيها روائح الصويا وزيت الطهي والساكي. زبائن كينبوشي حفارو قنوات وسائقو عربات خيل ورهبان متسوّلون وسائقو جنركشات[2] وممثّلون وبائعون جوّالون. منظرهم وهم جالسون في حلقة مستديرة يقرعون على أطراف أطباق الأرزّ أمامهم وينشدون بنشاز، أسر قلبي. بينما أنا فكّرت بمدى الحزن الذي

(1) الشطرنج اليابانيّة.

(2) الجنركشة عربة صغيرة بدولابين تتّسع لشخص واحد في العادة ويجرّها رجل واحد، وهي تستخدم في اليابان وفي بلاد شرقيّة أخرى.

سيلحق بأمّي إذا قدّر لها مشاهدتي منغمساً في قذارة كهذه، انزاح عنّي الهمّ على نحو غريب جرّاء إقدامي على ممارسة أمر لم يكن ينبغي لي ممارسته.

غدا اللحن البذيء للأغنية التي أنشدها زبائن كينبوشي مطبوعاً في ذهني قبل أن أحفظ كلمات الأغنية. عندما عدت إلى البيت، أنشدتها لشيما. استمعت حتّى النهاية وبدت منزعجة قليلاً على الرغم من ذلك. «عليك ألا تنشد هذه الأغنية»، قالت عندما انتهيت. «أنت فتى سيّئ. إنّه ليس خطئي».

إنّه ليس خطئي أيضاً، فكرت في نفسي.

في خريف العام الذي سبق انتهائي من المدرسة الابتدائيّة، تركتني شيما.

كان عليها العودة إلى بلدتها الريفيّة لتتزوّج.

عندما سمعت عن هذا الأمر من أمّي، أردت الضحك. شعرت كما لو أنّ شيما خدعتنا جميعاً. كنت مستلقياً إلى جانبها في غرفة الخادمة إذ كانت تلهي نفسها بشغل الإبرة.

«شيما»، قلت لها. «هل صحيح أنّك سوف تغادرين إلى الريف لتتزوّجي؟».

«ماذا؟ أتظنّ أنني سوف أمتطي حصاناً أو شيئاً آخر دون فستان عرس؟ بالتأكيد لا!».

غمزتني شيما وراحت تقهقه. ولسبب ما، فإنّني أيضاً وجدت الأمر مضحكاً، فتدحرجت على حصير التاتامي ضاحكاً.

لكنّ شيما خدعتني في النهاية.

في صباح أحد الأيام، جثت على الأرض قبالتي عندما كنت محدّقا في حوض السمكة الذهبيّة على الشرفة وقالت لي وداعاً بملامح خالية من التعبير. طلبت منّي ألا أذهب بعد الآن إلى أمكنة مثل كينبوشي. استمعت بذهول إلى صوتها المتداعي، لكن حين أشاحت طرفها عنّي وهمّت بالوقوف، طرت إليها دون أن ألفظ كلمة واحدة. بأطراف أصابعي شددت على وجنتيها الورديتين اللتين بدتا أكثر شحوباً من المعتاد.

«أنت راحلة إذن؟».

«أجل. لقد أتوا كي يأخذوني. عليّ الذهاب الآن».

صوتها آنذاك كان قد بدا كصوت الغرباء، ليس فقط لأنّها كانت تشدّ وجنتيها.

بتّ شديد الحزن. لماذا كان على الناس الأقرب إليّ مغادرتي دائماً على هذا النحو؟ بعد أن ذهبت شيما إلى غرفة الخادمة ما

عاد بوسعي الاحتمال، فتسلّقت السطح الشاهق في أعلى القسم الرئيسي من البيت. السطح هناك أطلّ على مشهد بانورامي للحقول المصفرّة في البعيد. خلف الحقول امتدّ خط أنيق من جبال جرداء بنّية اللون.

أطلقت عربة السفر[1] بوقها عندما مرّت أمام بيتنا. أمكنني رؤية شيما راكضة نحو مقعد العربة مع رجل لم أعرفه. ارتدت شيما كيمونو كحليّ اللون بزخرفات بيضاء بارزة وحزام أوبي أحمر. عندما اختفت داخل العربة التي يقودها رجل ويد مجهولة، أمكن لي أن ألمح جزءاً أبيض من ساقيها. بينما أنا جلست منفرج الساقين فوق حافة قرميد السطح وراقبت سحب الغبار التي أثارتها العربة المنطلقة وراءها، رحت أبصق في كلّ الاتجاهات على نحو متكرّر.

انتقلت في العام التالي إلى المدرسة الثانوية الواقعة عند أطراف البلدة.

في أحد الأيام مع نهاية شهر الدراسة الأوّل، استدعاني أستاذ الصف وسألني عن العنوان الراهن لشقيقيّ الأكبرين. كانا من

(1) عربة جياد عموميّة لنقل المسافرين.

تلامذة المدرسة القدامى. رجعت إلى البيت وأخبرت أبي بالأمر. «حقّاً؟!»، قال متجهّماً. في تلك اللحظة اعتقدت أنّني شاهدت ملامح انزعاج كبير تعبر ثنايا وجهه.

أعطاني أبي في صباح اليوم التالي رسالة مختومة مرفقة بعنوان شقيقي الثاني. وكتب كلّ ما يتعلّق بشقيقي الأكبر في الرسالة التي ينبغي لي فقط تسليمها إلى الأستاذ، كما قال أبي بصوته اللطيف، مرفقاً ذلك بطرف شديد في جفنيه. وضعت الرسالة في جيب سترتي الداخليّ وذهبت إلى المدرسة، لكن في أثناء سيري انتابني إحساس ضيق خانق مصدره هاجس ما.

رحت أتساءل آنئذ عن مكان وجود أخي الأكبر. منذ وقت طويل وأنا لم أعد أرى منه شيئاً. عائلتي لم تعد تتحدّث عنه أبداً. هل مات؟ إن كان هذا هو الأمر، فأنا لا أذكر أيّة جنازة أقيمت له. إذ رحت أفكّر فيه، أدركت أنّ صورته كانت قد اختفت تماماً من ألبوم عائلتنا. لماذا حصل هذا؟ تملّكني نذير الشؤم.

سرت في طريقي المعتاد ودخلت حقلاً واسعاً. في كلّ صباح، أتجنّب القرية وأسير إلى المدرسة عبر الحقول. بدت الشمس في ذلك الصباح باهرة في سطوعها. علا دخان مشعلة[1] متفرّقاً

(1) نار تضرم في البريّة في الهواء الطلق.

خفيفاً فوق الحقل. سرت متباطئا بخطى خرقاء لواحد موشك على فعل السوء. في أثناء سيري، تناولت الرسالة من جيبي وفتحت الظرف الذي يضمّها. كانت الرسالة مكتوبة بحبر ريشة على ورق كتابة أملس.

السادة الأعزاء:

عطفاً على سؤالكم عن ابني الأكبر فوميا:

أفيدكم بالحقيقة الصادقة، فهو اختفى منذ ثمانية أعوام ولم يره أحد منذ ذلك الحين. إنّه مفقود حتّى لحظة كتابة هذه الرسالة. مرّة سمعت إشاعة تتحدّث عن وجوده في كيوتو، إلا أنني لا أستطيع تأكيد الأمر. ها قد مرّ كلّ هذا الوقت، فبحثي عنه لا يسير على ما يرام...

لم أتمكّن من الاستمرار في القراءة حتّى نهاية الرسالة. الأمر الوحيد الذي بقي واضحاً كان إحساساً بالسقوط، هذا شخص إضافيّ يتركني. أحسست بدوار خفيف وأنا أطوي الرسالة وأعيدها إلى ظرفها، ثمّ جلست عند طرف جدول ورميت الظرف الذي فضّ ختمه في المجرى، وراقبته ساهماً وهو

يطوف على صفحة الماء.

اشتريت في طريق عودتي إلى البيت من المدرسة في ذلك اليوم خارطة سياحيّة من دكّان المحطّة. كنت سأذهب للبحث عن شقيقي الأكبر. في ذاكرتي، هو لم يكن شيئاً سوى الخوف. لقد كان هو من ضربني على رأسي بعلبة عوديّ الطعام. لكن الآن أودّ كثيراً أن ألقاه. أردت لقاءه واصطحابه معي إلى البيت. وقد خشيت إن لم أفعل ذلك من أن ينحلّ رابط القرابة بيننا تماماً.

لم يعد بوسعي النظر المباشر في وجوه من تبقّى من عائلتي. مهما كانت الملابسات الكامنة وراء اختفاء شقيقي، فإنّني لم أستطع فهم السبب الداعي إلى إهماله إلى هذا الحدّ في حين كان لايزال، ربّما، على قيد الحياة. بلا ريب فإنّ المرح الغريب الذي ساد بيتنا كان لغزاً محيّراً أيضاً بالنسبة لي. فهناك الموت غير الطبيعي لشقيقتي وثمّة اختفاء أخي، لكن على الرغم من كلّ هذا، كان الجميع في عائلتي يتسمون مرحاً لبعضهم، وكأنّ شيئاً لم يحصل. أحسست بشعور ارتياب أكيد تجاههم. حتّى ولو أن حزنهم بليغ في عمقه، جاعلاً أسلوبهم الوحيد في النجاة هو النظر ببساطة في وجوه بعضهم والابتسام، فقد بدا هذا أمراً لم أستطع فهمه في ذلك الوقت.

اتخذت قراراً بسيطاً. سوف أذهب في رحلة.

بعد أن توجّهت إلى السرير في ذلك المساء، فتحت الخارطة قرب وسادتي. بدت اليابان على نحو مفاجئ بلاداً كبيرة. المدى الواسع الأبيض لمساحة أرضها الطويلة والدقيقة كان متقاطعاً بشبكة سكّة حديد مذهلة تشبه الخطوط في راحة اليد.

كيوتو. بحثت عن كيوتو. سوف أذهب أوّلاً إلى كيوتو. حتّى لو كان الأمر مجرّد إشاعة، فإنّه لم يكن ثمّة مكان آخر للشروع في البحث. تقع كيوتو على مسافة أكثر من سبعمئة ميل عن بلدتي. وضمن كيوتو كان هناك ناكاغيو وارد، وفوشيمي وارد، وهيغاشي ياما وارد. في شعوري بالعجز أمام احتمال الطواف في هذه الأرض المجهولة، غدت الخارطة آنذاك شديدة الغموض فكدت أعجز تماماً عن رؤيتها.

لم يكن لديّ أيّ من تكاليف السفر الأساسيّة. الشخص الوحيد الذي يمكنني التفكير بطلب المال منه هو أبي، إلا أنّ الأخير قد أبقى الحقيقة المتعلّقة بأخي وشقيقتيّ سرّا كاملاً إلى الآن. حتّى وإن تسنّى لي الكذب فيما يتعلّق بهدف رحلتي، فإنّ أهلي لن يسمحوا لي أبداً بالذهاب في هكذا رحلة بمفردي وأنا في الثانية عشرة. فكّرت بشقيقي الثاني. هو أخ في النهاية وسوف

يتفهّم. إن شرحت له ربّما يخبرني ما ينبغي لي فعله. أحسست بأنّه الشخص الوحيد الذي يمكنني اللجوء إليه الآن.

للمرّة الأولى في حياتي، كتبت رسالة طويلة لأحد شقيقيّ. كانت أصعب عمل قمت به في حياتي حتّى ذلك الوقت. جواب شقيقي وردني عبر البريد المسترجع.

لا تكن غبياً. هذا ليس من شأنك، سوف أخبرك عن الأمر عندما تكبر. من الأجدى لك التركيز على تصحيح أساليبك الجبانة.

الرسالة كانت مرفقة بطرد ثقيل الوزن.

فتحت الطرد. كان يحوي مجموعة من عتاد مبارزة الكيندو[1].

(1) الكيندو أو «طريقة السيف» من الفنون القتاليّة اليابانيّة الحديثة التي تقتضي المبارزة بالسيف، وذلك استناداً إلى تراث قتال السيوف الياباني التقليدي، «كينجوتسو».



والكلّ في وضعيّة الرقص![1]

كانت زوجتي فوساكو هي من وجد الشقّة. اتصلت بي في العمل كي تخبرني عنها في الحال.

«لقد وجدت واحدة!» قالت وصوتها يتراقص بما بدا مثل ابتهاج مكتوم. «إنّها في منطقة جميلة فعلاً. تمّ الفراغ من إنشاء البناية أخيراً ولم تسكن أيّ من شققها بعد. تتألّف كلّ شقة من غرفتين لكلّ منهما مطبخها الخاص! الإيجار هو خمسة آلاف وخمسمئة ين. وليس ثمّة مبلغ يدفع للعقد أو للعربون! ما رأيك؟».

خمسة آلاف وخمسمئة ين لغرفتين - الأمر ليس سيئاً أبداً.

---

(1) هو نداء يطلق خلال تأدية الرقصة التربيعيّة التي يؤدّيها راقصون على صورة مربّع. النداء المذكور يطلقه قائد الرقصة And all promenade!.

لا بل إنّه فاجأني. أعرف أنّ زوجتي راحت تبحث هنا وهناك في جولاتها اليوميّة برفقة ابنتنا موموي التي كانت قد اكتشفت لتوّها متعة المشي. لكنّي لم أتصور أبداً أنّها ستوفّق بعرض نادر كهذا.

«حسناً، هذا يبدو مناسباً»، قلت لها. «ينبغي لنا أن نسارع في تسديد دفعة مسبقة».

«أجل»، أجابت، وراحت تضحك.

«ماذا هنالك؟».

«في الحقيقة لقد سددت الدفعة المسبقة».

في ذلك اليوم، غادرت العمل عند الساعة الخامسة وأسرعت عائداً إلى الغرفة التي كنّا نستأجرها في الضواحي. آنذاك كنّا قد أبلغنا بوجوب مغادرتنا تلك الغرفة. لم يكن ثمّة مشكلة في البداية حين كانت صاحبة الشقّة التي استأجرنا إحدى غرفها تعيش بمفردها، لكن عندما عادت ابنتها الصغرى يداً بيد مع رجل يصغرها سنّاً، وذلك بعد أن سبق لابنتها المذكورة مغادرة البيت، فقد غدونا في الحال عبئاً عليها. غير أنّ ما استجد بدا مناسباً لنا أيضاً. لقد استأجرنا الغرفة في الأصل للاستخدام المؤقّت، إذ جئت في البداية من القرية بمفردي لاستلام وظيفتي

الحالية. جعلني افتقاري لتكاليف الانتقال لاحقاً أدعو فوساكو للانضمام إليّ في تلك الغرفة. لكن حين غدت ابنتنا قادرة على الوقوف، ثم بدأت تخطو وتركض في الأرجاء بمفردها، صارت الغرفة ضيّقة جدّاً علينا. رحنا نفكّر بوجوب انتقالنا عمّا قريب إلى مكان أكثر اتّساعاً، غير أنّنا بقينا نماطل حين أبلغتنا صاحبة الشقّة بوجوب المغادرة.

عند عودتي إلى البيت، كانت زوجتي قد نشرت كلّ أغراضنا على أرض الغرفة الصغيرة مجرية تحضيرات الانتقال. وجلست ابنتنا التي حرمت آنذاك مكاناً للعب غارقة في الأغراض على الرف الأوسط في خزانة الحائط، حيث راحت تضحك بمرح تجاه أمر يبهجها.

«آسفة لهذه الفوضى»، قالت فوساكو حين استقبلتني.

«لا تضعيها هناك في مكان عال»، قلت لها. «قد تقع». تقدمت نحو الخزانة وحملت الطفلة بين ذراعي.

لم يسعني سوى الإحساس بمدى تواني زوجتي عن الاهتمام بـ «مومويي» منذ أن بدأت الطفلة تمشي. بدت فوساكو قادرة على معاملتها بثقة كبيرة استمدّتها على الأرجح من شيء يرتبط بغريزة الأمومة. لكنّ بالنظر إلى الأمر من بعيد، فإنّ أسلوبها في

بعض الأحيان بدا خطراً تصعب مشاهدته. تمنّيت لو أنّها أكثر انتباها. إذ أن زلّة بسيطة في التركيز قد تحيل حياة ابنتنا خراباً.

قالت زوجتي «حسناً، مادمنا سننتقل، أليس بالإمكان تسريع الأمر!».

«متى ينبغي لنا المغادرة؟».

«خير البرّ عاجله. غداً إن أردت».

قررنا في النهاية الذهاب معاً لرؤية الشقّة، فتناولنا طعام العشاء سريعاً.

«حتّى إنّني وجدتها حين لم أكن أبحث عن شقق»، قالت فوساكو وهي ترفع الطعام بعوديها وتقرّبه إلى فمها، ثمّ إلى فم مومويي. وراحت تروي كيف وجدت الشقّة بطريق الصدفة.

في ذلك الصباح، انهمكت في غسل الثياب. قرّرت عدم الذهاب للبحث عن الشقق في ذلك اليوم فذهبت لشراء الحاجات من سوق المحطّة الواقع على بعد ثلاث محطات في خطّ سير قطار الضواحي. أحسّت بالجوع عندما أنهت التسوّق، فسألت مومويي عمّا تشتهيه. «أودون!» أجابت الطفلة. قصدتا مطعم عصائبيّة قرب السوق، وطلبتا زبديّتين من عصائبيّة حساء الأودون مع التوفو المقلي.

لم يكن المطعم مزدحما كثيراً، لكنّ الأودون الذي طلبتاه استغرق وقتاً أطول من المعتاد كي يجهز. راجعت فوساكو نافذة الخدمة مرّات عدّة كي ترى ما الذي يستدعي كلّ هذا الوقت. من خلال النافذة، أمكن لها مشاهدة بخار يتصاعد بكثافة في المطبخ. ثمّ انتبهت فجأة إلى إعلان صغير على الجدار فوق نافذة الخدمة عبارة عن ورقة كتب في مطلعها بخط اليد «شقق حديثة البناء». بالطبع، ربّما لاحظت وجود اللافتة الصغيرة من قبل. لكن حتّى تلك اللحظة فإنّها كانت قد افترضتها إعلاناً لطبق موسمي خاصّ بالمطعم أو ما شابه، ولم تحاول قراءتها. أثار الأمر فضولها، فنهضت وتقدّمت كي تقرأ اللافتة. غرف بمساحة أربع حصر ونصف بثلاث حصر، مطبخ خاص لكلّ منها، دون دفعات مسبقة أو عربون، خمسة آلاف وخمسمئة ين في الشهر، مشمسة، الأطفال مرحب بهم. هذا ما كتب عليها.

وفي غمرة المفاجأة، نادت فوساكو من رأتهم عبر نافذة الخدمة.

«من فضلك، هل تخصّ هذه الشقق أحد سماسرة العقارات؟».

أطلّ عبر النافذة رأس الرجل الذي بدا مدير العمل.

«لا، بل إنّ صاحب الشقق طلب منّا تعليق اللافتة. ونحن لم نعلّقها قبل صبيحة هذا اليوم»، قال الرجل. «لم يسأل أحد عن هذه الشقق بعد، وإذا ذهبت الآن، فستتوفقين». ثمّ شرح لها بدقّة كيفيّة الوصول إلى منطقة الشقق.

«هذا مضحك، أليس كذلك»، استنتجت زوجتي. «يبحث المرء في كلّ مكان بلا جدوى، ثمّ على نحو مفاجئ يحصل على ما يريد دون أن يتوقّع».

«تجري الأمور هكذا عندما يبتسم الحظ»، قلت لها.

«أعتقد هذا. أمر مضحك. لو قالت مومويي إنّها تشتهي شيئاً آخر- مثلّجات مثلاً- لما علمنا بأمر الشقّة». ظهرت مسحة حزن على وجهها. «يا له من خط رفيع يفصل بين الحظ العاثر والحظ الحسن، هه».

«كلّ شيء هو حظ. إنّه خط رفيع جدّا»، قلت لها. وأكملت فوساكو مشاركتها مومويي الطعام بصمت.

«إنّه أمر مخيف»، قالت فجأة بعد مضيّ لحظات قليلة.

ما أن انتهينا من تناول الطعام، حتى ذهبنا نحن الثلاثة لرؤية الشقّة الجديدة يمسك واحدنا بيد الآخر ومومويي في الوسط.

صعدنا قطار الخط الخارجي ونزلنا بعد ثلاث محطّات عبر

ذلك الخطّ. سرنا نحو عشر دقائق من المحطّة فوق طريق إسفلتي عريض باتّجاهين. كانت الشقق في ناحية توزّعت فيها بيوت متفرّقة. عبارة شقق هذه ربّما لا تنطبق عليها تماماً - إذ كانت أكثر قليلاً من مساكن طرفيّة بأربعة غرف مصفوفة خلف محلّ صغير للحلويات يواجه الطريق الرئيسي. مالكها كان صاحب محلّ الحلويات. دخلت فوساكو إلى المحل، وقد ظهر المالك أخيراً بصحبة امرأة في مقتبل العمر بساق عرجاء. المرأة كانت زوجته.

«مساء الخير»، قالت المرأة بأسلوب دمث. «من هنا من فضلكم».

من خلال ممرّ صغير إلى جانب البيت، فتحت باباً زجاجيّاً عند المدخل وعبرت منه. في الداخل، أضاءت مصباحاً يدويّا وتقدّمت عبر رواق إسمنتي ضيّق وطويل. في إحدى الجهتين، ثمّة حجرة غسيل إضافة إلى الحمّام. في الجهة الأخرى، اصطفّت أربعة أبواب إلى جانب بعضها تفصلها النوافذ. «إنّها أربع شقق، لكنّها جميعاً تتطابق من الداخل»، قالت المرأة. قادتنا إلى الأولى. خلف باب الخشب الرقائقيّ[1] ثمّة مدخل مربّع الشكل أرضه

(1) خشب مصنوع من طبقات رقيقة مغرّاة.

إسمنتيّة بمساحة ثلاثة أقدام بثلاثة، بعده غرفة مربّعة صغيرة أخرى لا تنفصل عنه هي المطبخ. غرفة الثلاث حصر كانت الأقرب إلى الرواق، فيما ركّزت غرفة الأربع حصر ونصف في ناحية الواجهة الخارجيّة. كان هناك خزانة حائط واحدة في الغرفة الأكبر وخزانة حفظ صغيرة في الغرفة الصغرى. لكلّ من الغرفتين باب من الخشب الرقائقيّ. لم يكن بوسعنا فعل شيء بالنسبة لباب المدخل لكنّي افترضت وجوب تغطية خزانة حفظ الأغراض بورق مزيّن سميك. كانت الجدران زرقاء شاحبة، وحين فتحت الباب الزجاجي الجرّار وحاجب المطر في الغرفة الكبرى، اكتشفت شرفة صغيرة مفتوحة السقف.

سألت «هل ثمّة حديقة هناك في الخارج؟».

«لا، بل مجرّد فسحة عبور».

«فسحة عبور؟» قلت بنبرة جافة.

«أجل. تقود إلى بيت خلفنا. يعيش فيه رجل شرطة».

أجابت المرأة وكأنّها تستبق سؤالي.

عندما رحت أجول في أرجاء الشقّة بقيت فوساكو واقفة في المدخل الصغير. «أليس هذا بيتاً كبيراً؟» قالت على نحو متودّد للطفلة الواقفة خلفها. «سيكون بيتك عمّا قريب. في الغد

سننتقل جميعاً للعيش هنا».

قلت حين التقينا في الممرّ «ليس سيّئاً، ما رأيك؟».

«حقّا؟ أنا سعيدة بسماع هذا!» قالت فوساكو وقد بدا صوتها فرحاً جدّاً. لقد كانت مصممّة سلفاً.

«لكن المطبخ كما تلاحظين يبدو ضيّقا. قد لا يزيد اتساعاً عن كشك الهاتف!».

«هذا صحيح. لكنّي أستطيع التعامل مع الأمر. ليس بإمكاننا الحصول على كلّ ما نريد. كما ليس هناك أشياء كثيرة تعيق مرور أغراض المطبخ. وسيكون لي مطبخي الخاص للمرّة الأولى. الأمور ستجري على ما يرام».

«حسناً. لا بأس، هذا يحلّ الأمر إذن».

كلانا أراد الشقّة الواقعة في آخر الممرّ، إلا أنّها كانت مواجهة تماماً للحمّام فقرّرنا استئجار الشقّة المحاذية لها. في آخر الأمر، أيّ مكان سيكون مناسباً طالما بات بإمكاننا نحن الثلاثة العيش دون نواهي الآخرين وهمهماتهم.

قررنا الانتقال في اليوم التالي، وبقرارنا هذا غادرنا.

«أن لا يطلب دفع مبلغ مقدّم وعربون لهو أمر غير طبيعيّ في هذه الأيّام»، قلت للمرأة ونحن نغادر. «هذا يساعد كثيراً».

«أبي في الحقيقة لم يبن فقط هذا البيت، بل أيضاً قرّر كلّ هذه الأمور. إنّه رجل كادح لا من الصنف الجشع»، قالت ضاحكة. شعرنا آنئذ بأنّنا أمام أناس طيبين.

«تصبحين على خير، إذن»، قلت والفكرة الأخيرة في رأسي.

«تصبحون على خير».

كان دوري في حمل موموبي على ظهري. انطلقنا مرّة أخرى عبر الطريق الإسفلتي المنار بأضواء متفرّقة.

فجأة سمعنا صوت المرأة خلفنا ينادينا.

«اعذروني!» قالت. «هل تريدون الذهاب إلى بيتكم؟».

«هذا صحيح»، أجبتها.

وضعت المرأة يدها على فمها وضحكت.

«حسناً، أنتم تتوجّهون نحو النهر! وجهة المحطّة من هنا»، قالت مشيرة إلى الجهة المعاكسة.

«آه يا إلهي»، قالت لي فوساكو. «يا لك من أبله».

«لكنّك كنت تمشين في هذا الاتّجاه!».

«لا لم أفعل! أحسست بخطأ ما، غير أنّك بدوت واثقاً وهذا ما جعلني أتبعك!».

«ماذا!».

استمرّت المرأة في الضحك وهي تدخل إلى البيت.

بدّلنا اتّجاهنا ورحنا نحثّ الخطى.

«حسناً، كان هذا قريبا»، قالت فوساكو. «ليس لديك معرفة في تحديد الجهات. من يعلم إلى أين ستقودنا بعد هذا؟».

اعتقدت أنّها كانت تسخر ممّا فعلته؛ نبرة صوتها لم تبح بأكثر من هذا. فكرت مع ذلك بما إذا كانت تستخدم السخرية كي تعبّر ربّما عن انزعاج تبقيه في العادة عميقاً في داخلها. على أيّة حال، فقد أتى تعليقها جارحاً إذ بدا مشتملاً على ما هو أكثر من مجرّد مقدار ضئيل من الصدق.

لتكن لنا حياة هانئة، صلّيت في نفسي. كانت هذه صلاة كرّرتها مرّات عديدة، مئات المرّات في الماضي. بالنسبة لي هي دائماً صلاة جديدة. هيّا نبدأ من جديد ونحاول عيش حياة هانئة.

عندما رحت أعدّل وضعيّة الطفلة على ظهري، لاحظت أنّها غطّت في النوم سريعاً.

في اليوم التالي، شاء قدرنا أن تمطر، لكنّنا واصلنا عمليّة الانتقال.

الانتقال كان سهلاً بما فيه الكفاية طبعا لقلّة ممتلكاتنا. أغراض غرفتي نوم، وواجهة وأدراج صغيرة، وخزانة جانبيّة، ومكتب صغير، وطاولة سفرة خفيضة، وواجهة كتب صغيرة، وبعض الكتب من أيّام الدراسة لم أستطع التخلّي عنها (على الرغم من أنّني فقدت عادة القراءة منذ زمن بعيد) - هذه الأشياء، إضافة إلى عربة أطفال استخدمناها لمومويي، كانت تقريباً كلّ متاعنا الضروري. طلبنا من شركة النقل المحلّية أن ترسل صباحاً شاحنة بثلاثة إطارات، ذات غطاء قابل للطيّ، فحمّلنا فيها كلّ الأغراض وذهبنا في نقلة واحدة. حين وصلنا إلى الشقّة أنزلنا الأغراض في غرفة الحصر الأربعة عبر الشرفة. تركت مهام الترتيب لزوجتي، فتسلقت صندوق الشاحنة لتوصلني سريعاً إلى المحطّة. إذ كوني موظّفاً عادياً، لا يسعني أخذ إجازة من العمل في أثناء الأسبوع لمجرّد الانتقال إلى بيت جديد.

عندما رجعت إلى الشقة الجديدة في ذلك المساء، كانت مفروشاتنا قد أضحت منتظمة بأمكنتها في الغرف. في أوّل المساء، جاء صاحب محل الحلويات بعقد الإيجار، كما قام في أثناء وجوده في شقّتنا الجديدة بمساعدة فوساكو في إعادة ترتيب أشيائنا. تمّ وضع خزانة الأدراج والخزانة الجانبيّة بموازاة الجدار

في الغرفة الكبرى، ووضعت واجهة الكتب والمكتب قرب النافذة في الغرفة الصغرى، ووضعت طاولة السفرة الخفيضة في وسط الغرفة الكبرى، كلّ شيء في مكانه المناسب تماشياً مع نسق بيت لائق.

حين أغلقت الباب الزجاجي، فاحت في الداخل رائحة خشب قشط حديثاً.

«آه! رائحة شقّة جديدة!» قلت، وقد شبكت يديّ خلف ظهري ورحت أتهادى في أرجاء بيتنا الجديد على الرغم من صغره.

«لا تفعل هذا!» قالت زوجتي. «تبدو مثل محقّق يداهم بيتاً! أخلع عنك معطف المطر على الأقل».

صحوت من شرودي وخلعت المعطف، لكنّي لم أهتد إلى مكان أضعه فيه.

«أين نضع معاطفنا؟» سألتها.

«ألا يمكنك إيجاد مكان؟» أجابت، رافضة مغادرة المطبخ الأوّل الذي يمكنها اعتباره مطبخها.

ما دامت لم تخصّص مكاناً لتعليق المعاطف، فإنّه بالتأكيد ليس ثمّة مكان لهذه الغاية بعد. تناولت مطرقة وبعض المسامير

وتوجّهت لأصنع تعاليق موقّتة للمعاطف في الغرفة الصغرى. لاحظت عندما رحت أختار الموضع المناسب أن هناك مسماراً ظهر نائتا من الجدار بين النافذة والمدخل. اعتقدت في البداية أن النجّار قام بوضعه هناك لسبب ما ونسي انتزاعه. أغضبني التفكير بأنّ الأبله كان قد ترك مسماراً ناتئاً في جدارنا. قرّرت انتزاعه بواسطة مخلب المطرقة.

عندما مسست الجدار بالمطرقة صدر عنه صوت رنين – صوت لا يتوقّع سماعه من جدار في العادة. بدا ذلك غريباً، فضربته عندها ضربة خفيفة بالمطرقة للتيقّن من الصوت. توانغ توانغ. طرقته برأس أصبعي. توانغ توانغ. حككته بإصبعي. أمكن لي تحسّس نتوءات ناعمة تشبه الألياف. قربت نظري من الجدار وعاينته عن قرب. بدا مصنوعاً من الخشب الرقائقيّ.

انقبض وجهي بالذهول. صرخت منادياً زوجتي، أو هكذا اعتزمت عندما رحت في الحقيقة أكبح صوتي منتبهاً لوجود آذان خارج الشقّة. أتت فوساكو من المطبخ تعلوها ملامح الارتباك.

«انظري إلى هذا»، قلت لها، مشيراً إلى الجدار.

«ماذا هنالك، صرصور؟» قالت، مقطّبة وجهها.

«تعالي، انظري إليه عن قرب!».

«لا ينبغي لك أن تتكلّم بهذا الأسلوب!».

التقطت يدها دون رهافة وألصقت راحة يدها فوق الجدار. ظلّت تنظر إليّ، لكنّ ملامح وجهها غدت تشبه ملامحها وهي تقيس حرارة ابنتنا. بعد لحظة، استدارت بنظرها على مهل إلى الجدار. ثمّ تملّصت من يدي وأبعدت يدها عن الجدار.

«إنّه خشب رقائقيّ، أليس كذلك؟» قالت، ناظرة إليّ نظرة متجهّمة.

«هذا صحيح»، أجبتها.

حينها كان ذهني قد استبدّ به هدوء غريب يحلّ في كياني على الدوام كلّما واجهت موقفاً كهذا. يمكنكم تسمية ذلك ضعفاً طبيعياً مفرطاً على ما أفترض. في كلّ مرّة حلّ بي هذا الهدوء، ألفيت نفسي عاجزاً عن الشعور بالغضب والحزن، أو حتّى السعادة بمظهرها المباشر. كان الأمر نوعاً من جرأة سالبة تجعلني قادراً على تقبّل الأشياء كلّها دون سؤال، مذعناً لما لا يمكن تبديله.

«لقد خدعنا، أليس كذلك؟» عندها ازداد غضب زوجتي.

«لم نخدع. أرى فقط أنّنا لم نبال في الأمر».

«ماذا؟ لقد تعمّدوا إظهاره مثل جدار حقيقي!».

«أجل، لكن يبقى واضحا أن والد المرأة حاول بذل جهده، وهذا ربّما أفضل ما أستطاع عمله. ربّما اعتبر الأمر جيداً بما فيه الكفاية. على أيّة حال، لم يدّع أحد منهم أنّ هذا الجدار حقيقي، صحيح؟».

«كيف يمكنك أن تكون هادئاً هكذا تجاه الأمر؟» نظرت فوساكو إليّ مؤنّبة. «ألا يقلقك هذا؟ ألا تشعر بشيء من الانزعاج؟».

«بلى، لكن ليس ثمّة ما يمكنني فعله تجاه الأمر».

بدت مشرفة على الانفجار، لكنّ الواضح أنّها ضبطت نفسها ولم توجّه لي غير نظرة جحود.

لم أكن أجهل مدى الضيق والضرر اللاحق بالأعصاب جرّاء العيش في عالم الخشب الرقائقي، أو كيف أنّ الخشب ذاك قد يفسد أجواء الحياة المنزليّة. لا بل كنت مدركاً في الوقت عينه أيضاً أن كلّ من يدخل عالم الخشب الرقائقي لن يكون سهلاً عليه تخليص نفسه منه.

«لا بأس، دعونا نصبر على الأمر في الوقت الحاضر. جدار الخشب الرقائقي هذا يبقى ثابتاً على الأقل، فأرى أنّه أفضل من الحاجب الورقي».

في تلك اللحظة، عطس شخص في الشقّة المجاورة. لكن أحداً لم يكن يعيش هناك في تلك الشقّة. حين أدركت فوساكو أنّ صاحب الملك هو من كان يعطس في منزله الواقع على بعد ثلاثة أبواب من شقّتنا، ساد وجهها نظرة يأس وراحت تضرب كلّ جدران شقتنا بعصا منفضة الريش كما لو أنّها تقوم بفحصها.

توانغ توانغ، توانغ توانغ.

أثار الأمر مومويي كثيراً، إذ شاهدت ذلك. «أنا أيضاً، أنا أيضاً!» صرخت، وفي الحال راحت تضرب كلّ جدار تبلغه بيديها الاثنتين.

توانغ توانغ، توانغ توانغ

توانغ توانغ، توانغ توانغ

وعلى هذا النحو بدأت حياتنا في انسجام مرح.

في غضون أربعة أيام أو خمسة، شغلت جميع الشقق الثلاث الأخرى. استؤجرت في البداية الشقّة رقم واحد، الأقرب إلى المدخل، ثمّ تبعتها الشقّة رقم اثنين، وأخيراً الشقّة رقم أربعة، الواقعة في آخر الرواق بعد شقتنا ذات الرقم ثلاثة. كما كان متوقّعا، فإن الشقّة رقم أربعة هذه، المواجهة لباب

الحمّام، لم تستأجر إلا في النهاية.

من المستحيل معرفة إن كان السكان قد علموا في مسألة الخشب الرقائقي قبل انتقالهم إلى الشقق، أم اكتشفوا هذا فيما بعد. في الحال الأخيرة، فإنّهم لابدّ أدركوا الأمر بسرعة. حقيقة عدم تذمّر أحد منهم مردّها على الأرجح إلى إذعانهم أيضاً للأمر الواقع. جميعهم بدوا يعيشون حياة شاقّة في صمتها؛ إذ لم يكن عليهم الانتباه فقط إلى الأصوات الصادرة من خارج جدرانهم، بل أيضاً إلى أنّ كلّ صوت يصدرونه هم قد يسمع على الفور في الجهة الأخرى من الجدران. كان جميعهم بالتأكيد يقضمون ألسنتهم ويكبتون مشاعرهم.

الرقم أربعة كان استثناء في هذا.

المقيمة في الشقة رقم أربعة كانت امرأة تعيش بمفردها. حياتها الحرّة تميّزت بنمط لا يمكن تبنّيه إلا من قبل شخص تعوّد الحياة بين جدران الخشب الرقائقي بعض الوقت.

كانت المرأة في نحو الثلاثين من عمرها، صغيرة الجسم، لكنّ بنيتها بدت مشدودة وبدا جلدها داكناً مسمرّا. سرعان ما عرفت أنّ اسمها هو إيمي، إذ كانت على الدوام تعرّف عن نفسها بهذا الاسم عندما تتحدّث مع غيرها من السكّان في حجرة

الغسيل. تبادل الأحاديث، في الحقيقة، بدا لها طريقة التسلية الفضلى. كانت تهدر بصوتها الخشن الأجشّ كلّما وفّقت في اصطياد واحد من السكّان الآخرين وهو منهمك في تنظيف ثيابه في غرفة الغسيل. ولأنّها كثيراً ما ذكرت مدينتي يوكوهاما وتاتشيكاوا في أحاديثها، فقد اعتقدت أنّها كانت قد عاشت هناك أيضاً في مرحلة سابقة.

في مساء كلّ اثنين وجمعة، يزور إيمي هذه الرجل ذاته – أميركي في عقده الوسيط، أحمر الوجه، ويقود سيّارة محنيّة من الخلف، لونها أزرق مخضر. كان ينحرف عن الطريق الإسفلتي نحو الممرّ المؤدّي إلى خلف المبنى ويركن سيّارته هناك إلى جانب شرفتها. «هاي بايبي!» كان ينادي إيمي بصوته الجهوريّ. «مرحباً!» كانت تجيب بصوتها الحادّ إذ تخرج للقائه. وعلى مدى ساعات عدّة تلي، كان الاثنان يعليان موسيقى الجاز عبر الراديو وهما يلهوان ويمرحان في أرجاء الشقّة، يطلقان الصراخ والضحك بين الفينة والأخرى. بعدها، كان الرجل يركب سيّارته المحنيّة الظهر وينطلق مغادراً.

غير أنّ إيمي كانت، إذ يغادر الرجل، تقدم على أمر بالغ الغرابة. كانت تجثو عند أسفل سريرها وتصلّي. لا أعرف لماذا

كانت تصلّي ولمن. لكنّ إيمي كانت، كلّما غادر الرجل، تصلّي على هذا النحو دون كلل.

في المرّة الأولى، عندما سمعت إيمي تصلّي ظننت أنّها تبكي. بدا غريباً أن يكون شيئاً قد أحزنها بهذه السرعة، في حين كانت قبل دقائق تلهو مرحة في أرجاء شقّتها. لكن بعد تكرار الأمر عدّة مرات، لاحظت أن صوتها، الذي أتى يشبه النشيج في البداية، يتحوّل إلى نغم ذكر هادئ، أو نغم ملامة. بعد مغادرة الرجل، من المؤكّد أنّ لا أحد غير إيمي يكون في شقّتها. هي لا بدّ أنها كانت تتحدّث مع نفسها.

أثارت فضولي تلك المرأة التي كان بوسعها اللهو مع الرجل على الملأ حين يكون عندها، ومن ثمّ تبدأ بالبكاء أو بالحديث مع نفسها حين يغادر. بالطبع لم أستطع سؤالها عن الأمر على نحو صريح. على أيّة حال، كانت في الصباح التالي ستسلّي نفسها كالعادة بالأحاديث في غرفة الغسيل وكأنّ شيئاً لم يكن. كانت تثرثر بلا انقطاع وتضحك بصوت أجشّ، أو تدندن الأغنيات في قلبها. هي لم تبد أبداً أنّها المرأة التي تنغمس بهدوء في ذلك الأداء الخاص بآخر الليل.

كانت أمسية مفعمة بالرطوبة بعد نحو شهر من المناسبة الأولى. في ذلك الوقت، كان الرجل قد غادر شقّة إيمي.

في كلّ مساء كنت آخذ ابنتنا بعد العشاء وأصطحبها في نزهة إلى الخارج في حين ترتّب فوساكو الشقّة وتحضّر الأسرّة. غادرنا مبنى الشقق كالمعتاد في ذلك المساء وسرنا على طريق الإسفلت ذهاباً وإيابا أمام محلّ صاحب الملك. ثمّ عدنا إلى المبنى عبر الممرّ المؤدّي إلى شرفتنا.

عندما ألقيت نظرة سريعة نحو الشقّة رقم أربعة، لاحظت أن مصراع المطر مفتوح باتّساع قدم تقريباً. بقي ذلك المصراع دائماً مغلقاً في أثناء زيارة الرجل، غير أنّه ظلّ مفتوحاً لسبب ما في هذه الليلة. ربّما لأنّها ليلة متّقدة على نحو خاص، أو أن إيمي كانت تعوّدت فتح مصراع المطر لتحريك الهواء المحتقن داخل الشقّة بعد مغادرة الرجل.

سرت غير مكترث وعبرت أمام الشقّة موجّهاً نظرة سريعة إلى داخلها. هناك، عند الفاصل بين الغرفتين، كانت إيمي جاثية وظهرها نحوي. بدت كأنّها تريح جبينها على طرف سريرها المزدوج غربي الطراز، السرير الذي احتلّ معظم مساحة الغرفة الصغرى. للوهلة الأولى، بدت كما لو أنّها

تبحث عن شيء أضاعته تحت السرير.

أكملت سيري باتجاه منزل الشرطي في آخر الممر، ثمّ استدرت عائداً إذ علا صوت كلب بالنباح. عندما عبرت أمام شقّة إيمي، كانت الأخيرة مازالت في وضعيّتها السابقة.

بدا الأمر غاية في الغرابة. حين عدت إلى شقّتنا، أمكن لي كالعادة سماع صوت إيمي. سألت زوجتي عن الوقت الذي بدأ يعلو صوتها فيه. قالت إنّه علا بعد وقت قصير من مغادرتي. بعبارة، أخرى، فإنّ إيمي في كلّ ليلة تتحدّث إلى نفسها كأنّها توجّه لوماً لأحد وهي جاثيّة في تلك الوضعيّة.

وقد أذهلني فجأة أنّ وضعيتها المذكورة كانت وضعيّة صلاة. ربّما توجّه إيمي في تلك الأوقات صلاتها نحو أسفل السرير. ليس لي سبيل بالطبع إلى معرفة ما يحويه السرير تحته. لكنّي فكرت أنّه لابدّ من وجود شيء ما يختبئ هناك، شيء كانت تشعر بوجوب الصلاة له بعد مغادرة الرجل. لقد بدا ذلك المكان، بمعنى ما، مكاناً أنسب لإخفاء شيء ما عن الرجل أم عن أيّ شخص آخر.

منذ ذلك الوقت وما تلاه، صرت كلّما سمعت إيمي تصلّي أشعر كأنّني صحوت من نومي، كأنّني أجهد كي أنصت صامتاً لنفسي المحجوبة - وذلك لم يكن له علاقة بجدران

الخشب الرقائقيّ.
لا أعرف سبباً لهذا.

في كلّ صباح كنت أغادر شقّتنا قبل الساعة الثامنة، فأعبر الطريق الإسفلتي نحو المحطّة وأستقلّ قطار الضواحي متوجّها إلى وسط طوكيو. كنت أعمل في قسم الشحن بشركة نقل صغيرة اختصّت بشكل رئيسي بتوزيع واردات البريد بواسطة شاحنة. كنت في سنتي الثالثة في تلك الشركة.

قبلها عملت في قسم العمليات بدار نشر اختص بالكتب الأكاديميّة. انضمامي إلى الشركة جاء مباشرة بعد تخرّجي في الجامعة، لكنّ حين أفلست الشركة المذكورة، لم تكن فترة عملي بها قد تجاوزت كثيراً العام الواحد. وقع زواجي من فوساكو في تلك الفترة. عندما أفلست الشركة، كانت فوساكو تحمل بابنتنا وتتوقّع الإنجاب. تعيّن عليّ الاستمرار في العمل فترة قصيرة لأساعد في تسوية بعض القضايا الأخيرة المتعلّقة بالشركة، لكن بتعذّر حصولي على وعود أكيدة بعمل جديد، فقد خططت للعودة إلى بيتي العائلي في البلدة كي أراجع حساباتي من هناك. أرسلت فوساكو إلى هناك قبلي، ثم انضممت إليها فيما

بعد. مكثنا في البلدة نحو ستّة أشهر أنجبت فوساكو فيها ابنتنا موموبي. عندما وفقت على نحو غير متوقّع بعمل جديد، فقد فعلنا الشيء عينه مقلوباً - سافرت أنا إلى طوكيو في البداية، لتتبعني زوجتي فيما بعد، ومعها الطفلة.

لم يكن عملي الجديد سهلاً على نحو استثنائي ولا صعباً. تطلّب الأمر منّي بعض الوقت كي أعتاد على العمل، هذا الأخير الذي بدا في بعض الأحيان شيئاً صعباً نوعاً ما. لكن بعد نحو عامين، ازددت اعتياداً عليه ولم أعد أرى فيه أيّة صعوبة. ما كان يصيبني في بعض الأحيان هو إرهاق سببه رتابة العمل اليومي.

على الرغم من عدم صعوبة العمل، فقد حال إرهاقي بينه وبين السهولة.

غادرت العمل عند الساعة الخامسة دائماً، ووصلت عائداً إلى الشقّة بعيد السادسة. أحياناً، كنت أذهب لاحتساء شراب في طريق عودتي إلى البيت مع مديري في العمل أو مع زملائي. آنئذ، كنت أبدأ دائماً بالاعتذار بغية المغادرة قبيل العاشرة على أبعد تقدير، فأستقلّ قطار الضواحي عائداً إلى البيت.

كان مديري وزملائي يتبادلون النكات حول هذا الأمر، فيسمونني «الزوج الشغوف». لا بأس، إن كان الرجل الذي

يسارع عائداً إلى عشّه الزوجيّ «زوجاً شغوفاً»، فإنّ ذلك لن يتبدّل. محطّتي كانت من محطّات الخط البعيدة، في حين تتوقّف القطارات عن الخدمة باكراً في المساء. إغفالي القطار الأخير منها كان يعني أنّني قد علقت.

في إحدى المرات، نسيت أنّنا انتقلنا إلى الشقّة الجديدة، فسبقني قطار المسافات الطويلة وكان عليّ النزول في محطّة تقع قبل نقطتي وقوف من محطّتنا. من هناك، سرت إلى البيت بمحاذاة خطّ السكّة في الظلام. كان صديق قديم من الجامعة قد دعاني للخروج معاً، فرحنا نتسكّع بين الحانات في منطقة الحياة الليليّة.

اسم صديقي هو كويكي. تعرّفت إليه بين مجموعة من العابثين انغمسوا معاً في حياة لهو في فترة دراستنا، وقد افترقنا منذ أن غادرنا الجامعة. «صداقتنا» اقتصرت على لقاء أو ما شابه، مرّة واحدة في كلّ عام، وذلك مثلاً حين يأتي أحد من مجموعتنا إلى طوكيو من البلدة. في أحد الأيام، اتصل بي كويكي هذا إلى مكتب العمل. سألني إن كان بوسعنا اللقاء في تلك الأمسية، إذ ثمّة من يودّ منّي مقابلته. عندما سألته عن هويّة هذا الشخص، لم يشأ ذكر أيّ اسم ولم يقل سوى إنّه امرأة.

أثار الأمر فضولي ووافقت على اللقاء. أخذني كويكي إلى حانة قرب محطّة قطار وسط المدينة. كانت الحانة صغيرة جدّاً لدرجة أنّ خمسة زبائن قد يملؤونها. بدت الحانة خالية عندما وصلنا، ولم يكن هناك سوى امرأة نحيفة في نحو الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين، جالسة خلف البار تقرأ صحيفة وشعرها مرفوع ومعقود في أعلى رأسها.

عندما شاهدت المرأة أحسست أنّني رأيتها في مكان ما من قبل، لكنّني لم أستطع تذكّر أين. غير أنّها إذ رأتني قالت «مرحباً بك»، وكأنّها تذكّرتني في الحال، ونادتني باسمي. عندما لاحظ كويكي نظرات المفاجأة في عينيّ انفجر في ضحك مشهود. «حسناً؟» قال كويكي. «هل لي أن أخبرك؟» لكن قبل تفوّهه بأيّة كلمة تذكّرت في الحال. ما أثار ذاكرتي كانت عادتها في طرف عينيها على نحو متواصل عندما ينتابها الخجل. هذا إضافة إلى بقع النمش الداكنة التي تنتشر من أنفها نحو أسفل عينيها.

كانت المرأة قد عاشت مع هيغوشي، أحد أصدقائنا، طوال أكثر من عام في فترة دراستنا وذلك قبل أن يقدم الأخير على هجرها. مضى على تخرّجنا خمسة أعوام، وهذا الأمر يعود إلى سنتنا الثالثة في الجامعة، أيّ أنّ سبعة أعوام كانت قد مرّت حتّى

هذا اليوم. رأيتها مرّات عدّة من قبل وأنا في رفقة هيغوشي. تذكّرت أنّها تكبر هيغوشي بسبعة أعوام. لقد باغتها الكبر على نحو لافت وبدت هيئتها هزيلة. في الماضي، كانت تعمل في متجر تسوّق كبير وترتدي على الدوام ثياباً أنيقة.

«آه، هذه أنت!» قلت لها وقد فاجأني الأمر من عدّة نواح. كنت قد نسيت اسمها. «يا لها من مفاجأة جميلة، بعد كلّ هذه السنوات!»، قالت. وإذ علت الابتسامة الخجولة وجهها، راحت تصبّ الساكي من زجاجة كبيرة، في وعاء خزف أصغر يخدم الشاربين. في أثناء قيامها بصبّ الساكي، بدأت دموع كرويّة كبيرة تنهمر بسرعة بتتابع فوق وجنتيها. ثمّ مالبثت هذه الدموع أن توقّفت على نحو مفاجئ كما ظهرت. أكملت المرأة صبّ الساكي كأنّ شيئاً لم يكن، ودون أن تنهي ابتسامتها حتّى. لم تحاول مسح الدموع من عينيها؛ هذه الأخيرة التي لم تبد مبلّلة بالدموع.

في الحقيقة، كانت تلك طريقة بكاء مقبولة. هناك أشخاص يستطيعون الاستلقاء والشروع في الغطيط على الفور، ثمّ ينهضون في الحال ما أن يتمّ إيقاظهم. هؤلاء «نؤومون جيّدون». بالاستناد إلى المبدأ إياه، فإنّ المرأة هذه قد تعدّ بكّاءة جيّدة. لم

يكن هذا من الأمور التي يمكن لأحد أن يقلّدها.

يبدو أنّها خبرت أوقاتاً عصيبة منذ أن هجرها هيغوشي، قلت في نفسي.

من جهتي، لم أكن أودّ البقاء أبداً. إلا أنّني لم أستطع المغادرة هكذا، كأنّني لم أذهب إلى هناك إلا كي استهزئ بها. لذا تريثت على مضض. لم يذكر هيغوشي في حديثها ولو لمرّة واحدة في جلستنا. كما أنّنا حرصنا على تجنّب المواضيع المتّصلة به، فتبادلنا أحاديث خفيفة عوضاً عن ذلك.

عندما افترقت عن كويكي وتوجّهت إلى محطّة القطار، كنت قد تأخّرت. بلا انتباه، سلكت الطريق القديمة التي تعوّدتها في السابق، ناسياً أنّنا انتقلنا من شقتنا السابقة تلك. قبل محطتيّ وقوف من محطّتي المرغوبة، كان ثمّة إعلان يشير إلى انتهاء الخدمة في ذلك المكان. ولمزيد من التعقيد، فقد كان قطار الوصل المحلّي في ذلك الوقت قد أنهى ليلته. لم يكن لي خيار سوى السير إلى البيت بمحاذاة خط السكّة العابر في الحقول والذي يعدّ الطريق الأقصر نحو بيتنا. ثمّ إنّني تبعت خط السكّة كيلا أضل طريقي.

كانت ليلة صافية على الرغم من احتجاب القمر وقد بدت العارضات الخشبيّة في خط السكّة متوهّجة بلون أبيض شاحب

تحت ضوء النجوم. عندما رحت أخطو من عارضة إلى أخرى، أعدت التفكير ثانية بدموع المرأة، وبحجم تلك الدموع الكبير وغير المعتاد. بعد السنوات الكثيرة التي مضت، يمكنها البكاء بهذه البساطة دون أن تخصّص أيّ ذكر للماضي. لا بدّ أنّها بكت كثيراً فيما مضى.

لا أعرف كيف التقت بـ(هيغوشي) أو كيف أصبحا مرتبطين عاطفيّاً، لكنّ قبل معرفتي بالأمر الأخير فقد كانا يعيشان معاً في شقّته. كلّما ذهبت هناك، كان هيغوشي يتصرّف بوصفه زوجاً مستبدّاً وببساطة يفعل ما يحلو له. هي في المقابل، كانت دائماً تبتسم بإذعان، مثل شقيقة كبرى تربكها تصرّفات شقيقها الأصغر الطائشة. وعلى الرغم من هذا، فقد كانا في الظاهر يبدوان صاحبين منسجمين.

عندما مضى عام، قام هيغوشي يوماً ودعانا، كويكي وأنا، إلى شقّتهما قائلاً إنّها «الذكرى الأولى» لعلاقتهما. حين وصلنا لاحظنا أن صاحبة هيغوشي أيضاً دعت ثلاثة من أصدقائها. اثنان منهم كانا من زملائها في المتجر العام، والأخرى من أصدقاء طفولتها في القرية. الصديقة هذه كانت معلّمة مدرسة ابتدائية جاءت إلى طوكيو للانخراط في دورة تعليم صيفيّة.

وعلى ما أذكر، فقد كانت تلك المعلمة جميلة جدّاً، لها وجنتان مستديرتان وعينان متلألئتان.

أسرفنا في الطعام والشراب تلك الليلة، فأضعنا قطاراتنا وقضينا الليل في النهاية مفترشين الأرض. كان هناك غرفتان، واحدة بستّ حصر تاتامي، والأخرى بثلاث. هيغوشي وصديقته، كونهما صاحبين، ناما في الغرفة الصغرى، فيما حلّ الضيوف الخمسة في الغرفة الكبيرة. كانت ليلة حارّة رطبة من ليالي شهر آب ولم نحتج إلى أغراض نوم كثيرة، فقمنا أنا وكويكي ببسط دثار ونمنا عليه.

صحوت في الصباح التالي وأنا أعاني صداعاً رهيباً، وتوجّهت إلى المطبخ لأشرب الماء. كان الآخرون مازالوا نائمين، لكنّ هيغوشي صحا بدوره وتبعني إلى المطبخ. «لقد فعلتها!» قال، مقرّبا فمه إلى أذني.

«فعلت ماذا؟» سألته، وأنا أحدّق في وجهه.

«لقد فعلتها مع المعلّمة!» أجاب مبتسماً ابتسامة عريضة وخبيثة.

«متى؟».

«ليلة أمس».

«كاذب»، قلت له ضاحكاً.

«صدّقني!».

«كيف يمكنك فعل هذا والجميع نائمون حولك على الأرض؟» سألته. ضحك ضحكة خافتة لكنّه لم يجب.

«كيف حصل الأمر؟».

«لا أعرف! لقد حصل وحسب».

«ماذا لو انتبهت صديقتك؟».

«سأتعامل مع الأمر عندما يحين الوقت! على أيّة حال، انتبهت أم لا، فقد قضت الليل وهي نائمة قبالة خزانة الأدراج».

حدّقت فيه مذهولاً.

بعدها بنحو أسبوع، أنفصل هيغوشي عن صديقته. لا أعرف إن كانت الأخيرة قد علمت بخيانته في تلك الليلة، لكن، على أيّة حال، فإنّ اهتمامه بمعلّمة المدرسة أدّى إلى إنهاء علاقتهما. كما أنّني لا أعلم إن كان هو أو معلّمة المدرسة قد بادرا بشيء. لكن، قيل إنّه قبل نحو ثلاثة أيّام من انفصالهما، بكت صاحبته كلّما تكلّمت كأنّها عاجزة عن قول أيّ شيء دون نحيب.

يبدو أن هيغوشي بعد الانفصال قد التقى بمعلّمة المدرسة مرّات قليلة، وفي الصيف فقط. انتهى كلّ شيء حين عادت إلى

مدرستها في القرية. إثر ذلك، عاد هيغوشي إلى بلدته حيث تزوّج وصار مندوب القرية الأصغر في المجلس البلدي المحلّي.

ليس لديّ أيّة فكرّة عمّا أودى بصاحبته القديمة إلى تلك الحانة وسط المدينة.

إلا أنّ علاقتهما لم تكن سوى نزوة عابرة.

بعد سيري لبعض الوقت، لاحظت فجأة أنّ وقع قدميّ على عارضات خط السكّة الخشبيّة قد تبدّل. كان الوقع يصدر صوتاً حادّا وجلبة قويّة، وقد غدا الآن عريضاً ومدوّيا. نظرت إلى قدميّ مفكّرا بغرابة الأمر، فرأيت أنّ الأرض تحت عارضات خط السكّة الحديدية قد غدت ماء يعكس سطحها الداكن السماء المنجّمة.

ضللت دون أن أعرف طريقي فتبعت جسر السكّة الذي يعبر من فوق النهر. لو لم أستدرك الأمر، لكنت قد أكملت طريقي متجاوزاً الجسر. توقّفت على الفور وبقيت في مكاني واقفاً فوق إحدى عارضات السكّة وساقاي ثابتتان مثل عمودين.

أرجوك اغفر لي

هكذا بدأت زوجتي رسالتها. وصلتني الرسالة عندما كنت لاأزال في طوكيو مصفّيا ما تبقّى من أعمال في شركة النشر المنهارة. كانت فوساكو قد عادت إلى منزل عائلتي في البلدة كي تنجب الطفل هناك، وكنت أنا أخطّط للحاق بها. إلا أن الكلمات حينها جاءتني مثل مفاجأة مذهلة:

أرجوك اغفر لي.

الرسالة كانت طويلة. وصلت إلى البيت لتوّي من العمل، فجلست تحت ضوء السقف كي أقرؤها وأنا لاأزال مرتدياً معطفي دون أن أفكّ أزراره.

لقد كنت متردّدة وقلقة تجاه ما إذا كان ينبغي لي إخبارك بهذا. لكنّي الآن بتّ مصمّمة على مصارحتك. قد تسأل لماذا لم أذكر لك الأمر من قبل. جزء من السبب، بصراحة، هو خوفي. والجزء الثاني هو أنّ الأمر ليس له علاقة بحياتنا معاً. وأنا مؤمنة بأنه يجب ألا يؤثّر على حياتنا معاً. إلا أنّني الآن إذ أوشك على إنجاب طفلك، قد بدأت أشعر بقلق شديد تجاهه. لقد بتّ شديدة القلق لدرجة أنّني لو بقيت صامتة هكذا، مخفية الأمر في قلبي، فإنّه قد يؤثّر على الطفل فيثير ذكريات غير جميلة عندما

يكبر أو تكبر. لا أودّ إثقال طفلك بذكريات كهذه. كلّما تحرّك الطفل داخلي هذه الأيام، فإنّ الفكرة الوحيدة التي تردني هي وجوب إخبار الحقيقة بأسرع ما يمكن، فأريح جسدي من تلك الأكاذيب والذكريات البغيضة كلّها. يكاد ينتابني شعور بأنّ طفلنا الذي لم يولد بعد يحثّني على ذلك. بالتأكيد أنت الشخص الوحيد الذي يمكنني فتح قلبي له الآن. طالما عذّبت نفسي من فكرة وجوب إخبارك بالأمر أم لا. لكنّني فقدت الاحتمال. وها أنا أذعن أمام نفسي كي أخبرك الآن. إنّك على الأرجح ستفاجأ من سماع كلّ هذا فجأة، لكن أرجوك دعني أكمل.

وراحت تكمل كي تخبرني عن ماضيها.

في صيف العام الذي سبق زواجنا، كانت قد ارتبطت بعلاقة جنسيّة دنيئة مع رجل آخر. كانت تعمل أمينة صندوق في مطعم يدعى كوروميا، بالقرب من دار النشر التي عملت فيها. كانت شركتي تعقد اجتماعات في صالة الطابق العلوي للمطعم. شخصياً كنت أذهب إلى المطعم لتناول غداء خفيف أو لاحتساء فنجاناً من القهوة مرة أو مرّتين في الأسبوع، وفي تلك الأثناء، ألتقي زوجتي المستقبليّة عند صندوق الحساب. وقتها، كنت في

الرابعة والعشرين وهي في العشرين.

عندما وقعت في غرامها، توقّفت عن الذهاب إلى المطعم واخترت أن ألتقي بها في مكان آخر. طلبت يدها في ذلك الصيف، وتزوّجنا في الخريف. وقد حملت على الفور.

في صيف العام الذي سبق زواجنا، كانت فوساكو في التاسعة عشرة. كانت تلك فترة علاقتها الدنيئة مع رجل يدعى ناكاأوكا، رئيس طهاة في المطعم.

أرفض اعتبار نفسي ذلك الشخص. لا أستطيع احتمال التفكير بأن ذلك الشخص كان أنا.

كانت فوساكو قريبة بعيدة لصاحب مطعم كوروميا. حين تركت المدرسة الثانويّة التي كانت مسجّلة بها في نصف دوام في قريتها لأسباب عائليّة، عرض عليها آنذاك منصب أمينة الصندوق في المطعم. وقتها، كان ناكاأوكا يسكن في المطعم. وثمّة أربعة رجال يعملون في المطبخ، بالإضافة إلى عشر نادلات. النادلات يحضرن ويغادرن في كلّ يوم، في حين عاش الرجال في الغرفة المحاذية للمطبخ.

ناكاأوكا رجل مديد القامة، طويل الوجه، عريض الجبين في نحو الثلاثين من عمره. سمعته بوصفه رئيساً للطهاة كانت حسنة، غير أنّه كان ذا طبع صامت ومتحفّظ. وبعيد عن إصدار الأوامر إلى مساعديه وعن تلقّي الطلبات من النادلات مهمهما، فإنّه كاد ألا يصدر أيّ صوت أو حتّى ابتسامة. اعتبرته فوساكو في البداية غريباً ومثيراً للقلق بعض الشيء. لكنّها أيضاً اعتبرته موثوقاً به إلى حدّ ما. والذي زاد على الأمر هو أن فوساكو كانت الوحيدة التي استثارت الجانب الآخر من شخصيّة ناكاأوكا – راح أحياناً يخصّها ببعض الكلمات القصيرة، أو يبتسم ويرفّ بعينيه لها، هذا الحركة الأخيرة التي بدت مفاجئة في رقّتها. شيئاً فشيئاً، وجدت فوساكو نفسها منجذبة إلى ناكاأوكا. في العام التالي، حين بلغت التاسعة عشرة، راحت تشعر، وعلى نحو غريب، بأنّها تنتظر منه شيئاً.

في إحدى الأمسيات، بأواسط موسم الأمطار، حملت فوساكو غلّة النهار وإيصالات الحسابات المسدّدة إلى مكتب صاحب المطعم بعد انتهاء الدوام كالمعتاد، ثمّ صعدت إلى الطابق العلوي كي تتفقّد كلّ شيء. كانت مهمّة ترتيب المطعم بعد إغلاقه ملقاة على عاتق النادلات اللواتي يعملن في نوبة الدوام

الثانية، لكنّ هؤلاء أحياناً كنّ يغفلن بعض الأمور، ما جعل فوساكو توافق على تفقدّ المطعم كلّ مساء كي تتيقّن من حسن سير العمل.

كانت تتفقّد الغرفة في الطابق العلوي كيّ تتيقّن من إقفال النوافذ عندما انطفأت الأضواء على نحو مفاجئ. أحدهم أطفأ الأضواء.

«من هناك؟» سألت فوساكو. حين استدارت أمكن لها رؤية رجل طويل يتقدّم نحوها بسرعة عبر الظلام.

عندما اكتشفت أنّه ناكاأوكا، أحسّت على نحو غريزيّ أنّها تنتظر تلك اللحظة.

حاول ناكاأوكا بعناد أن يفرض نفسه على فوساكو. قاومته عبر شدّ جسدها بكل ما أوتيت من قوّة وعبر الضغط على ركبتيها كي تبقى إحداها مثبّتة بالأخرى. وإذ راح الاثنان يتصارعان على هذا النحو، أرخى ناكاأوكا قوّته فجأة. ثمّ خطا على مهل متراجعا ومضى مغادراً الغرفة دون أن ينال مبتغاه منها، لحسن الحظ.

على الرغم من تحرّرها من محنتها، لم تستطع فوساكو حمل نفسها على السير في الحال. بطنها الذي شدّ إلى الداخل وركبتاها

اللتان ثبتتا معاً جعلتها تثب كالأرنب نحو مفتاح الضوء. حاجتها إلى إضاءة الغرفة كانت أكبر من خجلها فيما لو شاهدها أحد. أضاءت أنوار الغرفة.

تقدّم ناكاأوكا نحوها في مشية متمهّلة وبأسلوب يناقض ما بدر منه تجاهها قبل لحظات. «أخبري الناس إن شئت»، قال، متوجّهاً إليها بضحكة. وراح يهزّ رأسه وهو يعود نازلاً إلى الطابق السفلي.

امتلأ رأس فوساكو بإحساس العار. فهي الآن أدركت تماماً ما يريد ناكاأوكا منها. ولم يكن الأمر ما كانت تتوقّعه.

توجّهت في الحال إلى غرفة الطابق العلوي الخلفيّة كي تتفقّد نفسها. كلّ شيء كان سليما. أحسّت بالارتياح جرّاء ذلك.

باتت فوساكو منذ ذلك الوقت حذرة تجاه ناكاأوكا. صارت على الدوام تصطحب في جولاتها التي كانت تقوم بها بعد الإقفال، ابنة عمّها المتزوّجة التي تعيش في إحدى غرف المطعم. في تلك الأثناء، رجع ناكاأوكا إلى ذاته الصموتة السابقة. عاد يتحدّث إلى فوساكو ويبتسم لها بأسلوبه المعتاد، كأنّه نسي تماماً تصرّفه الفظ في تلك الليلة. راحت فوساكو تفكّر فيما إذا كانت قد أساءت فهمه، وأن تصرّفه هو مجرّد طريقة هوجاء في التعبير

عن مشاعره. لكنّها سرعان ما اكتشفت أنّ الأمر لم يكن كذلك. لو أنّه حاول فعلاً التعبير عن مشاعره، لكان قاربها وجهاً لوجه، بطريقة هوجاء أم لا. القبض على شخص عبر الإمساك بخصره من الخلف هو بالتأكيد ليس أسلوباً طبيعياً.

على أيّة حال، لقد تمنّت فوساكو أن يقوم ناكاأوكا بقول شيء عن الموضوع. إذ بتصرّفه ذاك، الذي لم يرفقه بأيّة كلمة، وجدت فوساكو صعوبة في فهم نواياه.

مرّ شهران. ثمّ، في مهرجان بون[1] في شهر آب، حلّ اليوم الفظيع.

اصطحب مالك المطعم وزوجته أولادهما لزيارة مدافن العائلة في مقاطعة قريبة، في حين غادرت ابنة عمّ فوساكو وزوجها إلى بلدتهما في شينشو. أقفل المطعم مؤقّتا نتيجة لهذا. بقيت فوساكو وامرأة عجوز تساعدها في رعاية الممتلكات في غياب الجميع. بدا أن موظّفي المطبخ غادروا إلى بلداتهم مبكّرين في ذلك الصباح.

وقع الأمر في وضح النهار.

تقدّمت فوساكو عبر رواق الطابق العلوي المؤدي إلى منفذ

(1) مهرجان ياباني بوذيّ يكرّم أرواح الأجداد الميّتين.

صغير في آخر المطعم حتى تجمع الغسيل عن حبال التجفيف. عندها، وعلى نحو مفاجئ، اصطدم شيء صلب بطرف رأسها. التفتت في الحال ورأت ناكاأوكا متربّصاً قربها. تلاشت رغبتها في الهرب عندما رأته وسقطت مستسلمة فوق أرض الرواق. رأسها بدا مشوّشاً وذهنها خامداً.

جرّ ناكاأوكا فوساكو إلى غرفة ابنة عمّها ومزّق ثيابها. بعد أن أبدت ما تستطيعه من مقاومة، لم يعد بوسع فوساكو استجماع أية قوّة لصدّه. حاولت أن تقاوم بكل ما في وسعها من طاقة، إلا أنّ حزام الكيمونو القطني الذي ترتديه قد ارتخى وارتفع إلى الأعلى ليضغط صدرها. لحظتها، لم يعد بوسعها التقاط أنفاسها إلا بصعوبة.

أخيراً تمكّنت فوساكو من القعود. بدت في حالة اضطراب. سوّت ثيابها في الحال، ثمّ جلست هناك بعض الوقت طاويّة ذراعيها حول ركبتيها ومرخية وجهها إلى أسفل. سرعان ما استعادت هدوءها، ثمّ راحت تتفقّد نفسها مرتجفة. كانت تنزف قليلاً.

أرجوك اغفر لي، أرجوك صدّقني. وأرجوك أن تنسى أنني

أخبرتك هذا.

بذلك، ختمت فوساكو رسالتها.

أقبل عيد ميلاد طفلتنا الثالث.

أعياد ميلادنا ببساطة تأتي وتذهب، لكنّ عيد موموبي يستحقّ وصفه بـ «المقبل»، القادم من البعيد والمقترب يوماً إثر يوم. راحت زوجتي تجري تحضيرات معنويّة عديدة قبل أيّام من حلوله، لكن إذ أقبل ذلك اليوم، يكون الحفل متواضعاً.

لأن عيد موموبي وقع في يوم السبت، غادرت العمل منتصف النهار ومررت على المتجر العام. وهناك وجدت اللعبة التي طلبت منّي فوساكو شراءها، وأحضرتها معي إلى البيت. كانت اللعبة من نوع يسمح بنزع ثيابها وغسلها وتبديلها، كما يمكن حلّ شعرها وجدله أو تسريحه. في القطار وأنا ذاهب إلى البيت، لاحظت أنّ اللعبة تبكي أيضاً. راحت تبكي كلّما غيّرت وضعيّة إمساكي بصندوقها، وقد أحرجني الأمر كثيراً. بكاؤها بدا صاخباً على نحو مذهل.

وضعت فوساكو قالب حلوى العيد، تتصدّره شموع خضراء ثلاث، وسط طاولة طعامنا الخفيضة. أحاطته بالأطعمة المفضّلة

لطفلتنا، الأطعمة التي تعذّبت في شرائها، ودعتنا للجلوس حول الطاولة. ثمّ أضاءت الشموع الثلاث بواسطة عود ثقاب.

قالت للطفلة «الآن عليك بالنفخ على الشموع كي تنطفئ»، مقلّدة حركة النفخ في شفتيها. نظرت مومويي إليّ، ثمّ نظرت إلى الشموع كما لو أنّها لا تعلم ماذا يدور.

«هيا، حاولي»، قلت مشجّعاً.

أغمضت الطفلة عينيها ونفخت على نحو عشوائي. كان الأمر كافياً لانطفاء إحدى الشموع.

«في الحقيقة عليك إطفاؤها كلّها في نفخة واحدة، لكن لا بأس في الأمر إن كنت غير قادرة على هذا بعد. أطفئي كلّ واحدة منها على حدة». قالت فوساكو غير موجّهة كلامها لأحد، وكأنّها تعتذر لعدم قدرة الطفلة على إطفاء الشموع.

تلألأت عينا مومويي بالزهو جرّاء تمكّنها من إطفاء شمعة واحدة. اشتدّ توقها لإطفاء شمعة أخرى حتّى كادت تحرق أنفها وهي تقترب منها، فانتفضت إلى الخلف جذلة. لن يكون أمراً مرحاً لو أنّها أحرقت أنفها في عيد ميلادها. فقمنا أنا وزوجتي معاً بإطفاء الشمعتين المتبقيتين.

«سنة حلوة يا مومو تشان[1]».

«عيد سعيد!».

ابتسمت الطفلة ابتسامة كبيرة وهي تداعب بإصبعها معصم اللعبة الصغير.

وهكذا احتفلت موموبي بعيد ميلادها الثالث.

احتسيت زجاجتين من البيرة احتفاء بالمناسبة. ولأنّني لم أكن معتاداً على الشراب في الليل، فقد أحسست على الفور بأثر البيرة.

عندما اختفى كلّ شيء تقريباً عن الطاولة، اقترحت أن نذهب جميعاً إلى الحمّام العموميّ القريب.

«هل أنت موقن من أنّك لست ثملاً؟» قالت فوساكو، على الرغم من شروعها في تهيئة أغراض الحمّام.

كنت أستمتع في الذهاب إلى الحمّام العمومي منذ طفولتي، وزوجتي كذلك. كما أنّنا بتنا ندرك في هذه الأيّام مدى الراحة المتأتّية من النزول إلى الحمّام العموميّ وكم هو أثير وقت الانسجام العائلي السعيد الذي يتيحه هذا الأخير، خصوصاً أنّنا تعوّدنا العيش في بيوت الناس الآخرين أو في شقق جدرانها

(1) عبارة تكريم يابانيّة تلحق باسم العلم Chan.

من الخشب الرقائقي. وفي كلّ مرّة أشرع فيها بالسير إلى مدخنة الحمّام العمومي، المدخنة الطويلة والنحيفة المنتصبة في أقصى طرف الحقل، يستولي عليّ شعور بالحريّة على نحو مفاجئ وبخفّة أكبر في جسدي. زوجتي أيضاً تظهر نشاطاً متجدّداً في ملامحها وتزداد قدرتها على الكلام. موموبي تريد دائماً الركض أمامنا بحريّة. والشيء الذي يعجبني على نحو خاص هو طريقة ظهور مدخنة الحمّام التي يمكن رؤيتها من بعيد، إذ تبدو تلك المدخنة وكأنّها تتقهقر نحو الطرف النائي للحقل حين نبدأ بالسير نحوها.

أرادت موموبي أخذ لعبتها الجديدة معها إلى الحمّام، اللعبة التي اشتريتها في اليوم عينه ذاك. كنّا نحاول في العادة الذهاب بأقلّ ما يمكن حمله من الأغراض، وكانت زوجتي تهمّ في ابتداع تمثيليّة صغيرة مع تلك اللعبة تقنع موموبي عبرها في إبقائها في البيت بانتظارنا. لكن، ولأنّه يوم عيد ميلادها، فقد قررنا السماح لها بالتصرّف على هواها هذه المرّة فقط، بشرط أن تقوم هي في حمل اللعبة.

عندما خطونا خارجين من الشقّة، كان ثمّة دخان نار موقدة يتصاعد فوق الطريق الإسفلتي في ضوء الغسق الخافت.

وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة، اختفت صفوف البيوت وغدت الطريق محاطة من الجهتين.بما تبقّى من حقول الشعير النضرة الخضراء في أوّل الصيف. عندها، بدت مومويي وكأنّها قد ندمت على إحضار لعبتها معها. وكما جرت العادة، أمسكنا أنا وزوجتي معاً بيديّ مومويي ورحنا نؤرجحها في الهواء ونعد حتّى الثلاثة، إلى أن بلغنا موضعاً تنتهي عنده طريق الحصى ليبدأ الحقل.

«ماما؟».

نظرت الطفلة على الفور إلى أمّها.بملامح عدم الرضا.

«ماذا عن واحد – اثنين – ثلاثة؟» قالت.

«لكنّك تحملين لعبتك»، أجابت فوساكو بشيء من جفاف متعمّد، كأنّها تقول لها لقد طلبت منك ألا تحضري لعبتك. «لا يمكنك القيام بذلك بيد واحدة، أليس كذلك؟».

غدا وجه مومويي حزيناً وراحت تنظر إلى راحة يدها الفارغة.

في تلك اللحظة، وعلى نحو مفاجئ، خطرت في رأسي جملة «الكلّ في وضعية الرقص!».

إنّها واحدة من الأوامر التي يطلقها قائد رقصة فولكلورية تجاه حلقة الراقصين وهو يصفق الإيقاع بيديه. أنا شخصيّاً لا

أرقص لكنّي في إحدى المرات شاهدت جماعة من الناس يفعلون هذا.

كان ذلك في يوم أحد تلا مباشرة انتقالنا إلى الشقّة عند خروجي متجوّلاً في الحيّ مرتدياً سترتي المبطّنة.

كنت قد انحرفت عن الطريق الإسفلتي نحو شارع فرعي ورحت أسير بين بعض بيوت المزارع القديمة الطراز حين سمعت اللحن الجذل لأغنية «أووه سوزانا!» منبعثاً من الأجمات أمامي. عندما أصغيت، أمكن لي أيضاً سماع بعض التصفيق الإيقاعي.

لابدّ أنّه رقص فولكلوري، قلت في نفسي. ربّما ثمّة متنزّه هناك أو شيء من هذا القبيل.

أسرعت خطوي قليلاً نحو الغابة. وهناك لم أجد متنزّها، بل بناء ذا طراز غربي مطليّاً بالأخضر. في فسحة العشب الكبيرة أمامه، كان ثمّة ما يزيد عن الخمسين شاباً وفتاة يرقصون الفولكلور على إيقاعات موسيقى فرقة تعزف على آلات البانجو[1]. قائد الفرقة راح يصفّق إيقاعاً بيديه في حين ظلّ البانجو يتدلّى من عنقه، وكان يطلق سلسلة من الهتافات: وانحنوا!،

(1) آلة موسيقيّة طوّرها السود المستعبدون في أميركا في حقبة الاستعمار. البانجو عدّلت استناداً إلى عدّة آلات موسيقيّة أفريقيّة.

والكلّ في وضعيّة الرقص!، مركّزاً على نحو غير عادي في لفظ المقطع الأخير.

ارتدى الراقصون الشبّان جميعاً، ذكوراً وإناثاً، ثياباً متعدّدة الألوان وراحوا يقفزون في الأرجاء برشاقة كبيرة. وجوههم مكلّلة بالابتسامات خلت من أيّ ملمح من ملامح الخجل الشاقّ، ودناءة النفس، والكبت، والتردّد، أو ما شابه. طفحت وجوههم الرقيقة المحمرّة قليلاً بالصدق والألفة.

طويت ذراعيّ داخل جيبي سترتي المبطّنة وراقبتهم من الجهة الأخرى للسياج. الآن هذا ما أسميه انسجاماً سعيداً، فكرت في نفسي. كبت مشاعر الغيرة المتصاعدة ومضيت إلى البيت.

والكلّ في وضعيّة الرقص! كأن هذه الكلمات غدت، منذ ذلك الوقت، محفورة داخل رأسي. وقد عادت إليّ من تلقاء ذاتها حين أحسست بلحظة سعادة الانسجام مع عائلتي.

«هاي، هيّا نرقص والكلّ في وضعية الرقص!» قلت لموموبي. نظرت إليّ وابتسمت.

«بهذه اليد؟» قالت، وهي ترفع يدها الفارغة عالياً.

«طبعاً».

«واللعبة؟».

«سوف أحملها».

سلّمتني حملها الثقيل وقفزت في الهواء بضحكة مرحة.

سألت زوجتي «ماذا تقصد بـ «والكلّ في وضعيّة الرقص؟»».

«ألا تعرفين؟ نمسك بأيدي بعضنا ونثب وندور معاً».

«مومو تشان لا تقوى على الوثب بعد».

«هذا لا يهم. سنتظاهر بذلك».

كما تفترض الأصول، على كلّ يد أن تمسك بيد الواقف إلى جنبها، فنميل إلى الأمام في اتّجاه واحد ثمّ نثب معاً. لكن لمّا كنت أحمل لعبة موموبي، تعيّن علينا تنفيذ الحركة بيد واحدة.

«تعالي إذن»، قلت، ملتقطاً يد موموبي.

«كيف؟».

«على هذا النحو».

وثبت على نحو متثاقل، فضحكت زوجتي. موموبي المفعمة بالإثارة وثبت صاعدة وهابطة.

«هل أنت مستعدّة الآن؟ حسناً، هيا بنا. و – الكلّ – في – وضعيّة – الرقص!».

وثبت إلى الأمام، لكنّ الطفلة لم تفعل سوى الضحك وقفزت

متقدّمة كأنّها تركض.

« والكلّ في وضعيّة الرقص!».

بدت كأنّها تفقد توازنها، فأمسكت بيديها الاثنتين يدي، وبقيت متدلّية في تلك الوضعيّة. عندها، رفعتها وقرّبتها إلى الأمام، هاتفاً «هاي إلى الأعلى!» وأنا أفعل ذلك. عندما لامست الأرض بقدميها، هتفت «هاي إلى الأعلى!» مرّة أخرى ورفعتها من جديد. لم يكن الأمر شيئاً في الحقيقة - سوى أنّني صنعت لابنتي بيد واحدة «أرجوحة طائرة»، كنّا أنا وزوجتي في العادة نصنعها معاً. مومويي راحت وقتها تضحك بلا توقّف، ولم تأت بأيّة محاولة للقفز مرّة أخرى بعد أن نزلت على الأرض. لكن حين ظننت أنّها اكتفت، هتفت قائلة «أريد أكثر!».

«حسناً - هاي إلى الأعلى!».

لم يسبق لنا من قبل أن ركضنا هكذا يداً بيد. «احذر!» اعتقدت أنّي سمعت صوت زوجتي ينادي خلفنا في تلك اللحظة.

غير أنّي رحت على نحو غير متعمّد، جرّاء حماستي تجاه ضحك الطفلة، أصاعد من سرعة الركض، جاعلاً مومويي تحلّق بعلوّ كاد يلامس الأرض. قبل أن أتدارك نفسي، كنت أركض بسرعة كبيرة، ثمّ بدأت أتساءل إذا كان ما أفعله مناسباً والطفلة

تتدلّى في الهواء.

«توقّف!» انتابني هاجس الخطر، وخفّفت من سرعتي. لكنّ الخطر كان قد حلّ.

فجأة، اصطدم شيء بمقدّمتي ساقيّ. وانقلب بصري رأساً على عقب في اللحظة عينها، وطرحت بعنف على الطريق. لاحقاً وبسبب تخفيفي السرعة فجأة، أدركت أنّ ساقيّ مومويي اللتين كانتا تطيران في الهواء، اندفعتا إلى الخلف بسبب قوتهما الدافعة وغدتا متشابكتين في ساقيّ. غير أنّني عندها لم أستوعب ما كان يحصل. الشيء الوحيد الذي يمكنني تذكّره بوضوح هو أنّ جسد الطفلة ارتدّ ممطوطا تحت طرفي، وأنّ عينيها، وقد أصبحتا تحتي فجأة، انفتحتا في تلك اللحظة على نحو واسع وحادّ.

صعقني ذاك وأعادني إلى حواسي. كنت قد وقعت والطفلة محشورة تحت إبطي على نحو يحاكي حركة الجودو. رحت أسند الجزء العلوي من جسدي بقوّة إلى مرفقيّ، وعلى الرغم من أنّ ذلك كان شيئاً لا أذكره تماماً، فقد سرّني تمكّني من دفعهما بسرعة كبيرة. إذ لو لم أتمكّن من ذلك، لهبطتّ حتماً بكلّ قوّتي على صدر مومويي.

نهضت على قدميّ. عندما وقفت، هرعت فوساكو إلى المكان وانتشلت الطفلة بسرعة. راحت تضربها بقوّة على مؤخّرتها وتنادي باسمها مرّات عدّة. وأخيراً أدركت الأسوأ. لاحظت أن مومويي لم تكن تبكي أبداً. حتّى إنّها لم تكن تصدر أيّ صوت. انتابتني رعشة لاإراديّة وأسرعت إلى جانب زوجتي.

لن أنسى أبداً النظرة التي خصّتني بها فوساكو في تلك اللحظة.

استدارت ونظرت إليّ كما لو أنّني غريب بعيد. نظرة عينيها باردة مثل سكين، نظرة لا غفران فيها. ثمّ فجأة، لوت قسمات وجهها موشكة على البكاء. «حسناً»، صرخت قبل أن تندفع في حقل الذرة قرب الطريق، كأنّها تتجنّب اقترابي كي آخذ مومويي منها. بينما هي تفعل ذلك، طارت فردة من صندلها الخشبي من قدمها واستقرّت على الطريق الإسفلتي محدثة صوت ارتطام قويّ.

«حسناً» – ما الذي عناه ذلك؟ هل معناه أنّها تستطيع تدبير الأمور بمفردها؟ وأنّه عليّ ألا أزعج نفسي في الانتباه للطفلة بعد الآن؟

وعندما رحت أقلّب ذلك السؤال في رأسي، استرجعت

صندل فوساكو من الطريق ورفعت لعبة مومويي عن الأرض، ووقفت هناك على قارعة الطريق صامتاً، مراقباً زوجتي وهي تضرب مؤخّرة الطفلة وتدور في مكانها كأنّها ترقص في حقل الشعير، محدثة خراباً لا يوصف وسط السنابل المتدلّية.

لم يمض وقت طويل حتّى صدر من فم الطفلة لهاث مخنوق، مثل أوّل صرخة يطلقها وليد جديد.

رحت أتساءل: ماذا بحقّ السماء كان يمكنني أن أفعل لو لم تستعد الطفلة بكاءها أبداً؟! وهو السؤال الذي أحلّ في كياني ارتعاشاً جليدياً كلّما عدت وفكرت فيه. حينها، أكون قد أقدمت على سحق طفلتي، التي أحببتها كثيراً - وذلك في محاولتي إسعادها!

كلّما أفكّر في الأمر مستعيداً إياه، تجثم أمام عينيّ طاقتي على إلحاق الأذى الذي لا يحدّ عبر خطأ واحد. أنا مروّع وأشعر بضعف في ركبتيّ.

لم تتعرّض مومويي، لحسن الحظ، سوى لالتواء معتدل في كاحلها الأيمن. أسرعنا في أخذها إلى الطبيب الأقرب، الذي جرّد الطفلة من ثيابها وفحصها. تمدّدت على سرير الفحص جلدي الغطاء، ناظرة إلى الأعلى وظهرها ملتصق بسطح السرير

كما لو أنّها مبتلّة بعرق بارد. في كلّ مرّة ترفع يدها أو قدمها، يصدر من السرير صوت تقشّر الجلد. خفت بالدرجة الأولى من أن تكون قد صدمت رأسها، لكنّ هذا الأمر، على ما بدا، لم يحصل. كما لم يظهر أيّ ضرر هام حول بطنها، التي حشرت إلى الأسفل تحت ثقلي.

حين أدركنا أخيراً أنّ إصابتيها الوحيدتين كانتا التواء في كاحلها الأيمن وخدشاً في طرفها الأيمن، تصبّب وجهانا عرقاً. ذلك لم يكن أبداً وقتاً للانسجام السعيد. عدنا إلى البيت دون الذهاب إلى الحمّام العموميّ.

التأم الخدش سريعاً، لكن شفاء الكاحل الملوي تطلّب وقتا أطول. رحنا نجهد في استخدام كمادات رطبة ولفافات زوّدنا بها الطبيب لمعالجة كاحلها الملويّ، لكنّ ذلك لم يثمر أيّ نتيجة. طالما تعرّضت لليّ الكاحل عندما كنت في المدرسة الثانويّة، وحين كنت أستخدم كمادات رطبة تضمّ طحين قمح معجوناً بالخلّ، كنت أشفى بعد يومين أو ثلاثة. وعندما تذكرت هذا الأمر، سألت فوساكو في استعادة تلك الوصفة. لكن يبدو أننا أكثرنا من الخلّ، ما جعل باطن قدم الطفلة يغدو أبيض وينتفخ كسطح حصير التاتامي. أوقفنا

استخدام الكمادات بعد يومين أو ثلاثة.

كانت تلك المرّة الثانية التي تتعرّض فيها موموبي للإصابة. كانت المرّة الأولى عندما انخلع كتفها الأيمن وهي في عمر السنتين. كانت تلعب بمفردها، تتدحرج على الأرض في شقتنا، عندما راحت تبكي على نحو مفاجئ. أخذناها إلى الطبيب واكتشفنا أنّها خلعت كتفها. هي في البداية آذت نفسها ثمّ تعرّضت للأذى لاحقاً على يد والدها. ربّما باتت تشعر سرّاً بالحذر ليس تجاه نفسها فقط، بل تجاهي أيضاً منذ ذلك الحين.

هذه أيضاً كانت المرّة الثانية التي نظرت فيها زوجتي إليّ على أنّي غريب. كانت المرّة الأولى بعد وقت قصير تلا إنجابها لموموبي في قريتي. كنت قد تبعتها إلى القرية، ولكنّي لم أكن في البيت في ليلة ولادة الطفلة. كنت في حانة قريبة، ثملاً أنشد الأغاني.

عدت إلى البيت حين لاحت أنوار الفجر الأولى، لأكتشف أن فوساكي قد أنجبت في الليل. قبل كلّ شيء، فقد وبّختني أمّي عند مدخل البيت.

«أيّ صنف من الآباء هذا الذي يقضي الليل في الخارج في أثناء ولادة طفله الأوّل؟» قالت في صوت خفيض جدّاً وقد برزت عروق جبينها الزرقاء.

دخلت إلى غرفة الولادة دون التفوّه بكلمة. جلست على الأرض طاوياً ساقيّ قرب وسادة الطفلة التي وضعت هناك في الأسفل بمحاذاة زوجتي. حدّقت في وجه طفلتي للمرّة الأولى، وقد أذهلني رؤية وجهها النائم الذي بدا تماماً مثل وجهي عندما كنت طفلاً. لم يكن لي سبيل بالطبع في أن أعرف ملامح وجهي وأنا طفل نائم. لكنّي ما أن رأيت وجه طفلتي النائم، حتى أحسست على الفور أنّه مشابه تماماً لوجهي وأنا طفل. بدا الشبه خارقاً للعادة، فأذهلني.

التفتّ نحو فوساكو كي أقارن وجه الطفلة النائم بوجهها. كنت موقناً أنّها نائمة ولم تصح إلا قبل لحظات، لكنّي ذهلت إذ رأيت أنّها فتحت عينيها على وسعهما ناظرة إليّ. عيناها لم تكن عينيّ شخص صحا لتوّه من النوم، بل عينيّ من قد استلقى صاحياً طوال ساعات. ثمّ لاحظت أنّها تنظر إليّ كما لو أنّني غريب تماماً.

«لقد أنجبت الطفلة»، قالت بهدوء لكن على نحو واثق. بالكاد هززت رأسي صامتاً. «أردتك أن تكون أوّل من يراها». راحت تبكي على نحو مفاجئ، وكتفاها ترتعشان بقوّة. «لماذا إذن كتبت لك تلك الرسالة؟ أنت بلا قلب، بلا

قلب، بلا قلب!».

صحت الطفلة وراحت تبكي.

بعد أن قرأت الرسالة، أعطيت ما كان بين يديّ من عمل للآخرين، وأسرعت مذعوراً للانضمام إلى زوجتي، تاركاً كلّ ما تبقى من أمور لوقت آخر. لا أعرف إن كنت قد نظرت إليها على أنّها غريبة حين رأيتها للمرّة الأولى بعد أن قرأت الرسالة. شعرت حتّى تلك اللحظة، على الأقل، بأنّها تبدّلت وغدت شخصاً آخر تماماً، وقلقت من لقائها. لكن في الحقيقة حين التقينا، أحسست أنّها باتت أقرب إلى قلبي من ذي قبل.

قلت لها إنّها لم تغتصب. أقنعتها بأنه على الرغم من ظهورها بمظهر المغتصبة، فإن ناكاأوكا لم يغتصبها. أخبرتها بأنّ هناك منحرفين مثله في العالم. وقالت إنّها اشتبهت إلى حدّ ما بأمور كهذه منذ زواجنا، لكنّها امتعضت من وجود رجل خانها على هذا النحو. شاركتها الامتعاض، لكن أكثر ما امتعضت منه كان حقيقة أنّ أحاسيس فوساكو الماديّة في ذلك الوقت أثارت وتراً عميقاً في داخلي أكثر ممّا فعلت ردود فعلها المعنويّة.

لم أستطع تجنّب تكرار سؤالها عن كلّ تفصيل يتعلّق بمحنتها. كلّ مرّة قمت بهذا، أحسست كما لو أنّ جسدي

ثبّت بأعمدة من نار.

رحت آنئذ، متمنيّاً أن تعتبرني أكثر وحشيّة من ناكاأوكا، أتفرّس في جسدها عن قرب وعلى نحو شامل، ثمّ أحضن رأسي بيديّ وأبدأ بالنحيب. غدوت في منتهى البؤس.

لم يكن الأمر منذ البداية مرتبطاً بمسألة الغفران لها أم لا. بوسعي طبعاً تصديق ما أخبرتني إيّاه. لكنّي لا أستطيع نسيان ذلك مهما حاولت. كابوسها مثل بكرة فيلم تدور في رأسي. عاماً إثر عام قد يغدو الفيلم أكثر بطئا، صورته قد تغدو أقلّ وضوحاً، لكنّ الصورة ستبقى مرئيّة. حتّى أن الفيلم الآن قد يغدو، وعلى نحو طوعي، مقطّعا بالأحداث غير المتوقّعة. وحين يبدأ الفيلم بالدوران، لا يمكنني إيقافه أبداً.

حين نتجادل حول إحدى المسائل التافهة، مثلاً، يبدأ الفيلم بالدوران على نحو مفاجئ، وعندئذ، حتّى السجال الذي كاد ينتهي يعود ويستعر على نحو كئيب من جديد. يغدو السجال منحرفاً، وأصير عاجزاً عن التحكّم بأفكاري.

أجدني في بعض الأحيان منهكاً بالغضب على نحو مفاجئ. حتّى أنا نفسي لا أعرف سبباً لغضبي. لا يمكنني فعل أيّ شيء كي أوقفه. إذا كنت في السرير، فسأمزّق طرف اللحاف فجأة.

وإذا كنت أتناول الطعام، فسأكسر العودين أو أرمي الطعام من الطبق.

حتّى بعد انتقالنا إلى شقّتنا الجديدة، التقطتّ من طبقي مرّة بعض المحارات[1] المقليّة وقذفتها في وجه زوجتي.

«لماذا لا تضربني؟ اضربني أرجوك!» قالت متوسّلة. لم أقل شيئاً، بل أكملت قذف المحارات عليها. أصابتها في وجنتيها وجبينها مصدرة صوت صفعة هشّة. لا أستطيع أبداً ضرب زوجتي بيديّ. على أيّة حال، إنّ الجدران من الخشب الرقائقيّ.

في الخريف ذهبنا إلى منتجع ينابيع مياه ساخنة في جوشو لليلتين.

حين لم يظهر كاحل مومويي أية إشارة تحسّن، أخذناها لإجراء صورة أشعة، وقد أخبرنا أنّ هناك كسر رفيع في عظم كاحلها. كما قيل لنا إن إهمالنا الكسر قد يسبب لها العرج طوال حياتها. هذا الأمر جعلني أحمرّ خجلاً أمام الطبيب. وضعت ساق مومويي في قالب من البلاستيك مدّة من الزمن، لكنّها برئت تماماً مع ابتداء فصل الخريف.

(1) المحار: من الرخويات البحريّة.

كانت رحلة الليلتين طريقتنا في الاحتفال بشفائها. أخذنا القطار البخاريّ في البداية، ثمّ انتقلنا إلى قطار كهربائي. حين وصلنا، رفّهنا أنفسنا عبر أخذ سيّارة تاكسي تقلّنا من المحطّة إلى المنتجع.

نزلنا كان مليئاً بالضيوف، لكنّ الهدوء كان في انتظارنا ما أن دخلنا إلى غرفتنا. فور مغادرة الخادمة، وقفت فوساكو على رؤوس أصابعها وقرعت الجدار بهدوء.

«إنّه حقيقي!» قالت هاتفة، ثمّ هزّت كتفيها وضحكت ضحكة خافتة.

لكنّها قبل العشاء عادت من الحمّام كئيبة.

«هذا غريب»، قالت.

«ما هو؟».

«لقد بدأت عادتي الشهريّة. جاءت قبل عشرة أيّام من موعدها. هذا غريب».

نمنا بهدوء لليلتين قبل عودتنا إلى البيت.

ثم، في اليوم الثاني الذي تلا عودتنا، حصل انقلاب غير متوقّع في الأحداث.

كنت على وشك مغادرة العمل في ذلك اليوم حين استدعيت

كي أردّ على اتصال هاتفي. كان اتصالاً من زوجتي.

«أنا في مستشفى ك»، قالت دون صخب.

مستشفى ك هو الأكبر في منطقتنا.

فكّرت على الفور في طفلتنا. قلت إنّ كاحلها ربّما أصيب بانتكاسة جرّاء عدم اكتمال العلاج في مياه الينابيع الساخنة.

«هل هي موموبي؟» سألت ويدي على قلبي.

«لا. إنّها أنا هذه المرّة».

«أنت؟ ماذا حصل؟».

«لقد رحت أنزف على نحو سيئ في البيت بوقت مبكّر من هذا اليوم».

«تنزفين؟».

«أنت تعلم»، أجابت، ثم صمتت. في النهاية أدركت ما كانت تقصده.

«وبعدها؟».

«صدمني الأمر فطلبت سيّارة تاكسي كي تحضرني إلى هنا. قال الطبيب إنّني كنت على وشك الإجهاض».

«ماذا؟!» قلت مذهولاً، وقد أخذت على حين غرّة. «لكن هل أنت موقنة..».

فكرة الإجهاض كانت غريبة إذ لم تكن حاملاً.

«أجل، أنا أيضاً فوجئت بسماع هذا. يبدو أنّني كنت حاملاً دون أن أعلم. هل تذكر في الشهر الماضي حين قلت إنّ دورتي جاءت مبكّرة جدّا؟ كنت حاملاً آنذاك على ما يبدو. قال الطبيب إنّ الأمور تحدث أحياناً على هذا النحو».

«لكنّ عادتك الشهريّة بدأت حين كنّا في الينابيع الساخنة!».

«لا، تلك كانت المرحلة الأولى من الإجهاض. وعلى أيّة حال، أعتقد أنّ الأمر كان غريباً حينها».

«أجل، لكن... كيف أمكن للأمر أن يحصل؟».

«سألني الطبيب إن كنت قد أقدمت على عمل شاق معيّن، أو إن ذهبت في رحلة طويلة في الآونة الأخيرة. عندما أخبرته عن رحلتنا، قال إنّها هي السبب على الأرجح. وإنّه لم يكن عليّ التعرّض لارتجاجات القطار».

أحسست بشيء من السخط جرّاء الأمر.

«لكن كيف كان لنا أن نعلم؟ لم يكن بوسعنا تجنّب الأمر. لو أدركنا ذلك لما ذهبنا إلى هناك قبل كلّ شيء».

«هذا صحيح. لم يكن بوسعنا تجنّب الأمر».

لم نقل شيئاً لبعض الوقت.

فاق العمل الحسّاس لجسد المرأة تصوّري.

«على أيّة حال، ماذا يحصل الآن؟».

«يقول الطبيب إنّ النزف سيزداد إذا تحرّكت كثيراً، وحينها سأجهض. لذا من الأفضل البقاء في المستشفى حتّى تهدأ الأمور، كما يقول».

«حسناً، من الأفضل أن تفعلي ذلك إذن».

«لكن ماذا عن مومويي؟».

«سوف أتدبّر الأمر».

كيفيّة تدبّر الأمر شأن أفكّر به لاحقاً. على أيّة حال، فكّرت أنّها فرصة مناسبة كي أرمّم علاقتي مع ابنتي.

بعد أن قلت إنّني سأمرّ بالمستشفى، أنهيت المكالمة الهاتفية، وغادرت المكتب على الفور متوجّهاً إلى هناك في الحال. كانت فوساكو في سرير مزدوج، مستلقية تحت لحاف صيفي من نوع لم أره من قبل. بدا وجهها شاحباً.

قالت «آسفة لحصول هذا الأمر».

«لا بأس»، أجبتها. «هذا ليس خطؤك وحدك».

أجبرت نفسها على الابتسام. في السرير الآخر قبالتنا مريضة

في منتصف العمر تنام وعيناها نصف مغمضتين. أخفضت فوساكو صوتها. «أجريت لها عمليّة في مثانة المبيض»، قالت.

ذهبت لرؤية الطبيب.

أفادني الطبيب أن الجنين الذي تجاوز شهره الثالث مازال موصولا بالمشيمة[1] إلى حدّ ما، وأنّ هناك حظّاً بنسبة خمسين في المائة لتجنّب الإجهاض إن سارت الأمور على ما يرام. سيكون هناك بعض الأمل إن توقّف النزيف الآن، لكن إن استمر لفترة أطول ينبغي استئصال الجنين عبر عمليّة تجريف[2].

«بالطبع أولويّتنا هي إنقاذ الجنين، فأودّ تجنّب عمليّة التجريف إن كان ممكناً»، أضاف الطبيب.

رجعت إلى جانب فوساكو وأخبرتها ما قاله الطبيب.

«ماذا تريدين أن نفعل؟».

«يبدو أنّ النزيف توقّف..».

«حسناً، هل تودّين البقاء في المستشفى والاستعداد لإنجاب الطفل؟».

«أجل». نظرت إلى الأعلى وحدّقت في السقف بملامح

(1) غشاء الجنين الذي يخرج معه عند الولادة.

(2) عمليّة كحت الرّحم.

جادّة بعض الوقت.

«هل ستكون على ما يرام؟» سألت بعد ذلك.

«سأكون على ما يرام. سأتدبّر الأمر بطريقة أو بأخرى».

ظلّت محدّقة في السقف دون أن تتكلّم. ثمّ أدركت على الفور أنّ ما يقلقها لم يكن ما يتطلّبه إنجاب طفل من أجر أو ما سيعكسه ذلك على حياتنا، بل هو السؤال المتعلّق بحالي أنا.

«سوف أكون على ما يرام»، قلت مكرّراً.

«أجل. أنا موقنة من هذا»، قالت، وكأنّها تحاول إقناع نفسها. ثمّ نظرت إليّ بعد ذلك بتعبير رضا.

قرّرت الذهاب إلى البيت، لكن قبلها أعددت لائحة بالأشياء التي أرادتني فوساكو أن أحضرها.

«ثمّ، إن كان بالإمكان، هل تستطيع إحضار مومويي معك غداً صباحاً؟» قالت في النهاية.

«أجل، سوف أحضرها».

«أريد إخبارها بأنّها ستصبح أختاً في السنة القادمة».

«يمكنها أن تنام معي الليلة».

بدت فوساكو معتقدة أنّني فخور في الأمر. «إنّها تحتاج إلى الذهاب إلى الحمّام مرّة في الليلة، تعرف هذا»، قالت، مرفقة

ذلك بضحكة خافتة.

«أستطيع تدبّر الأمر»، قلت، وقد وقفت كي أغادر.

«أووه... و»

«ماذا؟».

«الكلام عن الذهاب إلى الحمّام...هذا يذكّرني».

ابتسمت بامتعاض.

«كيف تفعلين هذا؟».

«هناك وعاء تحت السرير. هل تمانع؟».

تناولت وعاء لامعا من تحت السرير.

«وهل أنتظر حتّى تفعليها؟».

«أجل. آسفة».

لم يكن لي خيار سوى أن أجثو عند قدم السرير، حتّى سماعي في النهاية الصوت الذي أصدرته زوجتي من تحت الغطاء.

تذكّرت مشهداً مشابهاً حصل في الماضي. كان ذلك حين قمنا بزيارة المنزل المعدم لعائلة فوساكو في الشتاء الأول بعد زواجنا. في وقت متأخر من إحدى الليالي، وأنا مستلق في السرير بعد انسلال فوساكو منه، سمعت صوت مبولة وهي تملأ في الجانب الآخر من الباب الجرّار. كان صوتاً نقيّا على ما أذكر،

صوتاً عذباً، كرنين جرس صغير.

لو نستطيع العودة إلى تلك الأيّام، رحت أفكّر.

أحسست فجأة برغبة في الصلاة.

ربّما وضعت إيمي في الشقة رقم أربعة تذكاراً من أيام صباها تحت سريرها، وصلّت له بالطريقة عينها.

ولو أنّنا نستطيع البدء من جديد من هناك!

لكنّها كانت أمنية مستحيلة. لم يعد، حتّى صوت الجرس الصغير، شيئاً سوى صوت طشيش زبد أصفر. ينبغي لنا صنع انطلاقتنا الجديدة من هنا والآن، مهما تطلب ذلك من وقت.

حدّقت صامتاً في الظلام تحت السرير، إلى أن توقّف الصوت.

نبذة عن المؤلف:

ولد تيتسيو مِييورا عام 1931 في أيوموري، اليابان.
عمل، بعد تركه جامعة واسيدا، فترة من الزمن معلم مدرسة، لكن حين انتحر أربعة من إخوته الخمسة، أو اختفوا، هجر مييورا التدريس، وقد تملكه الخوف من وجود لعنة ما في عائلته. عاد وانخرط في جامعة واسيدا وبدأ الكتابة. بعد فوز روايته شينوبوغاوا بجائزة أكوتاغاوا، عاود نشاطه الكتابي سبيلاً للتطهر من "دمه الملعون"، فأنتج سلسلة من الروايات. تتضمن أعماله الأخرى "أومي نو ميتشي" (دروب البحر)، وهي تصف فتيات غيشا المرفأ ذوات الشعر الأحمر والمولودات من أمهات يابانيات وآباء من البحارة الأجانب؛ و"شونين سانكا" (ترانيم الشباب)، التي تصف الشبّان اليابانيين الذين سافروا إلى أوروبا في مهمة رسمية عام 1582؛ و"بياكويا أو تابيسورو هيتوبيتو (مسافرو الليلة البيضاء)، وهي قصة عائلة عاثرة الحظ.

نبذة عن المترجم :

كاتب وشاعر ومترجم لبناني. درس الهندسة الداخلية وتخرج في معهد الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية.

نشر كتاباته ونصوصه الشعرية في الملحق الأدبي في جريدة النهار منذ التسعينيات قبل أن يعمل في صفحة التحقيقات بجريدة السفير.

انضم في عام 1999 إلى أسرة ملحق "نوافذ" في جريدة المستقبل ومازال ينشر مقالاته وكتاباته فيه.

في عام 2004، أقام في هولندا وانضم إلى جامعة أمستردام وتخرج فيها بشهادة ماجستير في الدراسات الأميركية.

له في الشعر: أو أكثر (2000)، وهل جرحت يدك؟ هل جرحت خدك؟ (2008)، وشجرة بيضاء تحاول الطيران (2010)، وبحث تاريخي بعنوان "كأس لداروين" (2008).

ترجم لمشروع "كلمة" حكايا قبائل الشيروكي (2010).

عار في السلالة

رغم أنها الرواية الأولى للمؤلف، إلا أنها احتلت مكانة بارزة في الأدب اليابا ني بعد الحرب العالميّة الثانية مكرّسة ميبورا واحداً من أشهر كتاب الرواية اليابانيّة المعاصرة.

وتجمع الرواية بين خصوصيّة السيرة الذاتيّة التي يحاول الكاتب النأي بها عن نفسه وبين الاتّساع الثقافي الذي أصاب ذائقة جيل كامل من اليابانيين بعد الحرب، الأمر الذي عبّر عنه بلوغ أعداد مبيعاتها في اليابان إثر صدورها نحو المليون نسخة. يمكن عدّ كلّ فصل من الفصول الستّة لهذه الرواية قصّة متكاملة. ثمّة ميل واضح عند ميبورا إلى تأليف لوحة كتابيّة مكتملة وتفصيليّة في كلّ فصل من فصول روايته. كأنّه بذلك ومع كلّ فصل جديد يرسم لوحة من منظور معيّن. تمنح منظوراته المتعدّدة في النهاية عالمه الروائيّ أبعاداً مختلفة قد تفاجئ قرّاءه في بعض الأحيان.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

9 789948 019800

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA